محمد كامل الفقي

الأزهر

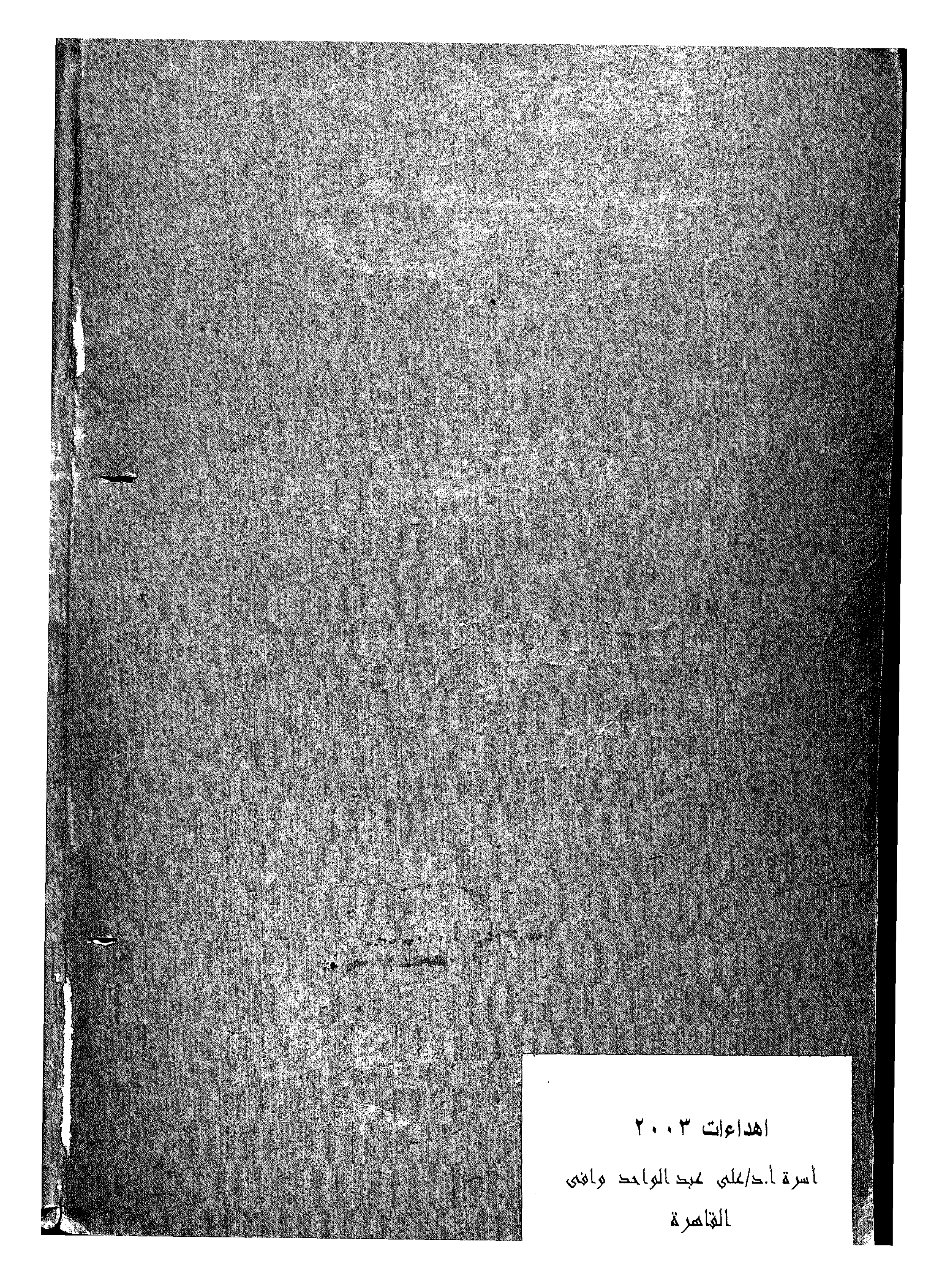
وأثره في النهضة الأدبية الحديثة

« ... وتمكن الأستاذ المؤلف من تجلية هذه الحقائق رغم ما اعترضه من المصاعب دليل واضح حي ، على أن في الأزهر كنزا من خصب العقول وذكاء القلوب وحسن الاستعداد لجلائل الاعمال يجدر بمصر الحديثة ألا تهمله ولا تنساه » .

طه حسين

الجزء الثالث

نشر المطبعة المنيرية بالأزهر



محمد كامل الفقي

الأزهر

وأثره في النهضة الأدبية الحديثة

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

نشر

المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف

المطبعة المنيرية بالأزهر

الشيخ عبد العزيز البشرى

المتوفى سنة (١٣٦٢ — ١٩٤٣)

نشأته وحياته

الشيخ « عبدالعزيز » بن الأستاذ الأكبر المرحوم « سليم البشرى » الذى ظل شيخا للأزهر مدة من الزمان ، وكان من المتبحرين فى فقه المالكية وكان إخوة الشيخ عبد العزيز « علماء وطلابا فى الأزهر ، فاقتضت هذه البيئة الأزهرية العلمية التى نشأ فى ظلالها أن يتجه متجهها وأن يكون أحد طلاب الأزهر فألحق به فى بواكير حياته ، بعد أن قضى فترة فى المكتب ألم فيها بمبادىء القراءة والكتابة وأتم القرآن حفظا ، وظل يوالى دراسته فى الأزهر حتى نال شهادة العالمية ، ولم يكد يحصل عليها حتى طلبته وزارة المعارف وجعلته محرراً فنيا بها لماذاع من أدبه وطار من شهرته . ثم ولى القضاء الشرعى حينامن الدهر[1] واختبر فى مناصب أخرى حتى أصبح وكيلا لإدارة المطبوعات فسكرتيراً برلمانيا لوزير المعارف ، ثم عين رئيس تحرير لمجلة المجمع اللغوى الملكى ، وكان المرحوم « محمد جاد المولى بك » مراقبا إداريا للمجمع ، فلما نقل الثانى إلى وزارة المعارف عين « البشرى » بدلا منه ، وظل بهذا العمل حتى استأثر الله به فى صباح الخميس الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ م

صفاته ومواهبه :

وقد نشأ رحمه الله مجبولا على حب الأدب نهما فى الاطلاع ، عكوفا على

---

(١) وإذ كان قاضياً بمحكمة « امبابة » الشرعية ندب لتدريس الأدب فى الأزهر وكان يفد إلى درسه طلبة دار العلوم من أمثال الأستاذ « صالح هاشم » والأستاذ « عبد الوهاب حمودة » وغيرهما .

البيان العربي يروى نفسه من روائعه ، ويستظهر من غرره ، وقد سمعت من أهله وخلصائه الذين اندسست فيهم للوقوف على ما خفى من سيرته ، فرووا أنه عكف ليلة على كتاب الأغانى لأبى الفرج ، وكان من عشاقه المتوفرين على قراءته فظل مستغرقا فى الاطلاع يضىء له مصباح نفط ، ولم يرعه إلا أن والدته دخلت عليه وقالت له : (أطفىء المصباح إذلا حاجة لك به فقد طلعت الشمس) .

وكان من فتونه بالأدب أن عزف به فى كثير من الأحيان عن الدروس فى الأزهر أيام الطلب وشغف بالتفرغ للكتابة الأدبية يروى بها ظمأه وأقبل على الصحف الأدبية يكتب لها وهو حدث كما افتتن فى صباه بحب الفن وأغرم بأهله ، رويت عن أحد خلطائه الأدباء أنه لم يفته مجلس من مجالس الطرب التى كان يقيمها المطربون فى شبابه من أمثال : « عبده الحمولى ، ويوسف المنيلاوى ، ومحمد عثمان ، وغيرهم » ومع أنه من هذه البيئة الدينية التى يلزمها مجانبة اللهو واللعب كان يحتال برشوة يقدمها للخدم للخلاص من القيود ، فلا يزال يجول فى القاهرة ويتحسس مواقع السمر ومواطن الطرب حتى يعود مع الفجر وقد أثر فى نفسه طول ما غنمه من أوقات اللذة والسرور وما استمتع به من الفن والتطريب ، فزاد فى إحساسه وهذب مشاعره ، على ما نشأ عليه من رقة النفس وإرهاف الحس .

وكان البشرى حاد الذكاء ، حاضر البديهة ، صافى الذهن ، لماح الخاطر ذواقا إلى أبعد الحدود ، قوى الحس إلى درجة نادرة حقا لا يكاد يمر به شىء إلا التقطه التقاطا ، ورسمه فى نفسه رسماً يخالطه مخالطة حتى يصبح كأنه جزء منه[1] .

وكان سريع التأثر أيضا حتى لقد عرف بذلك بين أصدقائه فكانوا يتقون مواطن تأثره ويحسبون لها حسابا . وإذا تأثر بشىء لم يكد يطيق

---

(١) الدكتور طه حسين فى مقدمة المختار الجزء الأول .

احتماله بل يتبرم بكتمانه ، ويسعى لأحبابه وخلانه فيلقى به اليهم ويعالنهم بما ضاق به فاذا هم صفحة من نفسه ، وقسيم فى شعوره وحسه .

وبما امتاز به حلاوة فكاهته وحسن محاضرته وسعة اطلاعه على المجتمع وأخلاق الناس وأحوالهم وإلمامه بأسرار الجيل التى واتته من طول المداخلة وحسن المخالطة حتى إذا حدث فى هذا المقام كان خبيراً بما يقول .

وقد عنى عناية خاصة واحتفل احتفالا بالغا « بكتاب الأغانى » فقلب فيه النظر وأدمن الاطلاع عليه ، وتروى كثيراً من أدب الجاحظ وتردد على مطالعته وجرد له جانبا من وقته ، وكان الاطلاع على « الأغانى » وكتب « الجاحظ » حبيبا إلى نفسه متسقا مع هواه ، ترسم « أبا الفرج » « وأباعثمان » وتأثر بهما وانطبع على طريقتهما وتحدث بلغتهما ، وخاصة « الجاحظ » الذى يحيل عليه فى كثير من المواطن ويشير إلى الأخذ عنه والتهدى اليه ، ويصرح فى مطالع ما كتبه « فى البخل » بأنه قرأ كتاب البخلاء « للإمام الجاحظ » أكثر من مرة ويذكر حين يتحدث عن المداعبات والأفاكيه بأنه قرأ للإمام « الجاحظ » شيئا فى هذا المعنى ، وحين يصور الشيخ « التفتازانى » فى المرآة يقول : « أنه لو نجم فى عهد « الجاحظ » أو اطلع عليه « كارليل » لخصت به الرسائل وأفردت له الأسفار ولكن أنى لنا جزالة قلم « الجاحظ » أو دقة ذهن كارليل ، لنقول فى الشيخ كل ما ينبغى أن يقال فيه[1] » .

ووإذ يتحدث فى تمهيده للكتابة فى المرآة عن النكتة يقول « وللإمام « الجاحظ » فى هذا المعنى قول جليل فراجعه إن شئت فى كتابه البخلاء » .

وممن تأثر بهم « البشرى » فى طريقتهم وأولع بأدبهم وأسلوبهم « المويلحى الكبير » فقد كان ينهج فى رسائله « فى المرآة » نهجه فى تحليل الشخصيات دون

(١) فى المرآة صـ ١٢١

خدش فى الأعراض أو اسفاف فى الأداء[١] » .

ولم يكن ذلك وحده هو ما تأثر به من « المويلحى » فقد كان منذ شب على الكتابة يكتب إلى صحيفته الأدبية « مصباح الشرق » ويكلف بالمصباح الذى أصبح فى الأدب العربى فتحا جديداً وأمسى مصباحا حقا يهتدى المتأدبون بسناه ، بل صار أخفر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد ، بل إن « البشرى » يدل صراحة على أنه اهتدى بالمصباح فى نشأته الأدبية فيقول « لست أغلو إذا زعمت أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان مصباح الشرق عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى ، وبهذا كنت شديد الإكباب على قراءته وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغه وطرائف عبارته حتى لقد كنت أشعر بأنى أترشفهما ترشفا لتدور فى أعراقى وتخالط دمى وتطبع على هذا اللون من البيان الجزل السهل النافذ الطريف[٢] .

« والبشرى » نظم الشعر فى شبابه وكثيراً ما نظمه فى هجاء المرحوم الشيخ « على يوسف » ونشره فى جريده « الظاهر » . ولكن شعره قليل على جودته وقد استأثرت الكتابة بعبقريته فلم تدع للشعر مجالا فى نفسه ، حتى إذ توفى صديقه المرحوم « حلمى المنشاوى » الطبيب وهو غض الشباب جرت عاطفته بشعر نشرته « الرسالة » فى حينه .

أسلوب البشرى :

اتسم أدب البشرى بالجزالة والفصاحة التى ترجع بالكتابة إلى العصر

---

(١) المويلحى الكبير هو « إبراهيم بك المويلحى » الأديب الكاتب كان من أول من اهتدوا فى هذه النهضة إلى الأدب العربى القديم وفتنوا بروعته وسحر بيانه ترسم الجاحظ فى أسلوبه وامتاز بجزالة اللفظ ودقة الوصف وجمال العبارة وتوفى سنة ١٩٠٦

والمويلحى الصغير هو ولده الكاتب العالم « محمد بك المويلحى » صاحب حديث عيسى بن هشام توفى سنة ١٩٣٠

(٢) المختار ج ١ ص ٢٩٦

العباسى الأول ، وتجلت فى أسلوبه كثرة الترادف والآن دواج وتكرار المعنى فى كثير من صوره ، وفى أسلوبه كثير من السجع ولكنه مقبول لايعل سماعه ولا يستكره ترديده ، على أنه يوافيك بثروة لغوية خصبة ليس بها أثر من التوعر تواتت له من غزارة مادته وسعة إطلاعه وكثرة ما رواه من البيان العربى وأساليب القدماء ، وقد ظهر فى أدبه دقة الوصف وإيفاؤه حقه ولا سيما حين يصف الأشخاص كما يظهر للمطلع على مقالاته التى كتبها فى « المرآة » وقد تأثر فيهـــا بأساليب الغرب فى تحليل الشخصية والإفاضة فى وصف الأشخاص والتسلل إلى مداخلهم النفسية فضلا عن أوصافهم الظاهرية .

وإنه ليروعك من « البشرى » تفطنه إلى عادات النـاس وأخلاقهم وشذوذهم وخواصهم البعيدة التى لا يلتفت إليهـــا إلا الذواقون من الأدباء المرهفون حسا ، حتى إنه ليعرف الشخص فيرسم له صوزة دقيقة منعطفا فيها إلى سماته الخلقية والخلقية بمـا يعز اكتناهه على أحد ، وهو يجرد قلمه الرشيق فيصور به كل خاطرة تخطر أو حادثة تقع أو فكرة تملك عليه نفسه .

ولقد أتيح له من مخـالطة العظماء ومصادقة الكبراء وغشيانه كل مجلس وناد واقتحامه ميادين الحياة المختلفة من سياسية واجتماعية أن يلم بمظاهر الحياة فيها وأن يقف على كثير من صورها .

وكثيرا ما يتمثل بالشعر العربى الرصين فى كتابته حتى ليستفتح بالشعر أحيانا كتابته .

وما من شك فى أن أسلوب « البشرى » كان متشدداً فى السجع واستعمال الكلمات العربية الغريبة وإن كان ذلك عن طبع منه لا أثر للتكلف والقصد فيه لكنه حينما طلبت إليه الصحف أن يكتب لها والإذاعة أن يلقى بهـا أحاديث للناس ألان حينئذ أسلوبه وطوع بيانه وقصد أن يزيد وضوحـه

وإشراقه ليلائم الغرض ويشاكل القصد وينتفع بأدبه خاصة الناس وعامتهم وإذ ذاك خلف غريبه وقل سجعه وكان أنصع ديباجة وأوضح تعبيرا .

وكان من الأسباب التى ألانت قلمه وزادت أسلوبه سهولة ونصاعة وجعلته لمشايعة الحياة أكثر قربا ماتكاثر عليه من مطالب الوزراء والكبراء الذين يريدون أن يخطبوا أو يكتبوا فى مناسبات اجتماعية رسمية تتطلب التجويد الذى لا يسمح وقتهم ـ على الأقل ـ به فاضطره ذلك إلى أن يجارى بقلمه مايتسق مع الطابع العصرى السمح ، وما يوائم الخطيب أو الكاتب من السهولة والإشراق .

وأسلوب « البشرى » قريب من كل روح مداخل لكل نفس يجد كل فيه غداءه الروحى ومتعته السائغة .

وهو يوائم فيما يكتب بين الكلمة العربية الرصينة والكلمة الأوربية المستلزمة والعامية الشائعة على ألسنة العوام إذا اقتضت النكتة سوقها ، على أنك تجد الائتلاف والالتئام بين هذه الكلمات سواء تقاربت أم تلاحقت .

« وأخص ما يمتاز به أدب « عبد العزيز » إنه حلو سمح خفيف الروح لا يجد قارئه مشقة فى قراءته ولا جهداً فى فهمه ولا عناء فى تذوقه »(١) .

النكتة من مظاهره

كانت النكتة البارعة من الأمور التى جبل « البشرى » عليها وشغف حبابها ولم يكن يستطيع مغالبتها فهى تقهره وتدفعه إلى المفاكهة بها دفعا ، وقد اشتهر بها عند الناس حتى لا يلقونه إلا وهم يترقبون تنادره ومطايبته بها ويفجؤه بها الخبثاء فلا يعجز عن نكتة تقع موقع الارتياح والعجب وتكون أبلغ من غيرهما جمالا وروعة .

---

(١) الدكتور طه حسين بك فى مقدمة المختار ج ٢ .

يخلع جبته ليتوضأ ويضعها على المشجب[١] فيرسم أحد الظرفاء عليها وجه حمار ويزعم أصحابه أن « البشرى » يرتج عليه من هذه المفاجأة فما أن يقع بصره على الجبة حتى يقول « من منكم مسح بالجبة وجهه ؟ » وهكذا لا يعيا بنكتة ولا يغيض معينها فى حادثة .

ولم يعرف أنه اغتاظ لنكتة وما استغضبه إلا ما وقع بين بائعى الأكفان وبينه فى طريقه إلى داره فقد كان يمر كل يوم بعمال « محل الأكفان » الذين يقول الشيخ فيهم « وجزت بهم مصبح يوم وعيناى تنضحان بالدمع من أثر رمد فأتلعوا إلى أعناقهم ورأيت البشر يشيع فى وجوههم وسرعان ماتحركوا جذلين للقائى وهم يدعون الله فى أنفسهم أن يجعل استفتاحى (لبنا) فصحت فيهم استريحوا يا أولاد ال .. .. .. فما بى والله بكاء ولكنه الرمد وكلنا والحمد لله بخير وعافية ، وقطع الله أرزاقكم ولا أدخل عليكم النعمة أبداً[٢] .

وتراه يلبى داعى النكتة ويرسلها فى غير تحرج فى شتى المواقف ومختلف المناسبات ولا يكتمها مهما كلفته من ثمن أو حملته من تبعة .

كان « على باشا ابراهيم » قادما من الإسكندرية بالطريق الصحراوى فى سيارته ليحضر مجلس الجامعة المصرية الذى كان رئيسه إذ ذاك وكان « البشرى » معه فى سيارته وقد بقى على انعقاد المجلس زمن قصير ذهب به توقف السيارة مرات متعددة لإصلاح خلل فى (سلوكها) أو ترميم فى (سيرها) وبينما الرجل مغيظ محنق من التوقف والتأخير إذا « بالبشرى » يغادر السيارة ويقول له (لن أركب معك بعد اليوم إلا إذا قدمت لى شهادة بحسن (السير والسلوك) فيذهب غيظ الرجل ويستلق من الضحك .

---

(١) المشجب خشبات منصوبة توضع عليها الثياب .

(٢) المختار ج ٢ ص ٢٥٦ .

دخل مأتما ليعزى أحد الناس فى أحد بنيه فصفع سمعه صوت القارىء وكان منكرا مزعجا وقد أشيع حينئذ أن (الإذاعة) تختار أردأ الفقهاء لإذاعة القرآن وكان بمجلس العزاء طائفة من الكبراء والعظماء بينهم مدير الإذاعة فخف الشيخ على مرأى ومسمع من هؤلاء إلى رئيس الأسرة المعزى وجعل يستحلفه بالله أن (يتوه) هذا الفقيه عقب التلاوة مباشرة حتى لا يأخذ عنوانه مدير الإذاعة ويرمى الناس به ، فقد لبى داعى النكتة دون حرج من موقف العزاء :

والعجيب من أمر « البشرى » أنه يرسل النكتة تضحك الثكلى وهو عابس ليس به أثر من الضحك أو المداعبة ، فكان مجلسه نادرة فى طربه ومرحه وكان كبراء الناس يتشهون حديثه لما فيه من خفة الروح وحلاوة الدعابة وروعة النكتة .

النكتة فى أدبه :

ولم تكن النكتة لتشيع فى حديثه فحسب ولكنها تنضر أدبه الذى يكتبه أو يلقيه فى الإذاعة أو ينشره فى الصحف ، وخاصة ما كان ينشره فى « المرآة » فإنه ميدان فسيح لنكاته الأدبية الرائعة وطالما وضع النكتة مع صورة من يتحدث عنه كأنما هى عنوان الموضوع ، كأن يكتب تحت صورة « حافظ رمضان باشا » المتخيلة التى رسم فى أعلاها وجه « مصطفى كامل باشا » « ومحمد فريد » « وجه مصطفى كامل » ووجه فريد كلاهما لازم لوقت الشغل فقط ، كما يكتب تحت صورة « إبراهيم وجيه باشا » الذى كان وزيراً للخارجية معروفا بالمبالغة فى الأناقة والعناية بالمظهر ، على مفوضينا وقناصلنا « فى جميع أقطار العالم موافاتنا « تلغرافيا » بآخر « مودة » وكما يصور المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ « أبا الفضل الجيزاوى » ويكتب تحت صورته « الحمد لله لم يبق لى إلا مائة ألف جنية و ٥٠٠٠ سهم بنك عقارى قديم حتى أنقطع

إلى عبادة الله والزهد فى الدنيا(١) .

وكما يصور « أبا نافع باشا ، عمدة « سان استيفانو » بصورة ضخمة وأمامه حماره الصغير مذعوراً ويكتب تحتهما « لا تخف فإنى والله مخيف » .

ولعل أحفل ما كتبه بالنكتة الأدبية هو موضوع « فى الطيارة » يتحدث عن ساقة السيارة فيقول « وإنى لأسأل الرجل منهم أن يتريث فلا يسمع وإذا فعل طوعا لرجائى أو لزجرى فلثانية أو اثنتين ثم عاد أجرى وأسرع مما كان وإنى لأقول (ياسيدى لست مستعجلا أمرا والله ما أنا ذاهب لاطفاء حريق ولا لانقاذ غريق صدقنى والله ما أنا ماض لقيادة الجيش فى المعركة الحاسمة ولا أنا مدعو لتأليف الوزارة ولا لشراء (النمرة) الرابحة فى سباق الدربى كل هذا ولا حياة لمن تنادى ، حتى يقول حين أفزعه ركوب الطائرة « تعودت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حزب البر فإذا علوت السفين قرأت حزب البحر فمن لى اليوم بحزب الهواء » ؟

ويتحدث فى موضوع آخر عن الثقلاء الذين يزعجون الناس فيقول « يراك منهمكا فى طعامك والدهن يسيل من يديك كلتيهما فيمد يده بورقة « اليانصيب » حتى تحول بينك وبين طعامك وحتى تكاد أصبعه تفقأ العين آدى اللى فضلت ، السحب النهارده ، اللى تكسب متين جنيه » .

ويحدثك عن شاب أنيق الملبس التقى معه فيقول قال لى « ياعم كم الساعة

---

(١) تنصل « البشرى » فى مقدمة « المرآة » مما كتب عن المغفور الشيخ أبى الفضل الجيزاوى فى مقالات وادعى أنه من قلم أديب آخر ، وهذا التنصل إنما هو رعاية للصلة الأزهرية بينه وبين الشيخ وبين الشيخ ووالده ، ولكن ذلك لا يغني من نسبة المقال له شيئا وإلا فما الذى حمله على أن يثبت فى كتابه حديثا لغيره وفيه تجريح لرجل ذى مقام عظيم على البشرى أن يقدره ويجله ؟ على أن المقال مطبوع بطابع البشرى موسوم بسمة أسلوبه ناطق بأنه له وإن تبرأ منه

الآن ؟ فطالعت ساعتى وقلت له الساعة اثنتان وسبع دقائق فحسر كمه الأيسر فانكشف عن ساعة يد ذهبية ونظر فيها وقال لا . لا . ساعتك مؤخرة أربع دقائق ، ثم خلى بينى وبينه الطريق وانطلق لطيته وبعد أن أجلت ظنى فى شأنه أدركت أنه ربما كان مفتش عموم الساعات » .

وهكذا يفيض أدبه بروائع النكت الطريفة التى تهتز لها النفوس وتطرب لها الأسماع «فالبشرى» لا يجاريه أحد فى صوغ النكتة الرائعة ، وهو أكثر الكتاب المحدثين اصطناعا للنكتة البلدية يصطنعها بلغته العامية فى غير تكلف ولا تحفظ ولا احتياط ، يأخذها من حى السيدة زينب أو من حى باب الشعرية فيضعها فى وسط الكلام الرائع الذى يمكن أن يقاس إلى أروع ما كتب أهل القرن الرابع والثالث للهجرة ، فإذا النكتة البلدية العامية مستقيمة فى مكانها ومطمئنة فى موضعها لا تحس قلقا ولا نبوا ولا يحس قائلها قلقا ولا نبوا ولكنها تفجؤ القارىء فتعجبه وتملأ نفسه رضى ثم هو يحس أن الكلام ما كان ليستقيم لو لا أن هذه النكتة قد جاءت فى هذا الموضع واستقرت فى هذا المكان(١) .

وقد اضطر « البشرى » أن يسوق النكتة باللغة العامية الخالصة إذا أراد أن يجلو على القارى صورة كاملة من حديث قوم فى مناقلاتهم ومناوراتهم وما تطارحوا من فنون الكلام ، إذ يقتضى الحديث أن يورد كما نطقوا به وبخاصة إذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشيع على ألسن الناس وتذهب عندهم مذهب الأمثال ، وإلا لو أدى بفصيح اللغة فسد الغرض واختل نظام الكلام(٢)

ولأن النكتة إذا سبكت فى العربية الخالصة فقد ينضب ماؤها ويحول بهاؤها(٣)

---

(١) من كلام الدكتور طه حسين فى الجزء الثانى من المختار .

(٢) من كلام البشرى فى مقدمة « فى المرآة » .

(٣) البشرى فى المختار ج ٢ ص ١٢٠ من حديثه عن النكتة .

هـذا هو الذى حدا بالبشرى أن يسوق النكته بالعامية ، ولم يكن الدافع له عجزه عن العربية الفصيحة وهو أبو عذرتها وابن بجدتها ، وهو أحد الذين ردوا إلى الأدب العربى فى النهضة الحاضرة قوته وجزالته . وكان على جانب عظيم من معرفة اللغة العربية والتضلع فيها ، حتى ليفيض أدبه بثروة لغوية خصبة ، ويقتدر على التعبير عن كل مايريد بأفصح لغة وأبلغ تعبـــير .

آثاره الأدبية :

المختار :

هو مجموع مانشره فى الصحف وما حاضر به وألقاه فى الإذاعة مما أبدعه أسلوبه وافتن فيه بقلمه ، فكان آية فى إشراق الأدب وغزارة البيان وفصاحة العبارة ، وسعة الأفق ، ضم هذا الكتاب صوراً من الأدب الرفيع يعز رسمها على غير يراعه والحق أن « المختار » كما يقول الأستاذ « خليل مطران بك » فى مقدمته للجزء الأول متحف حافل بالمفاخر وكل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع فى تدبر وروية .

أما الجزء الثانى فقد كتب فى مقدمته عميد الأدب الدكتور طه حسين بقلمه الرشيق وأدبه العـــذب فزاد فى بهائه وأعلى من مكانته ، والجزءان مطبوعان طبعاً مصقولا مهذبا .

فى المرآة :

يضم هذا الكتاب ما اختاره « البشرى » مما كان ينشره فى مجلة السياسة الأسبوعية مع جمهرة أخرى من القطع الأدبية الساحرة التى دبجها قلمه المبدع والكتاب يتضمن صوراً دقيقة لعظماء مصر وكبرائها وساستها وعيونها ، رسمها بريشته التى يعيا المصور عن توضيحها كما أوضح وانطاقها كما أنطق ، فقد تدسس على جميع ما يختص بهؤلاء الناس فوصف نفوسهم وطباعهم وشرح

أخلاقهم وعاداتهم ، وتفطن إلى مواطن الشذوذ فيهم واكتنه ما خفى من أمورهم حتى على المتصلين بهم ، فكان نفاذاً فى وصفه بارعا فى تصويره ولم يدع شيئا مما يتصل بهم وبخلقهم وخلقهم إلا وقد أنطقه وجلاه بأوضح بيان كل ذلك بأسلوب مرح خلاب ، وعبارة جزلة فصيحة وبيان مشرق منطلق ونكتة أخاذة تثير العجب والطرب .

وقد كان لما يكتبه « البشرى » فى هذه « المرائى » أكبر الأثر فى نفوس الناس وكانوا ينتظرونها ويخشى كل عظيم أن يكون فى مرآته ، وإذ يكتب عن كبير أوذى شأن فإنما يمنحه الرفعة ونباهة الشأن أو ينزل به إلى مكان سحيق ويدعه مضغة الأفواه وحديث الألسن .

وقد وضع لكل شخص يتحدث عنه فى هذا الكتاب صورة متخيلة ، ولا يخلو الحديث عن واحد من الذين تناولهم فى المرآة من نكتة بارعة يلصقها به فتسير وتذيع وتتناقلها الأفواه .

وقد نسج على منواله كثير من الأدباء فكتبوا مرائى مختلفة نهجوا فيها نهجه فى التحليل ، ولكن شتان بين ما كتبوا وما كتب .

كتاب التربية الوطنية :

وللبشرى كتاب فى التربية الوطنية تناول فيه موضوعات مختلفة تتصل بالوطن وشئونه والتربية وفنونها ، وأسلوبه فى هذا الكتاب ناصع يبين الموضوع فى وضوح وسلاسة .

آثار أخرى :

واشترك بتكليف من وزارة المعارف فى تأليف كتاب « المفصل فى تاريخ الأدب العربى » وهو جزءان و « المنتخب من أدب العرب » وهو جزءان أيضاً ، والمجمل فى الأدب العربى ، لطلبة المدارس الثانوية ، أسهم فى هذه الآثار الأدبية وهى ذات قيمة وأثر ملموس لما نشرته من الأدب فى تحقيق دقيق صيغ بأسلوب سهل فصيح .

وللبشرى أيضا كتاب «القطوف»، وهو مجموع مقالاته التى نشرها فى الصحف وألقاها فى الإذاعة مما لم يطبع قبل، والقطوف لا يزال غير مطبوع

* * *

نماذج من أدبه

مما أذاعه عن (الراديو) المذياع كما يصفه أعرابى قادم من البادية .

وأقبل على صاحبى يعرف لى الرجل قال إنه من إحدى بوادى نجد وهو يتنخس فى الدواب [١] على أنه لم تهيأ له رؤية الحضر من قبل بل لقد كان يرسل على إبله وخيله إلى مصر وغير مصر ولده وبعض معشره، ثم بدا له أن يفد معهم هذا العام ليشهد عيش الحضر قبل أن يدركه الأجل، ووافق مقدمه حاجتى إلى بعض الجياد وسألته أن يقيم عندى ما أقام فى مصر لما رأيت من ظرفه وخفة روحه ولطف حديثه وحسن بديهته .

ولقد بعثت (الراديو) ذات عشية فى حضرته فارتاع رشده، وذهب الرعب بلبه كل مذهب، ثم اطمأن صاحبى فترة قصيرة وقال وعلى الشيخ عدلان أن يقص بقية الحديث والتفت إلىّ الرجل وسأله أن يتكلم فتعذر وتمنع فعزم عليه الا تكلم فأكرم الضيف وأومأ إلىّ .

تنحنح الرجل وسعل سعالا رقيقا ثم أنشأ يتحدث فى لهجة بدوية كثيرا ما كان يلتوى علىّ فيها اللفظ فيسويه لى بعض من حضر .

سيداتى سادتى

الآن أنقل إليكم حديث ذلكم الأعرابى بعد أن علقته وقيدته بقدر ما واتانى الجهد، فان كنت قد عالجته بعض العلاج فى شىء من الصياغة بتقويم

---

(١) يتنخس فى الدواب يتاجر فيها

ما لا يستقيم فى آذاننا من لهجة أولئكم الأعراب قال

دعانى صاحبك ذات عشية الى أن أصعد اليـه ، فلما استوينا فى مجلسنا من احدى الغرف أومأ الى ركنها فحولت بصرى فإذا دمية (١) من خشب بتر ساقاها فأقعدوها على منضدة لها أنف صغير ولهـا أذنان دقيقتان وقد توسط ما دون الجبين عين لهـا وا عجباه — واحدة تمزقت حـدقتها فتناثرت فى بياضها تناثر أكارع النمل على صفحة الرمل ، ولها فم — ياحفيظ — قد استهلك نصف وجهها مشجوه بديباجة من حرير وليتهم سدوا عليه مسامير من جديد ، وما أحسب والله. هـذه الدمية إلا صنعت على صورة الجن لم تطبع على صورة انسان .

ثم قام صاحبك اليهـا فحرك أذنها ، وسرعان ما أحمدت حدقتها فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم ، ثم سمعت لهـا حسيسا (٢) ما لبث أن استحال زمزمة (٣) وهمهمة (٤) فخلت والله أن الأرض قد زلزلت على وأحسست قلبى يتمشى من الروع فى صدرى حتى يصك حنجرتى ، فجمعت ثوبى للهرب ، فجذب صاحبك فضل ردائى ولو قد أطلقنى ما أصبت المهرب ، فلقد تخاذلت عنى ساقاى ، وأظلم ما بينى وبين وجه الطريق وجعلت ألتمس آية الـكرسى أستعصم بهـا من هذا الشيطان فأذهبها الرعب عنى وكأنى لم أحفظ منهـا فى دهرى الأطول إلا كلمة واحدة ، ولما رأى صاحبى ما بى قال لى خفض عليك يا شيخ ، فقلت وهذا العفريت — قال لن ينالك منـه مكروه إن شاء الله ، فلقـد قيدوا ساقه وشدوا وثاقه ، فمـا يجد له من اساره فكاكا ، ولا يستطيع فى محبسه حراكا ، قلت — أفيسجن سليمان المردة فى قماقم نحاس أو من ذهب ، وأنتم لاتبالون أن تسجنوها فى جماجم من خشب ؟

---

(١) الدمية بضم الدال وسكون الميم — الصوره المزينة والمراد بها هنا تمثال
(٢) الحسيس — الصوت الخفى
(٣) زمزمة هى ضجيج الرعد وصوت النار فى الوقود
(٤) همهمة — بفتح الهائين مصدر همهم الرعد سمع له دوى

طـــرب

وبما كتبه بهذا المعنى

غنانا «صالح» ولست أدرى أكان مغنيا يرسل الصوت فيقع حقا فى الآذان ، أم ساحرا يتلعب بألبابنا فيخيل إلينا أنا فى الجنان ، تمايل على النسيم بين الآس والريحان ، ونسمع من شدو القمارى على أيكها أبدع الأنغام وأروع الألحان .

حدثنى يا فتى — أى روض جاز به صوتك قبل أن يبلغنى ، وكم نسمة اختلطت به بما نفث فيـه صب مشوق ، وحمل عاشق من زفرات كبده الى معشوق ، حتى أخذ فينا كل هذا الأخذ وفعلَ بقلوبنا كل هاتيك الأفاعيل .

آه — وفى آه لذة وألم ، وفيها برء وسقم ، وفى آه راحة وهناء ، وفيها يأس وفيها رجاء .

أشاكر أنا أم شاك ، وضاحك أنا أم باك ، وراض أم غضبان ، وسال أم ولهان وناعم أم بائس ، وراج أم آيس ؟

قد غرنى أمرى فسلوا صوته ونبئون .

ياليل وما عساك تبغى من الليل ؟ لقد نام الخليون ، هنيئا لهم ، وأمعنوا فى المنام .

نعم ، إن فيك ياليل عيونا تسيل بالدم شئونها ، وإن فيك ياليل جراحات تفيض بالدمع عيونها ، وكم فيك ياليل من فؤاد تحلل نسما ، وكم فيك ياليل من أكباد تطايرت حسما ، هذا عان يشكوا بثه وحزنه وأساه ، وهذا صب يبثك وجده وجواه ، وهذا مشدوه لا يتخذ الرفيق إلا من بين كواكبك ونجومك وتلك والهة لا تجد الأنس إلا فى وحشتك ووجومك .

إن تحت الضلوع عواطف تئن من طول احتباسها ، أطلقها (ياليل) تمزج أنفساسك بأنفاسها ، أطلقها تملك الجو عليك طربا وشدوا ، وتملأ هذا الهواء تحنانا وشجوا ، ففي العواطف بلبل وكنار ، وفيها ياليل فاخت وهزار ، أطلقها بالله ياليل لتغنى الثريا وتشكو وجدها لسهيل

أبكى الذين أذاقونى مودتهم   حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

واستنهضونى فلما قمت منتهضا   بثقل ما حملونى فى الهوى قعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبهم   بين الجوانح لم يشعر به أحد

ياعين — وقل ياعين حقيقة أردتها أم مجازا ، ورجعها صبا غنيتها أم أم حجازا ، فإنه :

هوى بتهامة وهوى بنجد   قد أعيتنى التهائم والنجود

غن يافتى غن ، فالله أكرم من أن يثير هذا كله فى صدور الناس ويحرمهم غناءك ياصالح .

* * *

الشـــــيخ

ومما كتبه فى المرآة بعنوان « الشيخ » :

صديقى أو غير صديقى أوهما معاً ، الأستاذ الشاب أو الكهل أو الشيخ أوكل أولئك فى وقت واحد . الشيخ أو السيد فلان :

وأنا أشهد أنه ما اطلع على مجلس إلا حللت له الحبوة(١) ولا جلس إلى

---

(١) الحبوة ـ احتبى بالثوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها والاسم الحبوة ويضم .

إلا آثرته بتكرمتى ، ولا أرسل يده إلى إلا أسرع بتقبيلها ، لأنى أرى فى الشيخ عظيما وإن لم ير غيرى أن فيه عظيما .

هو شيخ طريقة وهو على صداقته وملازمته لشيخ مشايخ الطرق لا نرى على ما يزعم شانئوه لطريقته فى سجلات مشيخة مطرق الصوفية عينا ولا أثرا .

ثم هو رجل جمع بين أقصى مطالب الدنيا وأقصى مطالب الدين فتراه كما يظهر الأصيل فى حلقة الذكر يظهر العشاء فى بار (ارستومين) .

ثم هو سعدى وعدلى وحر دستورى وحزب وطنى واتحادى ومحايد ومستقل وغير هؤلاء جميعاً .

ثم هو لا يفتر عن أداء حقوق القصر ولا ينى عن التوافى فى كل موسم لدار الوكالة الإنجليزية ولا يترك جريدة السياسة إلا إلى بيت الأمة .

ثم هو يحسن العربية ويحكم الانجليزية فلا تعرف أن كان غربيا مستشرقا أو شرقياً مستغربا .

ثم هو مصرى وفى الوقت نفسه مطاف الجالية الفرنسية فى مصر يتحدث عن أمورها ويدلى بمهمتها فى هذه البلاد فلا تعرف ان كان عربيا مستعجما أو عجميا مستعربا ثم هو إذ تقصيت أصله وقصصت منشأه ومنجمه رأيته من المنوفية ومن الشرقية ومن البحيرة ومن الدقهلية ومن القليوبية ومن الجيزة ومن المنيا ومن أسيوط ومن جرجا ومن قنا ومن هؤلاء جميعاً ، وهو يلاغى بلغاهم جميعاً فترى فى لسانه حديث أهل البحيرة وجشوبة(١) منطق أهل الصعيد فتسمعه إذا ناداً (محمداً) قال (يا محم) وإذا عبر عن الفم قال (الخشم) .

هو ولا شك عصبة أمم تجول فى قفطان وجبة .

---

(١) جشوبة هي الغلظة والخشونة .

وإذا حضرك فى هذا المقام أن الشـياطين تتشكل ، فلا يذهب عنك أن الملائكة كذلك تتشكل وأن أولياء الله يتشكلون وللأقطاب والأبدال فى التشكل أحاديث طوال . (١)

وإذا كنا نحتفل فى هذه الدنيا بشخصية واحدة ونتخذها موضع الحديث فكيف بسبع وثمانين شخصية قوية اتسقت كلها لرجل واحد .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

* * *

---

(١) الأبدال الزهاد (أساس البلاغة) وفى القاموس (الأبدال قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض وهم سبعون : أربعون بالشام وثلاثون بغـيرها لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس) كذا .

أزهريون لغويون أدباء

عنى الأزهريون باللغة (أو أكثرهم) فيما عنوا به من أصـــول النهضة الأدبيةعناية باللغة فتوفروا على دراستها وجدوا فى معرفة خفاياها وأسرارها ومن مظاهر عنايتهم بها دراستهم علم الصرف فما هو إلا تصريف للكلمات اللغوية وبيان ما فيها من إعلان وقلب وحذف وغير ذلك .

ثم هم قد أكبوا على دراسة غريب القرآن ، وغريب الحديث ، وغريب الشواهد العربية وأطالوا البحث فى الوقوف على المعانى اللغوية فى الأدب العربى بمختلف فنونه ، فلذلك هم يقلبون مجفوات ما يرونه من الألفـــاظ اللغوية للوقوف على معانيها المختلفة ، بل هم ينحون إلى اللغة فى غير علومها فتراهم يذكرون بصدد المصطلحات العلمية فى شتى العلوم معانيها اللغوية ويستطردون فى شرحها ، وترى الشروح والحواشى تتغالى فى بيان مدلولاتها والإفاضة فيها .

ومن مظاهرعنايتهم باللغة أيضا تصحيح كتبها ، وتحرير معاجمهاوقواميسها وتناولها بالنقد والتعليق ، والتوسع فى ذلك .

علاقة اللغة بالأدب :

وغير خاف ما بين علم اللغة والأدب من وشيج الصلة ، وما يتطلبه الأدب والإضلاع فى اللغة والغوص فى أسرارها ، فان ذلك يعين على شرح غريب الأدب من شعر أو نثر ، ويمكن من تفسيرغامضه ، وتجلية مبهمة ، وقد درج المؤلفون فى علم الأدب العربى ، المتتبعون نهضته فى مظاهرها المختلفة أن يتحدثوا عن اللغة واللغويين ، وأن يتقصوا بالدراسة آثارهم ، لما بين اللغة والأدب من شديد التآخى .

وقد تحدث « ابن خلدون » فى مقدمته عن علاقة اللغة بعلم الأدب فقال

« هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهـــل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالى الطبقة وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغــة مبثوثة أثنـاء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية(١) » .

على أن هؤلاء الذين نعقد لواء هذا البحث لهم ونتحدث فى هذا الوضع عنهم ، لم تـكن اللغة وحدها مناط نبوغهم ، ومجال تبريزهم ، والسمة التى استموا بها وحدها ، فهم أدباء مبرزون ، وأعلام فى البيان مجلون ، وما فيهم إلا من هو شاعر معروف أو كاتب مشهور ، إلا أن النزعة اللغوية ظهرت فى أدبهم وغلبت على آثارهم وكانت لهم باللغة شهرة وفى ميدانها سبق ومن ثم أفردناهم بعنوان وخصصناهم ببحث — وقد جعلنــاهم بين الـكتاب والشعراء لـما أنهم واسطة العقد تتنازعهم الناحيتان ويشرف بهم الفنان معـا .

هذا وقد سبق لنا الحديث عن جمهرة من المضلعين فى اللغة العربية وعلومها فيما هو بعنوان « الأزهر والتصحيح » لـما أن تصحيحهم الـكتب والصحف كان أظهر آثارهم .

وسنترجم لأشهر اللغويين الأدباء مبينين فضلهم على النهضة الأدبية وآثارهم اللغوية ، مرتبين الكلام عنهم حسب وفاتهم .

* * *

---

(١) ص ٥٥٣ .

الشيخ حسن قويدر الخليلى

المتوفى سنة (١٢٦٢ ﻫ — ١٨٤٥ م)

نشأته وحياته :

هو « حسن بن على قويدر » كان مولده بمصر سنة ١٢٠٤ ﻫ وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين واشتهرت ذريته هناك بالمغاربة ، ثم نزح منها إلى « مصر » والده « على » فى تجارة وأقام بها ، ووهب المترجم فلما بلغ أشده ألحقه والده بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجله أساتذته من أمثال الشاعر الناثر «الشيخ حسن العطار» والشيخ «ابراهيم الباجورى» فتخرج عليهم فى اللغة وعلومها والأدب وفنونه ، ولا سيما الأول الذى كان من أنبه الأزهريين فى الأدب شأنا وابعدهم فى فنونه صيتا ، وكان « لقويدر » رغبة فطرية فى الأدب وهوى للغة وعلومها ومعرفة خفاياها واكتناه دقائقها فبرع فى ذلك وجود وانشأ الفصول ونظم الشعر وحرر الرسائل ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأفادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن « قويدراً » شغل منصبا أو زوال عملا حكوميا ، ويظهر أنه كان عزوفا عن الوظائف وقيودها فلم يسع لها ، وربما واتته دون عناء لو انصرف لها ، ولكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظا وافرا وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جوادا سخيا يبذل كثيرا مما يفد اليه من ربح تجارته الوارقة الظلال كما كان عفيفا أمينا يرعى الود ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤذى الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فان له اذ ذاك لشأنا كما فعل مع «عاقل افندى» فى رسالة «الأغلال والسلاسل»

وقد كانت وفاته فى شهر رمضان سنة ١٢٦٢ ه فرثاه الشعراء وبكاه الأدباء ومنهم تلميذه الشاعر المشهور «محمود صفوت الساعاتى» الذى زعموا أنه رأى «قويدرا» فى منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتا فانتبه قائلا :ـ

رحمة الله على حسن قويدر فحسب	جملها فكان تاريخا لسنة وفاته [1]
٦٤٨ ٦٦ ١١٠ ١١٨	٣٢٠

والساعاتى هو الذى رثاه بقوله :ـ

بكت عيون العلا وانحطت الرتب	ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأقلام باكية	على القراطيس لما ناحت الخطب

ويقول فيه أيضا :ـ

قالوا قضى حسن المناقب فارثه	فأجبتهم ومدامعى تتحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه	أضحى لسانى فى فمى يتعثر

نثره

نثر الشيخ «حسن قويدر» يجرى مجرى الصنعة ويبدو عليه أثر التعمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بعجيب أن يكون أدبه كذلك وأن يكون طابعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر وطريقته الملتزمة على أنه تلميذ «الشيخ حسن العطار» وثمرة من ثماره وكان «العطار» أستاذه ممن يلتزمون السجع فى رسائلهم ، ويولعون بالصنعة فى كتابتهم ، وكتاب «انشاء العطار» على ذلك شهيد

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ١٨

ولكن «قويدراً» رغم متابعته للعصر ومسايرته لأستاذه غير ممعن فى التعقيد ولا مفرط فى الاستغلاق، بل إن نثره أقرب — على قيوده وتكلفه إلى الوضوح والرصانة.

نموذج من نثره

ومن نثره ماقاله فى خطبة شرحه لكتاب

«ومن شغفى بتلك العرائس الخواطر، حملتنى بواعث الخواطر على أن أكتب عليها شرحا وأبنى على دعائمها صرحا، وأشــد نطاق البلاغة لها كشحا فوقفت على أقدامى مترددا فى تأخرى وإقدامى . . . . وشددت نطاق العزم وتقلدت بصارم الحزم، وقومت سنان يراعى، وبسطت فى حومة هذا الميدان باعي وانى لأري التوفيق يقوم أمامي — والعناية تقود زمامى»

شعــــره

شعر «قويدر» يميل الى الزخرف والطلاء ولكنه يتفاوت قوةوضعفا حسب اغراقه فى التكلف أو لطفه فى تناوله «وكلما كان أكثر تعملا كان أكثر تعقيدا وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجا واحدا.

فمن شعره الذى يميل الى السهولة ولا يغرق فى المحسن والصنعة، ما قاله ناصحا.

يا طالب النصح خذ منى محبرة	تلقى اليها على الرغم المقاليد
عروسةمن بنات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخــد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغظ ومن غلط	كل البلاء بهـذا العضو مرصود
واحذر من الناس لا تركن الى أحد	فالخل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت	فالشر طبع لهم والخـــير تقليد

هـذا زمان لقـد سادت أراذله   قلنا لهم هذه أيامكم (سودوا)

ويقول فى شرحه على منظومة «العطار»

منظومة الفاضل العطار قدعبقت   منهـا القلوب بريا نكهة عطره
لو لم تكن روضة فىالنحو يانعة   لما جنى الفكر منها هذه الثمرة
فى ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها   والليل داج أرانا وجهه قمره
قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب   بحر البلاغة قد أهدى لنا درره

فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعة اكسب شعره طلاوة، ولم ينفر الذوق منه أو تتصرف النفس عنه.

ومما قاله وأسرف فى الجناس فيـه قوله

فشمر الغصن عن الساق وقد   جرد سـيفا لرقابهم وقـد
وقال جمرى بكلامكم وقـد   أنا الذى أشـبه أعطافا وقـد
أحملكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) فى هذه الأشطر خمس مرات بالواو وبغيرها فكانت حرفا مقرونا بالواو فى الشطر الأول، أما قوله «وقد» فىالشطر الثانى فيحتمل أن يكون اسما بمعنىالنار واقعاً صفة لسيفاً أىسيفاً وهو النار لرقابهم وأن يكون فعلا بمعنى اتقد أى سيفاً اتقد، وقوله بكلامكم (وقد) محتمل أيضا المعنيين أى جمرى نار أو اتقد وقوله فى الشطر الرابع أشبه أعطافاوقد جاءت فيه هذه الكلمة علىمعناها الحرفى معالاقتران بالواو، وقد الأخيرة جزء من قدر المضاف إلى ياء المتكلم.

فقد أرهق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التى وضعها خمس مراتفى خمسة أسطر وضعاً مختلفا فيه تهافت عبث بالمعنى وعقده، وتكلف ذهب بجمال الشعر وأفسده.

ولقويدر مزدوجات افتن فى صياغتها وبرع فى نظمها إلا أنها محتملة كثيرا

من التكلف موسومة بالنزعة العلمية فى غير موضع ، ومنها قوله :

رأيت بدرا فوق غصن مائس   يخطر فى خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس   وهو بشوش الوجه غير عابس

كأن ماء الحسن منه يجرى

خاطرت لما أن رأيته خطر   وحار فكرى فى بهاذاك الحور
وقلت لا والله ما هــذا بشر   ومن بشمس قاسه أو بقمر

فليس عندى بالقياس يدرى

وكلمة القياس هنا من مصطلح علم المنطق الذى تأثر الشاعر به .

فلفظه العذب لقلبى قوت   كأنه الدر أو اليـاقوت
وسحره إلى السهى (مثبوت)   يعجز عن مثـاله هاروت

وهو الحلال من صنوف السحر

الحسن شىء ماله مثيـــل   وكل وجــه حازه جميل
والنفس دائمـا له تميـــل   وصاحب العز له ذليـــل

فى قيد أسر نهيه والأمر

والنهى والأمر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع فى ديوان .

آثاره العلمية والأدبية :

للشيخ « حسن قويدر » آثار لغوية قيمة ومؤلفات أدبية جليلة ، غير أن كثيراً من هذه الثروة القيمة لا يزال مخطوطا لم يطبع وكثير منها عبثت به الأيام فحرمت الانتفاع به الأفهام والأقلام — ومن أهم هذه المؤلفات :

نيل الأرب فى مثلثات العرب :

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف مايثلث من الألفاظ العربية بالحركات نظمه فى أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم يقول فى مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن ... لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من منن ... بالعد لا تدخل تحت الحصر

وهى سهلة الحفظ واضحة غير معقدة وبهامشها فوائد قيمة فيها غنية لكل أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ وفى صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ « محمد فنى » وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم « فيتو » المستعرب وطبعت الترجمة فى بيروت(١)

ويقول فى مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتى ... تكون فى الشكل مثلثات
أبدأ بالمفتوح ثم آتى ... بالضم لكن بعد ذكر الكسر

ثم يقول :

رتبتها كمعجم على الولا ... معتبر اللباب حرفا أولا
بذا أتت غريبة فى الوضع ... يعشقها كل رقيق الطبع

وعدد أبياتها ٢٢١ بيتا .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار :

وهى منظومة نظمها فى النحو أستاذه الشيخ « حسن العطار » وقد شرحها

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٥٨

هو شرحا دقيقا قيما ، والمنظومة مشهورة يتداولها أبناء الأزهر .

وله كتاب يسمى « زهر النبات فى الانشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضا ويقال إنه كان واقعاً فى مائة ونيف كراسة ذهبت بها الأيام (١).

هذا عدا شعره المتفرق ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

---

(٢) أعيان البيان للسندوبى صـ ١٨

الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى

المتوفى سنة (١٣٠٦ ﻫ — ١٨٨٨ م)

نشأته وحياته :

هو « عبد الهادى » بن « السيد رضوان » نجا الإبيارى نسبة إلى « إبيار » إحدى قرى الغربية الشهيرة ، ولد بها سنة ١٢٣٦ ﻫ ١٨٢١ م وما أن تعلم القراءة والكتابة حتى دفعه هواه إلى المطالعة والدرس ، وكان والده أحد علماء الأزهر وفضلائه فلما تنسم ذلك الميل فيه شرع يلقنه العلم ويعبد له طريق الأدب وعلوم العربية فبلغ منها فى زمن يسير الحظ الموفور وقد حدث المترجم أنه حضر على والده (فى الحديث الجامع الصغير والبخارى والمواهب وفى التفسير الجلالين ، وفى الفقه إلى المنهج ، وفى النحو إلى الأشمونى ، وفى الفرائض والتوحيد وغيرها جملة[1] .

وألحقه والده بالأزهر فتلقى علومه على الأساتذة الفحول أمثال الشيخ « محمد الباجورى » والشيخ « محمد الدمنهورى » والشيخ « محمد عليش » شيخ المالكية وغيرهم .

وقد نبغ فى سائر العلوم الأزهرية من دينيه ولسانية ، وكان دائم الجد موصول الاطلاع لايشغله عن التوفر على العلم شاغل حتى ذاع صيته وتحدث الناس بعلمه وأدبه وفضله ، وأنهى إلى مسامع الخديو « اسماعيل » علو شأنه فاستقدمه وأثنى عليه وعهد إليه فى تعليم أنجاله خاصة وفيهم « توفيق » فثقفهم وعلمهم الآداب العربية ، وأدى ما كلف القيام به أبلغ أداء .

ولم يكن ذلك ليصرفه عن التدريس فى الأزهر ومجالس العلم والأدب

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٣٠ .

يعقدها فى بيته ويأوى إليها النابهون ممن كان لهم بعد شأن ، يذكر كالشيخ « حسن الطويل » والشيخ « محمد البسيونى البيبانى » .

ويؤخذ مما كتبه فى بعض رسائله أن الود بينه وبين « اسماعيل صديق باشا » الشهير « بالمفتش » لم يكن ثابت الدعائم ومن ثم ألقى فى نفس الخديو ما أغضبه فأوعز الخديو إلى بعض خاصته أن يكتب إليه ليرحل عن القاهرة ، فأقام ببلده حتى نكب « اسماعيل صديق » فعاد الخديو فاستدعاه وغمره بفضله .

ولما ولى الخديو « توفيق » عرش مصر بعد « اسماعيل » لم ينس فضل أستاذه عليه فأدناه منه وقربه إليه وأجله وأحله رفيع المكانة وأقامه للمعية مفتيا وإماما ، فظل كذلك حتى استأثر الله به .

مواهبـــه :

عرف الشيخ « عبد الهادى نجا » فى عصره بغزارة العلم وسعة المـادة والتبحر فى اللغة وعلومها ، حتى كان ثقة يرجع إليه فى حل المشكلات[1] .

وهو إلى جانب هذا (الشاعر الناثر الحافظ المـاهر[2]) .

وقد طارت شهرته فى العالم العربى كله فدارت المكاتبات والمراسلات بينه وبين العلماء والأدباء والشعراء من امثال الشيخ « الأحدب » والشيخ « أحمد فارس الشدياق » والشيخ « ناصيف اليازجى » وغيرهم .

وكانت له أياد غر وأقلام حداد فى فنون الأدب العربى تذكر له بالشكر وتؤثر بالثناء[3] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٦٣ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٩ .

(٣) أعيان البيان للسندوبى ص ٢٢٤ .

نثره

مسرف فى التكلف مولع بالصنعة مفتون بالزخرف والطلاء حريص على السجع مفرط فيه مترصد له يجتهد فى حشد المحسنات البديعة ولو نبا بها الكلام ومن ثم مال أسلوبه إلى الإغراب وجنح الى التعقيد وربما ضلت الفكرة فى ثنايا ما تهالك عليه من هذا التعمل ، ولو أنه ارتضى لنفسه السهولة والوضوح وآثر البعد عن ذلك التكلف أو مسه برفق لكان له من غزارة مادته ومن كرم موهبته ما يسمو به الى مصاف الكتاب البارزين الذين ترتاح النفوس لأدبهم ، ولكنه أغرق فى مجاراة العصر وغالى فى متابعته .

فمن نثره ما كتبه إلى الشيخ « الأحدب »

« السيد حفظه الله شيخ الأدب ، وفارسه الذى من خطاه فى حلبته فقد أخطأ وأساء الأدب ، كيف لا وهو الذى بنى قصوره وشيدها ، وبين معالمه بعد الاندراس وجددها ، ورفع فى سبيل البيان مناره ، ونصب أعلامه ابتداء ورفع أخباره ، وجلى عرائسه للخطاب من الخطبا وأبرز خرائده من الخدور أترابا عربا وتجمل بتفصيل ما أجمل من جمله ، وتفضل بتبيين ما تشابه منه توضيحا لسبله ، واستخرج من معدنه إبريزه فصفاه ، واستنتج ما ترشحت به العضلاء عن نتائج قضاياه ، اذ تمكن من تصريف رياح المعانى فهى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، وتميز من بين سادة العصر بأنه من أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب فتى فاه فاح عرف الحكم ، ورأيت لسان الحال له بالتفرد فى لسان العرب قد حكم .

.... الى أن قال وبعد

فما هذه الرسالة البديعة المثال البعيدة المنال ؟ اللآلىء فى نحور حور أم كواكب مشرقة فى ديجور ، وحدائق أزهار ، أم رقائق أشعار ، ومغانى كواعب أتراب ، أم معانى فرائد آداب ، وثغور باسمة عن جمان ، أم زهور بديع فى رياض بيان ؟ .... الخ

ومن رسالة كتبها الى «السيد الحلوانى»

سيدى ما الذى أوجب تناسيك لحبك الذى لم ينس لعهدك ، والذى لا يزال على ممر الأيام يرقب إلك ويرعى ودك ، وما الذى توهمته فى صديقك الفقير الصادق ، حتى قطعت صدقات رسائلك عنه ، وهو بها وامق وبك واثق سيدى ما هذا التجنى ، والاغضاء عنى ، سيدى ما لعرائس كتبك عنى استأخرت ولأوانس فضلك منى استنفرت ، وأنى بها لرءوف ، شغوف بحسنها الشفوف .

فأنت ترى أنه حريص على الجناس حتى ليحتال عليه ليوقعه فى الكلمتين المتجاورتين مع تهافته على الطباق ، وتصيده ما استطاع من المجاز قبل أو نبا وتهالكه على الاستعارة ولو مجها الذوق كقوله فى الرسالة الأولى تمكن من تصريف رياح المعانى وهو أيضا كثير الاقتباس من القرآن ليتحلى به رسائله وتدور فى كتابته المصطلحات العلمية متأثرا بها ، ثم إذا نظرت فى كلامه الذى يطول لم تجد فيه رفيع معنى ولا كبير غناء ، انما هى ألفاظ محشودة للتقريظ وترادف متصل أعانه عليه غزارة مادة اللغة ، وتمكنه من أسرارها ودقائقها .

شعره

وشعره ميدان يتبارى فيه بحشد الزخرف اللفظى والمحسن البديعى ما عبدت له طريقه وأرخى له عنانه ، وقد عبث هذا الطلاء الذى يكلف به بالمعنى الشعرى وضلت الفكرة فى بيداء صنعته المسرفة ، ويلوح من تهالكه على المحسنات وافراطه فيما يتناوله من المجاز والاستعارة أن ذلك مقصده الأسمى من الشعر وأنه لا شيء من التصوير الشعرى بذى بال عنده وذلك مما لم يدع شيئا من شعره يستهوى النفوس وتتروح منه نسيم الشاعرية .

فمن شعره ما قاله متغزلا

اقطف ورود خدود الغيد بالقبل وقل وفاء بحق للهوى قبلى

وأخلع عذارك فى خال العذار ولا ... تبال فالعذر عند الخال منه خلى (١)
وكن على حذر من أسهم عرضت ... لمن تعرض للألحاظ والمقل
من أعين ما رنت ألا رمت مهجا ... تبيت فى وهج منها وفى وهل (٢)
تحيك ما غزلت ثوب الضنا فترى ... منها الحماسة للألفاظ فى الغزل
واهصر قدودا زهت ممشوقة فغدت ... معشوقة لغصون البان والأسل (٣)
واضمم فؤادك فوق الخصر مختصرا ... واجعل لنفسك كفلا ما من الكفل (٤)
وان تشأ فارتشف من مبسم ضربا ... ولا تخف ضرب جد الشارب المثل (٥)
وكرر الرشف تشف النفس من كبد ... وتطف من كبد نارا من الغلل (٦)

فهذه الأبيات لا يعفيك بيت واحد منها من محسن بديعى ولا يخلو أحدها من جناس خف أو ثقل وقد يتكرر تبعا لضرورة الشاعر ، وهى بعد ذلك خالية من الخيال الشعرى الخصيب والروعة الشعرية التى تستهوى النفوس — غير أن مادته اللغوية من أهم الأسباب التى مكنته من الألفاظ يصرفها على مقتضى هواه ، ومن ثم لم يعدم الجناس لتوفر مادته .

ومما قاله موجها الى الشيخ « ناصيف اليازجى » :ـ

بنصيف قد أنصف الدهر بيرو ... ت فأضحت تتيه فى ثوب سؤدد
ولئن أصبحت تفاخر كل المـ ... ـدن أضحى لعمرى الحال يشهد
ما سمعنا بمثـــله عيسويا ... يتحدى بمثـــل معجز أحمد

---

(١) عذار : الدابة السير الذى على خدها من اللجام ويطلق العذار على الوسن وعذار اللحية الشعر النازل على اللحيين
(٢) وهل كفرح ضعف وفزع فهو وهل ككشف
(٣) الأسل نبات معروف والرماح والنبل وشوك النحل
(٤) الكفل بالكسر الضعف والنصيب والحظ والكفل محركة العجز أو ردفه
(٥) الضرب — العسل الأبيض
(٦) الغلل محركة وكأمير العطش أو شدته أو حرارة الجوف

نظم الدر والدرارى فى أحسـ ن سمط من البيان ومهد
ألمعى لكنه عيسوى كان أولى بفضل دين محمد
لو تروى ارتووى بكوثره العذ ب وأروى ظماء من بات يجحد
حكم مولى يقضى علينا بما شا ء تعالى عن التولد سرمد
دم حليف العلا نصيف بفضل لا يوازى وحسن حمد مؤيد

والشاعر فى هذه الأبيات أقل تهافتا على المحسنات ومن ثم كانت أغزر معنى وأوضح غرضا وأشهى مذاقا مع قلة حظها من الروعة .

وكثيرا ما يخضع الشعر للعلم فيقيد به مسائله ويودعه جواب سؤال أو دفع اشكال كما جاء فى كتابه « عقود الكواكب الدرية » قوله :ـ

ويقضى واجب قد فات إلا بعشر قد أتت كالدر نظما
فناذر حج دهر فات عاما وناذر صوم دهر فات يوما
ونذر صلاة أول وقتها فى أواخره بها يوما ألما
واحرام لداخل مكة ان نقل هو لازم من رام حتما
وناذر ان يحرر كل عبد له والبعض مات ففات رغما
ومن بجماع افسد حجة ثـ ـم أفسد للقضا لم يقض حزما
وناذر التصدق كل يوم بفاضل قوته فرآه عدما

آثاره العلمية

له آثار كثيرة يذكر « على مبارك باشا » فى خططه أنها تنيف عن أربعين كتابا منها .

سعود المطالع

فقد كان للأبيارى رسالة تضمنت لغزا فى اسم الخديو « اسماعيل » فأودع كتاب « سعود المطالع » شرح هذه الرسالة وحل ذلك اللغز الذى تعجب اذ تراه استخرج منه خمسة وأربعين فنا على نسق غريب ، وهو كتاب قيم

دل على قدرة مؤلفهِ ووقوفه على شوارد اللغة وأسرارها ، وهو واقع فى سفرين كبيرين مطبوع فى مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هـ

النجم الثاقب

كتاب وضعه فى الفصل بين صحيفة «البرجيس» التى كان يحررها بالعربية فى باريس المرحوم «سليمان الحريرى التونسى» وصحيفة «الجوانب» التى أنشأها الشيخ «أحمد فارس» فى الآستانة وذلك فى مؤاخذات لغوية وانتصارات فى فنون إنشائية حكم «الإبيارى» فيها بالتبريز لمنشىء الجوانب على محرر البرجيس ، وقد طبع هذا الكتاب على الحجر سنة ١٢٧٩ هـ .

الوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية

وهو كتاب يضم طائفة من مراسلاته الأدبية وما وقع بينه وبين الأدباء المعاصرين من مراسلات ومكاتبات ولا سيما الشيخ «الأحدب» و «السيد الحلوانى» طبع سنة ١٣٠١ هـ ـ وقد صدره بخطبة ابتدأها بقوله الحمد لله الذى أنزل علينا كتابا نقرأه وبشرنا بأنه تعالى على ممر الأيام يكلأه ، والصلاة والسلام على من حثت رسالته على اتباع ملة ابراهيم ، وأوتى من البلاغة والفصاحة ما لم يبلغ أحد من العالمين مبلغه العظيم ، وعلى آله الأجلة ، وصحبه الذين حلوا من الفضل حله ، ثم يقول

وأبهى ما ورد به خد الكتابة والخطابة ما دار بينى وبين نادرة العصر ، الذى تفعل آدابه البديعة بالعقول مالا تفعله سلافة العصر ، حضرة المولى الأجل أديب الشام «السيد ابراهيم الأحدب» بلغه الله من الحظوظ كل مطلب فأليكها عرائس مجلوة ، من كشف لثامها ورشف رضابها استكمل الظرف والفتوه موسومة بالوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية ، واستطردت فى خلالها ببعض ما كتب لى من أبناء العصر أو كتبته لبعض ، مما رأيت أن ترك قيده عبث محض ، وربما فسرت فى خلال بعض الرسائل ما أودعته فيها من الإشارات لبعض المسائل الحكمية ، وأوضحت ما أومأت اليه من

الفوائد التاريخية والأدبية والكتاب يقع فى خمسين ومائة صفحة تقريبا من القطع المتوسط .

نفحة الأكمام فى مثلث الكلام

وهو نظم رقيق يشتمل على الكلمات العربية المستعملة بفتح أولها وكسره وضمه - يقول فى مقدمته :-

قد نظمت منه ما وجدته مثلثا من بعد أن هذبته
وما تركت حسبما ظننته شيئا وان كان فبعض النزر
معولا على أصول الأسما وتارك المختلفات رسما
كمثل واوى مع يائى اذ ما هذا مثلث على ما أدرى

وهو يبدأ بذكر المفتوح ثم المكسور ثم المضموم كما قال :-

أبدأ بالمفتوح فيها أولا وبعده ذو الكسر فالضم ولا
ثم أزيد البعض منها حيث لا حاجة للتكميل حسب اليسر
وربما تركت ما قد اشتهر من المعانى ان يكن ثم أخر
رتبتها على الحروف للنظر فيها لدى الحاجة لا بعسر

والنظم واقع فى ١١٩ صفحة ، وتم طبعه فى السادس عشر من جمادى الأولى سنة ست وسبعين ومائتين وألف من الهجرة

وله متن « الكواكب الدرية » فى نظم الضوابط العلمية لعلوم وفنون مختلفة

بذل فيه من العناء والتدقيق ما يستحق العجب فانه ضبط مسائل فى الفقه والنحو والصرف واللغة والسيرة والتاريخ والفلك وغيرها فى نظم دقيق بارع دل على قدرة ناظمه وتبحره فى شتى العلوم . وفى آخره ما نصه كتبه ناظمه الفقير الى رحمة سيده الغنى « عبد الهادى نجا الإبيارى » الشافعى غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين ، فى يوم الجمعة الحادي والعشرين من

شعبان سنة ١٢٩٩ تسع وتسعين ومائتين وألف ،

وله « كتاب المواكب العلية فى توضيح الكواكب الدرية فى الضوابط العلمية »

وهو كتاب قيم شرح به هذا المتن شرحا دقيقا مستفيضا دالا على قدرته فى علوم شتى

والمتن والشرح مطبوعان فى سفر واحد

وله « باب الفتوح لمعرفة أحوال الروح »

وهو كتاب يبحث فى أمر الروح وحكمة خلقها قبل الأجساد وأصل نشأتها هذه الأمور التى كان المؤلف دائم التفكير فيها ضيق الصدر بها حتى أسفر له من الهند كتاب الأسفار للصدر الشيرازى وفيه من ذلك فوائد جمة وفرائد مهمة إلا أنها متفرقة فيه أيدى سبا ؛ بعبارات صعبة تشتت بها أفكار من لها صبا فلخصها المؤلف وقربها للأفهام وضم بعضها إلى بعض مراجعا فى ذلك كتبا جليلة كالمواقف وشرحه والطوالع وشرح الإشارات وكشاف الاصطلاحات والمقاصد والتفسير الكبير وكبير اللقانى على جوهرته وغير ذلك ، فاجتمع عنده من كل ذلك ما شفى غليله وأودعه هذا الكتاب القيم وهو مطبوع بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤ هـ واقع فى ستة وتسعين ومائة صفحة من القطع المتوسط .

وله غير ذلك كتاب « نيل الأمانى فى توضيح مقدمة القسطلانى »

والقصر المبنى على حواشى المغنى

« ودروق الانداد فى أسماء الاضداد » جمع فيه أسماء الأضداد يقول عنه وهو كتاب جمعت فيه أسماء الأضداد ونظمتها فى بسيطة سميتها دروق الأنداد فى أسماء الاضداد [1]

(١) الوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية ص ١٠٠

وله «ترويح النفوس على حواشي القاموس» و«صحيح المعانى فى شرح منظومة البيبانى ورشف الرغاب فى المصطلح أيضا و«الحديقة فى البيان» ولها شرحان «وشرح كشف النقاب» «وزهرة الروابى» شرح وضعية الانبابى «والمورد الهنى» «وشرحه سرور المغنى» «والفواكه الجنوية فى الفوائد النحوية» «وسعود القرآن فى نظم مشترك القرآن» «والثغر الباسم» فى مختصر حاشية الباجورى على ابن قاسم «وزكاة الصيام فى ارشاد العوام» «وفاكهة الإخوان فى مجالس رمضان» «والبهجة التوفيقية فى اللغة والأدب» «وزهرة الجدلة فى الكلام على البسملة» «وحاشية حصن الحصين فى علم الحديث» «وحجة المتكلم على متن مختصر النووى لصحيح مسلم»

هذه آثار أدبية ولغوية دالة على أبلغ قدره وأعظم براعة وأغزر مادة، ولو أن هذه الكتب القيمة كانت مطبوعة معبدة السبيل لكان فيها أعظم النفع وأبلغ الجدوى، ولكن كثيرا منها لا يزال مخطوطا رهن مكتبة المؤلف.



الشيخ حسين المرصفى

المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م

نشأته وحياته :

هو الشيخ « حسين المرصفى » نسبة إلى « مرصفا » بلده بالقليوبية أنجبت بجمهرة من أعلام الفقه واللغة والأدب ، وكان والده الشيخ « أحمد حسين المرصفى » من أئمة العلم فى عصره .

ولد المترجم له فى مصر ونشأ بها ، وبعد أن أتم حفظ القرآن التحق بالجامع الأزهر فتلقى العلم على كبار شيوخه ، ومازال يكد ويبحث حتى صار من العلماء الفحول ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر أمهات الكتب فى العلوم العربية كمغنى اللبيب فى النحو لابن هشام .

وكان رحمه الله مكفوف البصر ، وقد عرف منذ صغره بحدة الذهن وتوقد الذكاء ، وإذا صح ما قيل من أن والده حفظ القرآن فى ستة أشهر فإن ذكاءه موروث عن أبيه ، وكان إلى ذلك جادا مثابرا شديد التوافر على كتب الأدب يرتوى من محاسنها ويستظهر من روائعها ، لم يسترح إلى الأدب الشائع فى عصره ولم يرقه نهجه ، بل كان من أوائل من تفطنوا فى هذه البلاد الى قدر الأدب القديم(١) .

وكان من حبه للأدب العربى القديم وقدرته على تفهم أسراره وتذوق بلاغته يقرأ كثيرا فى كتب البلاغة العربية ودواوين الشعراء الفحول ويبذل جهده فى استظهار ما يهتز له ، ويجيل قلمه على غرار ما بهره من هذه الآداب حتى استقام له بيانه الرصين .

وكان إلى جانب هواه بالأدب شديد الميل إلى العلوم العربية ، دائم البحث

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ٢٩٨

فى أسرارها وتفهم دقائقها واكتناه خفاياها حتى صار فى العلم بها حجة ثبتا .

وقد قرأ الخط العربى والفرنسى فى أقرب زمن مع انكفاف بصره وهو حروف اصطلح عليها اصطلاحا جديدا تدرك بالجس باليد[1] .

وتولى تدريس الأدب وعلوم العربية بمدرسة دار العلوم وتخرج على يديه طليعة الناهضين من أبنائها الشعراء والأدباء .

أثره فى النهضة الأدبية :

الشيخ « حسين المرصفى » شيخ الأدباء فى ذلك العصر وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم فقد تخرج عليه طلائع النابهين فى هذه المدرسة من أمثال « حفنى بك ناصف » وأترابه .

وكان قبلة الشعراء والأدباء فى هذا العصر ينهلون من علمه وأدبه وينتفعون بتوجيهه وإرشاده ، صاحبه ولازمه أعيان البيان العربى فعرضوا عليه منظومهم ومنشورهم فنقح ما شاء له ذوقه وعلمه وهذب كثيرا من بيانهم ، وراضهم على ما تهدى إليه من الأدب العربى القديم الرصين .

انتفع بتوجيهه « عبد الله فكرى باشا » فكان أحد تلامذته الذين أفادوا منه بل أن « البارودى » نفسه وهو زعيم النهضة الشعرية ورافع لوائها فى العصر الحاضر كان أحد تلامذته الذين صاحبوه ولازموه ، علم المرصفى زعيم الشعراء اللغة العربية الفصيحة ، وهداه إلى الأساليب المجودة الفحلة ، وعرض عليه شعره فهذبته قريحته التى صقلها الأدب العربى وطبعها بطابعه الجميل ، وإن لصلة البارودى به لحديثا طريفا نمر به سراعا ولكنا أفضنا فيه حين تكلمنا عن شعر الأزهر وكيف أن الأزهريين كانوا أساتذة زعماء الشعر فى العصر الحاضر .

وكان من أثره فى الأدب فصوله الممتعة التى كان ينشرها فى صحيفة

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٤٠

« روضة المدارس » فقد رسم بها للأدباء أمثل الطرق فى ممارسة البيان العربى الجزل ، وكان قدوة الكاتبين بطريقته العذبة التى تجمع بين الجزالة والسهولة .

أما أسلوبه فطلى رصين واضح فصيح لايلم بالسجع إلا إلماما ولا تستهويه الصنعة التى يكلف بها أصحاب الأدب الفارغ فيستروا بزخرفها نقص أدبهم وفراغه ، وهو فى سلاسته وترتيبه المنطق أقرب ما يكون شبها « بابن خلدون » فى مقدمته ، فهو بحق من أولئك الأفذاذ الأعلام الذين ردوا على اللغة فى العصر الحديث ما كان لها من البهاء القديم فى العصر القديم(١)

ومن حديث المرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » عنه قوله ويقوم ذلك الكاتب الأديب المجدد فيلفت جمهرة الأدباء عن ذلك الأدب الضامر ويوجه أذهانهم وأذواقهم جميعا إلى الخالص المنتخل من أدب العرب فى جاهليتهم وفى إسلامهم ويبعث لهم شعر أبى نواس وأبى تمام والبحترى وغيرهم من فحول الشعراء ، كما يدل على بيان ابن المقفع والجاحظ والصولى وأحمد بن يوسف وأضرابهم من متقدمى الكتاب فسرعان ما يصفو البيان ويجلو ، وسرعان ما يجزل القول ويعلو ، وسرعان ما تنفرج آفاق الكلام وتنبسط أسلات الأقلام فى كل مقام وناهيك بغرس يخرج من ثماره « ابراهيم المويلحى » فى الكتاب « ومحمود سامى البارودى » فى الشعراء (٢)

آثاره ومؤلفاته

ألف كتاب « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » وهو كتاب جليل القدر لا يستغنى عنه أديب ، وقد شاع الانتفاع بما فيه من الآداب والعلوم ، ولا يزال منتجع الأدباء إلى يومنا هذا ، والكتاب جزآن يقع الثانى منهما فى صفحات تربى على ثلاثة أمثال الجزء الأول .

---

(١) المنتخب من أدب العرب ج ٢ ص ٥٨٣ هامش

(٢) المختار ج ١ ص ٤١

« والوسيلة الأدبية » مجموعة من الآداب والعلوم المختلفة من نحو وصرف وفقه وبيان ومعان وبديع وتاريخ ساقها المؤلف لتعليم الكتابة الانشائية وترويض الملكات البيانية على غرارها ونهجها العربي الصحيح ، وهو يتبع فى هـــذه الكتابة طريقة الشرح والافاضة والتتابع والاستطراد ، فاذا ألم ببحث على وفى جوانبه وبسط فى آفاقه ، ولم يدع فيـه ما يحتاج اليـه الباحث المتعقب ، واذا أورد قصيدة أو خطبة شرح معانيهـا اللغوية شرحا دقيقا متمكنا ثم بين مراد الأديب بما قاله ، وتعرض له بشيء من أخباره وآثاره ، وقد يستطرد فيقرن المعنى بمشابه له أو مقارب منـه أو مضاد له يفيض فى كل ذلك بأسلوب رصين واضح فصيح ، وقد عمد فيما اختاره من آثار عربية إلى روائع الأدب من شعر ونثر وخطب ورسائل ، فهو حسن الذوق فى كل ما يهتدى إليـه ، غزير المادة بما يفيض فيه ، قريب الشبه فى مسلكه بالكتب التى هى أصول للأدب من أمثال « الأمانى » و « الكامل » و « العقد » إلا أنه لم يغلب عليه ناحية خاصة تستأثر به وتدعه ضعيفا فى غيرها مما يقدم عليـه بحثه وشرحه ونقده وتعليقه ، وانما هو فى هذه النواحي جميعا المتمكن الذى يعدل بينها .

والوسلة بجزئيها تتضمن تمهيدا وأربعة مقاصد ، يشتمل كل منهـا على فصول ومقالات — فالتمهيد فى بيان فضل العلم وتقسيم العلوم ، وتعريفات لعلوم العربية والأدب مع افاضة بذكر الأمثلة ، والمقصد الأول فى العقل وشرح أنواع المعقول ، والمقصد الثانى فى تعريف اللغة وبيان الداعى لوضع علوم العربية ونهايته نهاية الجزء الأول ، والمقصد الثالث وهو أول الجزء الثانى يحتوى فنون البلاغة بإسهاب وشرح وإفاضة مع دقة وتحليل ، والمقصد الرابع وهو أوسع المقاصد وأكثرها بسطا يتضمن المكاتبة والتربية الأدبية والأدعية التى جرى السلف على استعمالها فى مكاتباتهم ، ومكاتبات النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ومكاتبة الملوك والأمراء والأدباء ، وفى الأمثال العربية وغير ذلك من البحوث الأدبية الممتعة ، وقد ختم الجزء

الثانى بكلمة ضافية عن المرحوم «عبد الله فكرى باشا» ومن أهم ما حواه الجزء الثانى حديثه عن البارودى الشاعر العظيم – والكتاب مطبوع بمطبعة المدارس الملكية بمصر من سنة ١٢٨٩ إلى سنة ١٢٩٢ ه

وله كتاب «الكلم الثمان»

وهو رسالة شرح فيها كلمات جرت على ألسنة الناس فى عهده وكثر ترديدهم لها ولهجوا بذكرها مما دعاه إلى بسطها وتبيينها كلفظ الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسية والحرية والتربية والانسان والمربى وكيف يجب أن يكون وما به تكون التربية، كتبها بأسلوبه الرصين الرشيق وهى مطبوعة بالمطبعة الشرقية بمصر سنة ١٢٩٨ ه

وله أيضا «دليل المسترشد فى الانشا»

وهو كتاب وضعه لتعلم طرق الانشاء وأساليبها وكيفية افتتاح المراسلات والمكاتبات والموضوعات الانشائية المختلفة، وأورد فيه طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومكاتبات النبى صلى الله عليه وسلم وكتب خلفائه الراشدين إلى القياصرة والأكاسرة والعرب خاصتهم وعامتهم، وجمهرة من القصائد والمقاطيع لمشهورى الشعراء من الطبقات الأولى الثلاث.

والكتاب يتضمن مقدمة تحتوى على ما يحتاج إليه المنشىء من معرفة مبادىء العلوم وتمييز بعضها عن بعض، ثم يحتوى بحوثا قيمة فى تعريف الكتابة وبيان طرق التعليم والأغراض التى يحاول المنشىء أن تحسن بها صناعته ويجود بها إنشاؤه – والكتاب مخطوط لم يطبع.

* * *

نماذج من إنشائه

كتب فى الوسيلة الأدبية بعنوان « تمهيد »

« اعلم أن الأدب معرفة الأحوال التى يكون الانسان المتخلق بها محسوبا عند أولى الألباب الذين هم أمناء الله على أهل أرضه من القول فى موضعه المناسب له ، فإن لكل قول موضعا يخصه بحيث يكون وضع غيره فيه خروجا عن الأدب كما قال « جرول » الشاعر المشهور « بالحطئية » فإن لكل مقام مقالا .

ومن الصمت وهو السكوت المقصود فى موضعه فإن للصمت موضعا يكون القول فيه خلاف الأدب يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ، رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم وفى لامية الطغرائى

ويا خبيرا على الأسرار مطلعا أصمت ففى الصمت منجاة من الزلل

ولبعضهم

عجبت لأزراء العيىّ بنفسه وصمت الذى قد كان بالعلم أحزما

وللصمت خير للعيىّ وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

والكلام المنبه على مواضع الأقوال وعلى مواضع الصمت كثير ،

ومن الأحوال التى يكون التخلق بها أدبا ، وضع الافعال فى مواضعها كما قال الله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله فتنبه سبحانه وتعالى على أن المطلوب العفو المصلح دون المفسد ، وقال النابغة الجعدى ، بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له لبيب إذا ما أورد الامر أصدرا

والناس فى الادب متفاوتون تفاوتا عظيما ، فمن قرأ العلوم وطاف فى

البلاد وعاشر طوائف الناس بعقل حاضر وتنبه قائم وضبط جيد حتى عرف العوائد المختلفة والأهواء المتشعبة وميز الحسن منها وتخلق به يكون بالضرورة أكثر أدبا ممن قرأ وخالط ولم يطف وممن قرأ وطاف ولم يعاشر، وموافقة جميع الناس أمر غير ممكن ، فإن الدين والعقل يمنعان من ارتكاب أمور لا يسر بعض ذوى الأهواء غيرها ، وأولئك هم السفهاء الذين لا ألباب لهم فهم بمنزلة قشور الأشياء التى لولا لبها لم تصلح إلا للنار أو ما أشبه »

وكتب فى التخلق ببعض الأخلاق فقال :ـ

غير خاف أن التخلق بالكبر والخيلاء والعجب والتعاظم على الناس بما أفضل الله به على الإنسان من علم وجاه ومال أمر غير حسن ، لما جبلت عليه النفوس من الأباء والنفرة عمن يتعاظم عليها ، فما أكثر ما بدل حسن الود والتآلف بأشنع العداوة والتنافر ، لكن لذلك موضع يكون فيه حسنا

وبيانه أن من المشاهد كون النوع الانسانى محتاجا فى حسن تعيشه وتحصيل أغراضه إلى ألفة ومودة وإنصاف بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، فإذا خرج بعض الناس من الجمعية وسعى فى الأرض فسادا ، وجب على الناس تأديبه بما يعيده إلى الصلاح ، وربما كان التكبر والزهو عليه أنكى له وأرجى لمثاب فكره وانحيازه إلى حيز الاستقامة ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فارسا من أصحابه يمشى بين الصفين مختالا يميل يمينا وشمالا فقال (هذه مشية يكرهها الله تعالى إلا فى هذا الموضوع) فقد علمنا أن للتكبر موضعا يكون فيه حسنا .

الشيخ حمزه فتح الله

المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م

نشأته وحياته

ينحدر من سلالة مغربية ولكنه ولد بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها لحفظ القرآن فى أحد مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعيه واللغوية بجامع « الشيخ ابراهيم باشا » ثم ألحق بالأزهر فأتم به دراسته وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، ودبج الرسائل الأدبية ونظم الشعر ، ثم عاد إلى « الإسكندرية » ورحل إلى « تونس » فلبث فيها بضع سنين تولى فى أثنائها تحرير جريدة « الرائد التونسى » فأكسبه مرانة ودربه على معالجة الكتابة الصحفية والسياسية ، ثم عاد إلى « مصر » فألفى نار الثورة العرابيــــة مشبوبة فاتصل بالخديوى وكان من أعوانه ومناصريه فأوحى إليـه أن يحرر جريدة (البرهان) لمنشئها (معوض فريد) وقد كانت أسبوعية تصدر فى الإسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو وتفاخر بأنها حلت من أعتابه العليا محل القبول

كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون فى سبيله ولكن الشيخ « حمزه » رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافى ما أجمعت عليه الصحف فى ذلك الحين ، ولم يقتصر فى مناصرته الخديو على تحريره جريدة « البرهان » بل أصدر جريدة « الإعتدال » عام الثورة العرابيــــة ذياداً عن العرش ، وكثيراً ما كان يخطب معاضدا هذه السياسة .

وفى سنة ١٨٨٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها فى المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد فى « فينا » كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها فى مؤتمر العلوم الشرقية الذى اجتمع فى « استكهلم » سنة ١٨٨٩ .

ثم رأى أن يزاول التعليم فعين فى سنة ١٨٨٨ م بمدرسة الألسن ثم مدرساً بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المضلعين [١] فى اللغة والأدب .

وفى سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين فى سنة ١٩١٢ م فعكف على البحث والاطلاع والتقليب فى كتب اللغة والأدب حتى وافته المنية فى إبريل سنة ١٩١٨ م بعد أن كان كف بصره .

أثره فى اللغة والأدب

كان رحمه الله حجة فى اللغة متمكنا من أصولها وفروعها ملما بأسرارها ودقائقها غيورا عليها شديد الحفاظ لها يلتزمها فى حديثه مع جميع الناس حتى مع خادمه ، ولم ينزل عن غريبها فى جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو مراسلة أو تقرير ، حتى كان بعض الأدباء يضع بعض النوادر فى أسلوب غريب وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوى الذاكرة ملما بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا يفيض فى تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه وصحة عبارته وحلاوة محاضرته وجمال دعابته وما يتدفق منه من بيان وعلم غزيرين .

وكانت له على المدرسين هيمنة واسعة واشراف دقيق فى أثناء تفتيشه بوزارة المعارف فقد كان يحاسبهم حسابا عسيرا على هفواتهم ، ويرشدهم إلى زلاتهم وينبههم إلى مواطن الخطأ والصواب حتى اضطرهم إلى مراجعة معاجم اللغة والبحث فى بجفواتها ، وما طال هجره من الألفاظ ، فأخرج كنوزها

---

(١) أضلع بالأمر — قدر عليه

ورد إليها بهجتها ونفى عنها ما يداخلها من الأغلاط وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاها من عجمة الأساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الأستاذ «عبد العزيز البشرى» رحمه الله عن أثره فى اللغـــة فيقـــول :

« وفى أعقاب نهضة « المرصفى » يقبل العالمـان الأديبان « الشيخ حمزه فتح الله » و «الشيخ ابراهيم البازجى» فيكشفان عن بجفو العربية ويستظهران من أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الأســباب الدائرة ويتعقبان الأخطاء الشائعة ويدلان على الصحيح الناصح [1] من كلام العرب فيأخـذ الكتاب والشعراء أنفسهم بالتحرى فى التماس الصحيح حذر النقد والتشهير وكذلك تصفو اللغة وتشرق ديباجتها[2] » .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعسر الحساب أن طبع كثـير منهم بطابعه فتشددوا تشـدده ونسجوا على منواله ووقفوا عند السماع وعكفوا عليه ، بل تغالى بعض المفتونين منهم وتعدوا طورهم فجعلوا يقولون ، لا توجد هذه الكلمة فى اللغة ، ولو وجدت فى شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى[3] .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة وكان لها أثر طيب فى سلامتها ، ولـكن الإمعان فى التشدد ، وهجر ماسهل من الألفاظ إلى الغريب المتوعر ربما أورث الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ماتطبعه من كتب العربية فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

---

(١) نصح خلص ، والناصح الخالص

(٢) المختار ج ١ ص ٤١

(٣) الوسيط فى الأدب العربى ص ٣٤٠

مؤلفـــاته

ترك الشيخ . حمزة فتح الله . ثآرا دالة على غزارة علمه ودقة بحثه وتمكنه من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هـذه المؤلفات بالبحث المنظم والنسج المحكم والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :-

« المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية »

التى أحيا بها ما اندثر من آثار السابقين وجرى فيهـا على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى فى أماليهم ، وهى فنون من اللغة والأدب — والعلم دالة على سعة اطلاعه وطول باعه فى علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وغير ذلك فهى أخـذ من كل فن بطرف وجمع لما يوسع المدارك ويثقف الأذهان ، وهوإذ يعرض خطابة من خطب العرب أوقصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئا من خبرهم ثم يشرح أثره الشعرى أو النثرى شرحا لغويا دقيقا ويستطرد إلى اعراب الشعر ويعرج بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابلا بين هـذا المعنى وما ذهب إليه غيره ، وهكذا لا يزال يتهم فى الأدب والعلم وينجد ويطوف بك بين رياضه ويهدى اليك من ثماره وأنت مفتون بمـا أهدى اليك ، معجب بطريقته فى البحث ومنحاه فى الدراسة وحسن تنظيمه وترتيبه « والمواهب » جزءان حافلان بالنكت الأدبيـة والبحوث المختلفة التى تقوم الألسنة وتمدّ الأقلام وتنفع الأديب بما لاغنية له عنه .

والكتاب مطبوع متداول

ومن مؤلفاته رسالة فى المفردات الأعجمية التى وردت فى القرآن الكريم وهى بحث طريف أعان عليه سعة عمله ، وله رسالة أخرى فى « الرسم » سماها

« هدية الفهم إلى بعض أنواع الوسم » تحدث فيها عن وسم الخيل والغنم وغيرها وأسماء ذلك عند العرب بما عثر عليه فى كتاب المخصص لابن سيده وغيره من كتب اللغة ، وفى أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء والرسالة محلاة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبعت فى بولاق سنة ١٣١٢ هـ وله رسالة فى التوحيد نهج فيها نهجا عقليا فى البحث والاستدلال

وله رسالة سماها « باكورة السلام فى حقوق النساء فى الإسلام » وهى مطبوعة أيضا .

كتابتــه

كانت له فى الكتابة طريقتان ـ طريقة وعرة متكلفة وأخرى سهلة مرسلة فهو يلتزم السجع أحيانا ويفتن فى استعمال الغريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة فتجىء كتابته ثقيلة متوعرة غامضة تنفر النفس من طول ما بذل فيها من التعمل والتكلف ، ولكنه يعمد أحيانا إلى السلامة والسهولة ويتجنب السجع فلا يرد فى كلامه إلا عفوا غير مطلوب ويتضح معناه ويشرق تعبيره

وهو فى كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسج شديد السطوة ، ويغلب أن يكون النوع الأول فى رسائله ومعاطاته الوصف ومجاراته أساليب القدماء وأشد ذلك فى توقيعاته ، ويغلب أن تكون السهولة والوضوح فى كتابته الصحفية وما يتناول به لشئون الاجتماعية .

شعـــره

أما شعره فهو غريب مشدود لا يجرى مجرى الطبع والارتياح بل يتناوله على استكراه وتكلف ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تشم منه روح الشعر المطبوع ولم نعثر على شىء من شعره إلا قليلا .

* * *

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده وهو من نثره المتكلف الجارى مجرى الصنعة والتعمل كما أن شغف (١) الجنان (٢) ، بالحسن والإحسان تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار فى محيا (٣) الكمال ، ومجتلى (٤) الجمال فترى العين من تلك الغرة (٥) ما يملؤها غرة (٦) ، فكذلك السماع يستدعى هذا الشغف فيتأثر الفؤاد بما يشنف (٧) الآذان مما تهديه اليه طرائف (٨) الأخبار حتى كأن حاستى السمع والبصر فى ذلك صنوان (٩) ، بل أخوان فى هيكل هذا الجثمان (١٠) .

ألا وأن محاسن السيد الأجل لما سارت بها الركبان وأثنى عليها كل لسان ما بين أخلاق أبهى من الروض النضير (١١) وأعراق (١٢) أشهى من عذيب (١٣) النمير (١٤) قد احتلت من فؤادى لا أقول منزلا رحيبا ولا

---

(١) الشغف ـ شدة الحب

(٢) الجنان بالفتح ـ القلب

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء ـ الوجه

(٤) مجتلاه ـ منظره

(٥) الغرة ـ الوجه

(٦) نزت العين ـ جف دمعها وبردت من السرور والاسم منه القرة بضم القاف

(٧) يشنف الآذان ـ يطربها . وأصله من لبس الشنف وهو القرط

(٨) الطرائف ـ الأحاديث المستملحة

(٩) الأخوان الشقيقان

(١٠) الجثمان ـ بضم الجيم الجسم

(١١) النضير ـ الحسن

(١٢) الأعراق هنا ـ بمعنى الطباع والصفات

(١٣) النمير ـ الكثير الماء

(١٤) شماء ـ عالية

وادياً خصيباً بل منزلة شماء[1] ودارة[2] علياء وأوجا[2] بطوالعها السعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكراه كل حين فرقد (٤) فلم أنشب (٥) أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدى اللقاء عله إن يسمح به الزمان وتشعر (٦) عنه الليالى والأيام ليتاح (٧) لى رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له ما وصف لى أحد فرأيته ألا وجدته دون ما وصف لى سواك وان فيك خصلتين يحبهما الله (الحلم والأناة (٨)) مقتديا بالإمام « محمود جار الله (٩) » فى تقديم هذا الحديث الشريف على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجرى أول ما لقيه وكانا قد تحابا بالسماع .

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن رباح أطيب الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ماسمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

ومن كتابته السهلة الواضحة التى لا التواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان « الشورى ومجلس النواب المصرى » فما قاله : ـ

ونحن وان كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العميمة ، والمنافع الجسيمة وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يمنعنا من ابداء ما نراه من الملاحظات فى الأمر بين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى المعروف بالاستبداد ، فأما الشورى فانها وان كانت ممدوحة عقلا

(١) دارة — دار ويراد بها المكانة
(٢) الأوج — العلــو
(٣) الفرقد — نجم قريب من القطب الشمالى
(٤) لم أنشب — لم ألبث
(٥) تشعر — تنكشف
(٦) يتاح لى — يتهيأ لى
(٧) الأناة — الوقار والحلم
(٨) هو الامام الزمخشرى العالم المفسر المشهور

وشرعا بما ورد فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر ، بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ أحكامهم لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمو التى ندبت اليها الشريعة المطهرة من قبل اتمام مكارم الأخلاق .

وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

ألا وأن الملوك ظل الله فى أرضه لا يجوز الخروج عن طاعتهم ولا البغى عليهم ولا تخفر ذمتهم ولا تنكث بيعتهم ولا ينقض عهدهم فى حال من الأحوال ، اللهم الا بكفر صريح لا يحتمل التأويل (١)

نموذج من توقيعاته

وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت اليه ليقرأها وكان قد ضرب على بعضها فقال وهو غاية فى الغموض والإغراب .

لم أراد بذلك الترميج (٢) الا الرعوى (٣) على النشء ، فإن قلا مع حفظ المبنى خير من كثر يطوح (٤) به فى موامى (٥) المنبت (٦)

نموذج من شعره

قال فى مؤتمر العلوم « باستكهلم »

---

(١) نشرت بجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م

(٢) الترميج — إفساد السطور بعد كتابتها

(٣) الرعوى ويضم النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه

(٤) يطوح به — يرمى به

(٥) الموامى — جمع موماه وهى الصحراء

(٦) المنبت — المنقطع عن السفر

حمد السرى يا أخى العود [١] والناب [٢]
أنساك وعثاء [٣] إغباب وإخباب [٥]
ولو شهدت عبابا خضت لجته على سفين [٦] بجنح الليل خباب [٧]
يطفو إذا خفقت فيه بأجنحه من تحتها كل غواص ورساب
تجر فى اليم أذيالا مصبغة
كالخود [٨] تختال فى اذيال جلباب [٩]

ومنها :ـ
طفقت أختلها [١٠] شزرا [١١] وقد سفرت
عنها اللثام ونضت [١٢] فضل أثواب
تقول ما للنوى بى مولعا دنفا يا ليتها بعذولى فى الهوى مابى

---

(١) العود ــ البعير المسن
(٢) الناب : الناقة المسنة
(٣) الوعثاء ــ المشقة
(٤) أغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوما وليلتين
(٥) الاخباب ــ الأسراع
(٦) سفين ــ جمع سفينة
(٧) خباب مضطرب
(٨) الخود ــ الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ج خودات وخون
(٩) الجلباب ـ كسرداب القميص ، وثوب واسع للمرأة دون الملحفة أو ما تغطى به ثيابها فوق كالملحفة أو هو الخمار
(١٠) اختلها ــ أخدعها
(١١) شزرا ــ شزره واليه يشزره نظر منه فى أحد شقيه أو هو نظر فيه إعراض أو نظر الغضبان بمؤخر العين والنظر عن يمين وشمال (قاموس)
(١٢) نضت ــ خلعت

ومنها :ـ

وهو الذى كان أغرانى بنظرته   فاعجب له كيف أغرانى وأغرى بى

فهو الذى إن كتمت الحب باح به   وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بى

ومنها فى الحكم :ـ

كم جامح بالثريا راضه (١) سفر
فوق الثرى بين أكوار (٢) وأقتاب (٣)

ان الثواء ثواء والقصور قبور   العاجزين ولا إيراء (٤) للخابى (٥)

ومن بغى نيل مجـــد وهو فى دعة
فقد بغى من صفاه (٦) دراحلاب (٧)

والمرء فى موطن كالدر فى صدف   والتبر فى معدن والتبع فى غاب

وقال يمدح الوزير « خير الدين باشا » بقصيدة مطلعها :ـ

آلاؤك (٨) الغر أو آناؤك (٩) الغرر   زها بها فى الزمان الجيد الطرر (١٠)

(١) راضه ـ ذلله
(٢) الأكوار ـ الرحال أو بأداتها جمع كور
(٣) الأقتاب ـ الأكف التى توضع على نقاله الاجمال جمع قتب
(٤) الثواء ـ ثوى المكان وبه يثوى ثواء وثوى نزل وأثوى به أطال الإقامة به وأنزل
(٥) الإيراء ـ أورى الزند إذا أخرج ناره
(٦) الخابى ـ خبث النار سكنت أو طفئت
(٧) الصفاة ـ الحجر الصلد الضخم لا ينبت فيه
(٨) أحلاب ـ الحلب ويحرك استخراج ما فى الضرع من اللبن والحلب محركه والحايب اللبن المحلوب
(٩) الآلاء النعم واحدها إلى والى والى والى
(١٠) الآناء جمع انى وانى وأنا وانو ـ الوهن والساعة من الليل أو ساعة مامنه وانى كالى وعلى ـ كل النهار والجمع آناء وأنى وانى وأنا كهنا

الله ملجأنا إذ ليس يعجزنا   شر الخطوب وخير الدين لى وزر
حبر (١) له همة أعلى وأرفع من   هام (٢) الثريا ومجد ليس ينحصر
وسيرة سرت الدنيـــا بشـــائرها
وضمَّخ (٣) الكون عرفا (٤) مسكها الذفر (٥)
لازال كهفا لمن يأوى بساحته   فى ظله تعقد الآمال والوطر
وكعبة وزراء الفضل أنجمهـا   تزهو به وهو فيما بينهم قمـر

---

(١) الطرر — جمع طره جانب التوب الذى لاهدب له وشفير الوادى والنهر وطرف كل شىء وحرفه والناصية وأن تقطـــع للجارية فى مقدم ناصيتهـــا كالعلم تحت التـاج

(٢) الحبر بالكسر ويفتح العالم أو الصالح

(٣) الهامة رأس كل شىء ج هام وطائر من طير الليل وهو الصدى ورئيس القوم

(٤) الضمخ — لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر كالتضميخ

(٥) العرف الريح الطيبة

(٦) الذفر — مسك ذفر جيد إلى الغاية والذفر محركة شدة ذكاء الريح

الشيخ سيد المرصفي

المتوفى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣١ م

نشأته وحياته

هو الأديب العالم الجليل الشيخ « سيد » بن « على المرصفى » ولد « بالمرصفا » احدى قرى « القليوبية » وهى بلدة أنبتت كثيرا من الأدباء والعلماء النابهين، نشأ بها وأتم القرآن حفظا ، ثم التحق بالجامع الأزهر فنهل من علمه وارتوى من ثقافته ، وشب مطبوعا على الجد والمثابرة بهمة لا يتطرق اليها الملل ، وكان ذا ميل شديد إلى كتب الأدب العربى يقلب فيهـا نظره ، ويمتع بروائعها نفسه ، وكثيرا ما حفظ من شعر العرب الفحول وتزود من أدبهم القديم الرصين ، كما أكب على دراسة الكتب اللغوية فدرسها دراسة دقيقة ووقف على أسرارها واكتنه دقائقها من أمثال كتاب « الكامل للمبرد » « والأمالى لأبى على القالى » « والحماسة لأبى تمام » وغيرها .

وظل يتلقى العلم على فحول العلماء من أمثال « الشيخ الشربينى شيخ الجامع الأزهر الأسبق » ، ومن شيوخه أيضا الشيخ « المباط » والشيخ « عبد الهادى نجا الإبيارى » وكان يقول أخذت اللغة عنه .

وقد كتب كثيرا من كتب الشربينى بخطه منها شرح البخارى وتقريره على الأطول فى البلاغة ، وظل كذلك حتى تقدم لامتحان العالميـة فحصل عليها من الدرجة الأولى الممتازة .

الوظائف التى شغلها

وأول عمل تولاه هو تدريسه اللغة العربية بمدرسة « عباس باشا الابتدائية » ببولاق ، ثم عتب عليـه « الانبابى » شيخ الأزهر أن يحرم الأزهر فضله وعلمه فشكا « المرصفى » من أن مرتبات الأزهر لا تغنيه ، فتفضل « الإنبابى »

ومنحه مرتب التدريس بالازهر على أن يلقى درسا فى جامع الزاهد « بجهة باب البحر » بين المغرب والعشاء فيجمع بينه وبين التدريس بمدرسة « عباس باشا الابتدائية » فكان يؤم درسه الأدباء والفضلاء ، وحين كان مدرسا بهذه المدرسة تأخر قليلا عن الموعد المقرر فأستدعاه الناظر فكان جوابه تقديم الاستقالة ، ومما أثر عنه أنه قال ذهبنا إلى المدارس فوجدناها نظاما بلا علم وجئنا إلى الأزهر فوجدناه علما بلا نظام ، فآثر العلم على النظام وتولى « المرصفى » التدريس فى الأزهر .

وكان الناهضون بالأزهر الراغبون فى ترويج الآداب العربية به قد اتجهت عزائمهم الى التوفر على دراسة الأدب العربى فى الأزهر وبذل عناية خاصة به بعد أن كان نافلة ينساق الحديث اليه استطرادا .

فلما نهض المرحوم الشيخ « محمد عبده » باصلاح الأزهر ومكن من تنفيذ خطط الإصلاح فيه ، كان من أجل ما عنى به توسيع آفاق الأدب العربى فى الأزهر والعمل على أن يأخذ الأزهريون بحظ غير يسير منه ، فاقترح أن يطلب من ديوان الأوقاف مبلغا لترقية التعليم فى علوم اللغة العربية وأجيب هذا الطلب وقرر مبلغ مائة جنيه سنويا لهذا الغرض [1]

وكان الشيخ « سيد المرصفى » قد اشتهر بالتمكن من الأدب العربى والاضطلاع فى علوم اللغة العربية ، فعهد اليه بتدريس كتاب « الكامل للمبرد » ثم درس « الأمالى لأبى على القالى » « والحماسة لأبى تمام » كما درس غيرها من كتب اللغة العربية والأدب العربى وزيد مرتبه عن غيره من المدرسين لاضطلاعه بتدريس الأدب ، ثم جمع بين التدريس فى الأزهر والتدريس بمدرسة السلحدار الابتدائية ، ولما عين الشاعر العالم « الشيخ عبد الرحمن قراعة » مديرا للأزهر والمعاهد سعى فى منحه عضوية جماعة كبار العلماء « والمرصفى » فيما نعلم أول عالم أزهرى تمحض درسه للأدب فى الأزهر .

---

(١) تاريخ الإمام الجزء الثالث ص ٥٩٢ من تأبين الشيخ أحمد أبى خطوة

وفى سنة ١٩١٣ عين مصححا بدار الكتب المصرية فصحح « كتاب أساس البلاغة للزمخشرى » « وكتاب الطراز » فى البلاغة .

مسلكه فى التدريس

كان يشرح ما فى الكتاب من شعر أو نثر شرحا دقيقا وينقد مافيه من غلط أو مجافاة ، ويتجه اتجاها لغويا أكثر منه فكريا ، وإذا نقد تبسط فى نقده ونفذ إلى الأعماق فيما يرمى اليه ، وكان شديد الطرب للشعر القديم المتوغل فى القدم ، شديد الكره للتعبيرات النحوية أو الصرفية أو غيرها مما يجرى عليه مؤلف الكتب الأزهرية ، يؤدى مراده بأسلوب أدبى رصين ويحمل تلامذته على متابعته والاقتداء به ، ولم يكن ليخفى نفوره من الشعر المصرى الحديث الذى لا يجرى فى تركيبه على الأساليب العربية الجزلة .

وكانت دراسته أشبه بدراسة القدماء من اللغويين والأدباء ، أمثال أبى العباس تعلب والمبرد والرياشى وأبى عمرو بن العلاء وغيرهم من أعلام اللغويين ورواة لشعر ويقول عنه تلميذه « الدكتور طه حسين باشا » فى تقدمة كتاب « الأدب الجاهلى » وكان يفسر لتلاميذه فى الأزهر ديوان الحماسة لأبى تمام أو كتاب الكامل للمبرد أو كتاب الأمالى للقالى ، ينحو فى هذا لتفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين فى البصرة والكوفة وبغداد مع ميل شديد إلى النقد والغريب وانصراف شديد عن النحو والصرف

وكان طروبا لرقة الحديث وعذوبة المنطق وحسن صوت المتكلم ، تعجبه الكلمة الهادئة الرصينة المستقدة فى موضعها التى لا نبو فى استعمالها وأكثر ما يؤذيه الكلمة الخشنة والصوت الأجش .

وإذا استحسن كلمة أو عبارة فى بيت بالغ فى استحسانها واظهار التأثر والاعجاب بها وأعادها جملة مرات فى صوت رقيق ونغمة عذبة وطلب إلى تلامذته ان يسمعوا أو يعجبوا ويشاركوه فى عجبه ، وبذلك تولدت عندهم

حاسة النقد الذوقى ، ونشأت عند كثير منهم ملكة الشعر الغنائى والنثر الرقيق الذى يشبه الشعر فى لطف موسيقاه .

وكان ملحنا فى طريقة أدائه حتى ليظهر طربه ويستخف تلامذته من موسيقى توقيعه ، ويرى أن الأوزان الشعرية ترجع فى توقيعها ونغمتها إلى ضروب السير للرجالة والركبان والفرسان ويجتهد فى تمثيل ذلك بصوته وتوقيعه وحركته .

أثره فى الأدب وتلامــــذته

كان « المرصفى » يعقد درسه فى الرواق العباسى ، وقد حدثنا أحد تلامذته الخلصاء الأدباء[1] أن حلقة درسه كانت مهرجانا يضم الأدباء والشعراء على إختلاف بيئاتهم وألوانهم ، فلم تكن مقصورة على الأزهريين فحسب بل كانت ندوة يؤمها عشاق الأدب جميعا ، وكان يقيم بجهة باب الفتوح على مقربة من الأزهر ، وبلغت الصلة بينه وبين تلامذته وعشاقه حدا غريبا فهم لا يقنعون بما انتفعوا به فى دروسهم ولكنهم يصحبونه الى منزله فلا يزالون فى حديث أدبى موصول ودراسة طريقة ممتعة ويشق عليهم أن يدعوا لأستاذهم فرصة ينفرد بها . والحق أن « المرصفى » كان خفيف الروح جذابا ، يميل الى الدعابة والمفاكهة ، ويتبسط مع تلامذته فيزيل ما بينه وبينهم من الفوارق ويشعرون بجو روحى خالص تمتزج فيه مشاعرهم بمشاعره وخواطرهم بخواطره .

وكان يهتز للسؤال الأدبى اهتزازا ويخف له ويرتاح لموقعه من نفسه

---

(١) هو العالم المحقق الأديب الناقد الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد عميد كلية اللغة العربية وقد شرح مقامات البديع وعرضه على أستاذه المرصفى فقرظه كما شرح بعد ديوان الحماسة وديوان الشريف الرضى وسيرة ابن هشام وشرح ديوانى أبى نواس والبحترى وهما فى طريقهما إلى الظهور ، وله مؤلفات قيمة فى النحو والصرف وغيرهما .

ويقرظ صاحبه حتى ليسمو بسؤاله فان سأله أحد تلامذته بما هو من النحو أو على شرف منه أعرض عنه وقال « نعم يابن خروف »

تخرج على الشيخ « سيد المرصفي » فحول الأدباء والشعراء في مصر حتى ليجزم بعض تلامذته بأنه رأى جميع الأدباء والشعراء في درس « المرصفي » ينتفعون بأدبه وتوجيهه .

ومن هؤلاء الذين غذاهم « المرصفي » بأدبه وعلمه ، وبصرهم بمواقع الأدب ومواطن الجمال فيه وعلمهم النقد الأدبي الصحيح « السيد مصطفى لطفي المنفلوطي » « والشيخ عبد العزيز البشرى » « ومحمد مصطفى الهياوى » « والدكتور طه حسين باشا » « والدكتور زكى مبارك » « والأستاذ أحمد حسن الزيات » « والأستاذ محمد حسن نائل المرصفي » الذى أخرج مجلة الجديد وشهرزاد وصحح كتاب كليلة ودمنه وعنى بضبط غريبه وتفسيره وبيان ما فيه من أسماء الحيوان والطير ، وكتب مقدمة الكتاب وترجم لعبد الله بن المقفع الذى نقله إلى العربية ، ومنهم أيضا « الأستاذ حسن السندوبى » صاحب صحيفتى « الثمرات والجوانب » وصاحب كتاب « أعيان البيان » والشعراء الثلاثة » « وشرح المفضليات » « وشرح البيان والتبيين » « وشرح المقابسات » « وأدب الجاحظ » « ورسائل الجاحظ » « وشرح ديوان امرىء القيس » « وأخبار المراقسة واشعارهم » « وأبو العباس المرسى » ومنهم الاستاذ أحمد الزين الأديب الشاعر « والشيخ حسن القاياتى » الأديب الشاعر « والشيخ محمود الزناتى » الذى شرح مختارات ابن الشجرى وبعض كتب أبى العلاء المعرى ، كما أن له تصحيحات قيمة على كثير من كتب الأدب .

كما أن من تلامذته الأستاذ « محمود شاكر » الأديب الباحث الذى أخرج رسالة ممتازة عن المتنبي بمناسبة مرور ألف عام على وفاته .

ومن تلامذته المجيدين الكاتب المعروف « المرحوم محمد ابراهيم هلال »

الذى كان يكتب فى « الكشكول » بعنوان « المرآة » وكتب به « البشرى » فيما بعد .

ومنهم الأديب الشاعر المؤلف الاستاذ « كامل الكيلانى » ، كما أن منهم المرحوم الاستاذ « فهيم قنديل » صاحب مجلة عكاظ .

هؤلاء جميعا وغيرهم نهلوا من أدب « المرصفى » واهتدوا بهديه واتجهوا متجهه فى النقد الادبى الصحيح .

وكان « المرصفى » صاحب الفضل العظيم فى لفت الأنظار إلى الأدب العربى القديم واستخراج كنوزه والاقتباس من روائعه .

ومما قاله أحد تلامذته « الدكتور طه حسين »باشا« أستاذنا الجليل « سيد ابن على المرصفى » أصح من عرفت بمصر فقها فى اللغة وأسلمهم ذوقا فى النقد وأصدقهم رأيا فى الأدب وأكثرهم رواية للشعر ولاسيما شعر الجاهليه وصدر الاسلام وقال :

« حب الأستاذ ودرسه قد أثر فى نفسى تأثير شديدا ، فصاغاها على مثاله وكونا لها فى الأدب والنقد ذوقا على مثال ذوقه » .

- إيثار للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلف بمناحى الأعراب فى فنون القول ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوانه الفلسفية والمنطق وتفطن شديد لحكم الضرورة فى الشعر واللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد (١) .

وكان « المرصفى » شديد التمكن من رواية الشعر العربى القديم متوثقا من كل ما يرويه ، مفاخرا بذلك بين تلامذته ، حتى لقد كان يقول « ان أباتمام

---

(١) من مقدمة كتابه تجديد ذكرى أبى العلاء

اختار من هذه القصيدة هذه الأبيات وترك ماهو أجود منها وأكثر روعة.

وكان ينتقد أبا تمام فى تصرفه فى بعض القصائد بتقديم بعض أبياتها اذ يراها مروية على ترتيب آخر فى كتب الأدب التى هى أوثق رواية مما اطلع عليه أبو تمام، كما كان يفعل مثل ذلك فى شرح الكامل للمبرد .

استظهاره شعر اللصوص :

ومما امتاز به استظهاره شعر اللصوص وكان يقول ان لسان هؤلاء تشبه شائبة لأنهم لم يتصلوا بالحضر ولم تفسد ملكاتهم
وهو يحب الشعر ويكلف به ويحفظ من روائعه ما وسعه الجهد ويقول ، تعلموا الشعر فان لم تكونوا شعراء تكونوا لغويين ،

نكاته ونوادره

وكان رحمه الله حاضر البديهة ، محبا للنكتة طريف النادرة ، وقد أثرعنه من ذلك العذب السائغ ، لقيه فى الطريق رجل فاستوقفه قائلا ، طلقت امرأتى ثلاثا فما ترى ايها الشيخ ؟ فصاح فى وجهه لا أدرى ، لا أدرى فلما كلمه من معه قال أتريدون أن ينكحها على قفاى ؟ ،

وفى أحد أعياد المسلمين أقيم حفل قريب من منزله واجتمع الناس به فقام قس وأخذ يقول إن عيسى أفضل من محمد ، فثار الجمع لذلك وألحوا فى استحضار الشيخ ـ وكان قريبا من الحفل لمحاجة القس وأرهفت الاسماع واشرأبت اعناق ـ فقال له « المرصفى » أليس عيسى بن مريم ؟ قال نعم قال أليس محمد بن عبد الله ؟ قال نعم ـ قال أتفضل ابن المرأة على ابن الرجل ؟

وحين كان مصححاً بدار الكتب طلب منه « السيد محمد الببلاوى » كتاب تهذيب اللغة للأزهرى فقال « تريد تهذى باللغة ؟

ولعل هذه النكتة وفدت عليه من اطلاعه على قول الأول

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوسا تهذى بها

وقال لأصحابه يوما : كانوا يقولون ان البلاغة فى طبع المصريين أتدرون أن المنطق فى طبعهم أيضا ؟ قيل كيف ذلك ؟ لقيتنى فتاة فسألتنى نشوقا هى كونت فى نفسها قياسا ، كأنها قالت هـذا شيخ وكل شيخ يستنشق فهذا يستنشق .

عليه فى كتب اللغة والأدب

عمد إلى كتاب « الكامل للمبرد » « والأمالى لأبى على القالى » فبذل أكبر الجهود فى شرحهما وهما من أمهات الكتب العلمية الأدبية وأغزرها مادة وأوسعها علما وأكثرها نفعا ، وهما ميـدان للبلاغة على مختلف فنونها والأساليب فى شتى ألوانها ، والأقلام فى أخصب عصورها .

تصدى « المرصفى » لهذين الكتابين فتجلت مادته اللغوية ودرايته بالرواية وقدرته على الشرح وبعد غوره فى النقد وشدة تفطنه لمواطن البلاغة وروعة البيان ، وطريقته فى تناول هذين الكتابيين أن يتم القصائد ويشرح الغريب شرحا دقيقا ويتعرض لنسبة الشعر إلى قائله ويراجع من أخطأ فى النسبة ويترجم لصاحب الشعر كما يترجم للخطيب أو الكاتب .

ومن أهم ما عنى به تصحيح الرواية وتخطئة الشراح السابقين .

ومما يظهر فى شرحه إكبابه على دراسة الغريب والتقصى عن وجوه استعمال الكلمة الواحدة فيفرق بين معنى الكلمة فى أسلوب ومعناها فى أسلوب آخر فرقا دقيقا لا يهتدى إليـه الا مثله من غزيرى المادة اللغوية وممارسى الأساليب العربية .

وشرح الأمالى والعقد كلاهما مخطوط ، أما شرح الكامل فقد طبع فى ثمانية أجزاء .

وقد تعقب « المرصفى » أبا العباس فيما رآه خطأ فى الرواية أو اللغة أو المعنى أو النحو أو شرح الغريب أو تفسير الغامض ، وكثيرا ما كان يقسو فى نقد المبرد فيرسل جملا فيها من الجرأة مما لا يتفق مع مقام هذا الإمام الجليل كأن يقول كذب المبرد فى هذا والمبرد كاذب فى هذا وهذا مما تفرد به . الخ

« والمرصفى » يقول فى مقدمة الرغبة أسميته رغبة الآمل من كتاب الكامل مهتما ببيان ما حاد فيه أبو العباس عن سنن الصواب من خطأ فى الرواية وخطل فى الدراية ، ولا ينبئك مثل خبير ، فمن تخطئته المبرد (١) قوله قال أبو العباس قوله صلى الله عليه وسلم المتفيهقون انما هو بمنزلة قوله الثرثارون توكيد له قال المرصفى ذلك صواب لو كان معناهما واحد وليس كذلك وكأن أبا العباس ذهل عما ذكر من اشتقاقه وبيان معناه وهو الامتلاء (٢) ومما خطأ به رواية المبرد قوله حين روى أبو العباس البيت .

ان الكريم من تلفت حوله وان اللئيم دائم الطرف أقود

قال المرصفى كذا أنشد أبو العباس فغير لفظه ورواية الديوان

فمنهم جواد قد تلفت حوله ومنهم لئيم دائم الطرف أقود (٣)

وفى الرغبة كثير من هذا التغليط وغيره . والحق أن المرصفى لم يطرد صواب ما أخذه على المبرد وربما نزع فى غير قوسه فزاغ عن القصد سهمه كما وصف المبرد بذلك فى مقدمة الرغبة ، ومن ذلك ما أتى به المبرد هجاء فجعله المرصفى مدحا إذ قال ـ قال أبو العباس المبرد ـ ومما يستحسن من شعر اسحق هذا ـ يريد ابن خلف ـ قوله فى الحسن بن سهل .

---

(١) رغبة الآمل ج ١ ص ٢٣

(٢) رغبة الآمل ج ص ١٧٨ وقوله أقود يريد لا يلتفت إذ طمن مخافة أن يرى شخصا فيدعوه فوجهه مستقيم على نداده لا يكاد يصرفه ، المرصفى فى الرغبه فى الرغبة فى الصحيفة نفسها .

(٣) رغبة الآمل ج ٤ ص ١٣٢

باب الأمير عراء ما به أحـد   الا امرؤ واضع كفا على ذقن
قالت وقد أملت ما كنت آمله   هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن
كفيتك الناس لا تلق أخاطلب   يفيء دارك يستعدى على الزمن
ان الرجاء الذى قد كنت آمله   وضعته ورجاء الناس فى كفن
فى الله منه وجدوى كفه خلف
ليس السدى والندى فى راحتا لحسن

(فى الحسن بن سهل) يريد ابن عبد الله السرخسى وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، (باب الأمير) كأنه يريد أميرا غير الحسن (ولا تلق أخا طلب . . . الخ يريد الارجاء السدى ، وهو ندى الليل (والندى) ندى النهار ضربهما مثلا لجوده ، وقد أخر هـــذا الاستثناء عن موضعه فيقل[1] وقـد عنى بتخطئته فى مثل ذلك الأستاذ احمد شاكر فى تعليقه على الكامل .

على أن « المرصفى » وإن كان مضلعا فى اللغة بارعاً فى النقد ثقة فى الرواية لم يكن أول من وجه إلى المبرد ما وجه ، فقد سبقه إلى ذلك كثيرون ومنهم « أبو القاسم على بن حمزة البصرى » فى كتابه التنبيه على أغاليط الرواة ما غلط فيه المبرد ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب وبالمكتبة نسخة منقولة عنها « والمرصفى » قد يشير إلى نقد أبى القاسم المبرد وقد لا يشير ،

أسرار الحماسة :

شرح هذا الكتاب على طريقته التى نهجها فى الكتب الثلاثة وقد رأى كما قال فى المقدمة :

« إن أبا تمام سامحه الله تعالى كثيراً ما يعتمد على ذوقه فأحيانا يقـــدم ويؤخر فى أبياته وأحيانا يبدل بعض كلمات العرب بكلماته وبما حذف مايحتاج

---

(١) رغبة الأمل جـ ٤ ص ١٣٢ ،

إليه المعنى ، فيختل المبنى ، كما رأى أن أيدى الرواة عبثت بجميع ما اختاره أبو تمام ، فمنهم من ابتدأ بشعر قيس بن الحطيم الأنصارى ، ومنهم من افتتحه بشعر قريط بن أنيف العنبرى ، وكثيرا ما يفرقون بين أشعار القبائل ويذكرون الأواخر أثناء الأوائل — وربما فرقوا بين كلمتين قيلتا فى حادثة واحدة لشاعر وباعدوا بين أنساب العمائر وأحساب العشائر .

لذلك رتبه « المرصفى » ترتيباً آخر فقسم أشعار الحماسة قسمين أولها : الموضوعات الأدبية وثانيهما : شعر الوقائع الجاهلية والإسلامية ، قدم الشعر الجاهلى على الإسلامى والأموى على العباسى ملتزماً إيراد القصيدة متى عثر عليها كاملة ، منبهاً إلى ما وقع فيه أبو تمام ، مفسراً المعنى مبيناً المغزى ، غير تابع لقوم مدوا أيديهم على ذلك الديوان بالكتابة وظنوا أنهم فوقوا سهام الصواب وقد أخطأوا غرض الإصابة .

ولغزارة مادته اللغوية وسعة أفقه وفيض علمه كان كثير النقد والتعليق والتخطيء والتصويب لكثير من كتب اللغة والأدب ، وقد اطلعت فى مكتبته على طرف مما يقتنيه من هذه الكتب فوجدته قد طرز هوامشها وحواشيها بغرر من العلم وفنون من النقد ، كتبها بخطه الأنيق البديع الذى يضارع أروع الخطوط الحديثة .

ونسخته من لسان العرب قد زينت هوامشها بكثير من التصحيحات والنقد والمحاكمة خصوصا فيما نقله « ابن منظور » عن « ابن برى » « والجوهرى » إذ كان « لابن برى » شرح على « صحاح الجوهرى » يتعقبه فيه ويكثر من تخطيئه « وابن منظور » ينقل العبارتين فيقف « المرصفى » موقف الحكم بينهما .

وقد نقل « المرصفى » بخطه الجميل كثيراً من كتب الأدب ودواوين الشعر فى مختلف العصور ، ونسخ كثيراً من كتب اللغة العربية والبلاغة والفقه وغيرها ، وقد كان يكتب المتن بمداد ذى لون والشرح بمداد من لون آخر والتقرير بخط يخالف فى حجمه ، كل ذلك فى شكل مقبول ووضع طريف ،

وكثيراً ما كاف أبناءه وتلامذته بنسخ ما يروقه من الكتب والدواوين .

ومما اطلعت عليه بخطه كراسة وضع فى أطارها بالخط الضخم الرائع كلمات غريبة عربية ثم وضع داخل الصفحة شواهد من الشعر العربى المشتمل على هذه الكلمات منبها إلى مراجع هذه الأبيات ، وقد يكتب الكلمات فى الإطار ويدع مقابلها فارغا من الشواهد ، انتظاراً للعثور عليه ومما كتبه .

الزرجون : قال أبو دهبل :

ثم ماشيتها إلى القبـــة الخضراء تمشى فى مرمر مسنون
وقباب قد أمرجت وبيوت نظمت بالريحان والزرجون

الجفن : قال النمر التولبى (من مجموعة التعالبى) :

ألم بصحبتى وهم هجود خيال طارق من أم حصن
ألم ترها تريك غداة بانت بملء العين من كرم وحسن
سقية بين أنهـار ودور وزرع ثابت وكروم جفن
لهـا ما تشتهى على مصفى إذا شاءت وحوارى بسمن

أســـلوبه :

أما أسلوبه الأدبى فهو الأسلوب الرصين الفصيح العبارة المتخير اللفظ الحسن السبك الذى يطالعك منه غزارة البيان وفيض اللغة والافتنان فى الأخذ بأساليبها ، ويغلب على « المرصفى » أن يتناول السجع فى كتابته لكنه فى رفق ولطف لا غضاضة فيه ولا ثقل .

شـــعره :

أما شعره ففصيح التعبير متلائم النسج قوى الديباجة لكنه شعر علماء ، وقد ينحو به نحو الصنعة ويجهد فى الجناس والتورية ويتناول التاريخ فى شعره

كسنة السابقين ولكن ذلك لا يخرجه عن الوضوح والجزالة وإيثار المعنى وتوخى الغرض .

نموذج من نثره :

مما قاله فى مقدمة « أسرار الحماسة » .

أما بعد . فلولا مايؤثر عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، لما كتبت فى اللغة العربية آية تذكر أو حديثا يؤثر ، أو حكمة غراء ، أو رجزاً تحدو به حداة الإبل أو قصيدة تسير مسير المثل ، ومعاذ الله أن يكون ذلك ضنة وبخلا ، أو بما وجب سفاهة وجهلا ، ولكن رأيت نفوس القوم مصروفة إلى تحقيق المسائل العلمية والمباحث العقلية ، والعليم عندهم من نظر إلى الاستدلال وأكثر طرق الاحتمال وولد من الكلام مالا يولد ، وأوجد من الأفهام مالا يوجد ، ولو علموا (هداهم الله تعالى) ما علمناه من خصائص اللغة وأساليبها وما أودعت من لطائف الأسرار فى تراكيبها ، لهجروا تلك الكتب ذوات التنافر والتعقيد واغتنموا لغة القرآن المجيد ، والحديث الحميد .

على أنها لغة أمة أميين لا يعلمون القراءة والكتابة ويعلمون ما تحت السحاب وما فوق السحاب ، ما تركوا من أودية المعانى واديا إلا بحثوه ولا طرقوا من مبهمات الكلام غامضاً إلا استنبؤه ، وهم مع ذلك لم تجمعهم جامعة كلية ، ولم تحوهم مدرسة نظامية ، وإنما كان العربى فى بدايته يتلقى من أمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه ، حتى إذا بلغ أشده واستوى طفق يتنقل فى الأحياء ، تنقل الأفياء ، يستمع مايترنم به الفتيان وتشدو به الركبان فيحفظ منهم ما سمعه ويعى ما جمعه . فيتفتق بذلك لسانه ، ويقوى جنانه (وإنما العلم بالتعلم وملاك الفهم التفهم) » .

نموذج من شعره: قال فى عرس :

أهذه أنجم تزهو على الأنس   أم ذى بدور بدت من مطلع الأنس
أم ذى محاسن أنوار تنظمها   أيدى السرور تحلى بهجة العرس
لله ليـــلة أنس فى ملاحتها   وحسن بهجتها أقصى منى النفس
يريك منظرها من لطف رونقها   روضا تنور زهرا أطيب العرس
أعجب بها ليلة ما رامها أحد   إلا تـكشف عنه شقوة النحس
تقارن البدر فيها وهو مكتمل   فى دارة العز والإيناس بالشمس

وقال مقرظا كتابا فى علم الإملاء ألفه « الشيخ حسن شهاب » وسماه « دليل الكاتب » .

لله حسن مؤلف فى وضعه   صور الحروف كفاية للطالب
يهدى الى طرق الـكتابة رسمه   يا حبذا الهادى دليل (الكاتب)

ومدح الخديو « عباسا » الثانى بقصيدة مطلعها

سل النجم عن جفنى محبك والـكرى
كفى شاهدا من سائل الدمع ماجرى
جرى فوق خدى ناحل رق جلده   فأمسى ولا صبر لديه فيصبرا

وهنأ « الشيخ الإنبابى » إذ ولى مشيخة الأزهر بقصيدة كان يسميها المعلقة الثامنة ـ قال فى مطلعها : ـ

ملاك العلا فى غرة ملـكت يدى   أمن شأن مثلى فى العزازة أن يدى
أبت عزمتى أن آخذ الحمد هينا   بغير سنان أو لسان محدد

إلى أن يقول .

أمرت العلا أرخ بسامى كماله   تهنأت الدنيا ودين محمد
٨٥٦   ٦٦   ٧٠   ٩٢
١٣١٤ هـ

وكان الشعراء هنأوا « الشيخ الشربينى » بتوليته مشيخة الأزهر فكتب له مهنئا فكان مما قاله :ـ

تحجب البدر يا للناس عن نظرى ... هل عارف فيكم بالعين والأثر؟
ردوا على فقلبي فى هواه مضى ... وحلف الجفن فى التسهيد والسهر
ياشىء مالى فما أدرى تحجبه ... أساحر بى وشى أم رمية القدر (١)

ولما قرأها « الشربينى » وكان قد قرأ القصائد جميعا قال علقوا قصيدة « المرصفى » فوق رأسى .

وللمرصفى ديوان مخطوط يجمع طائفة ضخمة من شعره الذى قاله فى مختلف الأغراض وله تخميس سماه « الدر الذى انسجم على لامية العجم » التى قالها الوزير الكاتب مؤيد الدين « الحسين بن على الطغرائى » وأول اللامية

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

ويقول « المرصفى » فى مقدمة التخميس إنه نظمه (قياما بواجب الأدب وأخذا بنصرة لغة العرب وامتثالا لإشارة أعزائى الإخوان من بنى الإنسان وما هو إلا خطرات فكر نزهته فى روض اليراع . فجنى من أدبه الغض ما استطاع ، سميته بالدر الذى انسجم على لامية العجم) متخليا عن وصمة الخائل متحليا بحكمة القائل .

وما أعجبتنى قط دعوى عريضة ... ولو قام فى تصديقها ألف شاهد

ومن التخميس قوله :ـ

---

(١) ياشىء كلمة يتعجب بها تقول ياشىء مالى كياهىء مالى (قاموس) وفى الأساس روى الكسائى ياشىء مالى فى التلهف على الشىء وأنشد :

ياشىء مالى من يعمر يفنه ... مر الزمان عليه والتقليب

وقال زهير بن مسعود :

ياشىء ماهم حين يدعوهم ... داع ليوم الروع مكروب

أنا الإمام وكل الناس لى تبع

لم يلحقوا شأو مجدى ان هم انتجعوا

لى المفاخـــر فيما بينهم جمع (مجدى أخيراً ومجدى أولا شرع

والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل)

مجدى تعزز حتى اعتز بى وطنى وتاه كبراً على بغداد أو عدن

لا أبتغى غيره والعز ينشدنى (فيم الإقامة بالزوراء لا سكنى

بهـا ولا ناقتى فيهـا ولا جملى)

ويقول فى آخره .

ويا بصيراً بحـال الدهر أهله للأمر أهل النهى حتى تأمله

إن وشحوك بما استوضحت مشكله

(قد رشحوك لأمر إن فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى من الهمل)

وقد طبع التخميس سنة ١٣١٢ ﻫ ويليه فى كتيب واحد تخميس تلميذه «السيد طه افندى أبو بكر» الذى سماه «بث الشجن على عينية أبى الحسن» التى انشأها ابن رزيق ومطلعها .

لا تعذليـه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولـكن ليس يسمعه



الشيخ حسين والى

المتوفى سنة (١٣٦٢ هـ — ١٩٤٣ م)

نشأته وحياته

نشأ فى بيت كريم الأصل عريق فى المجد ، فهو ابن المرحوم الشيخ « حسين والى » بن « ابراهيم والى » بن « اسماعيل والى » بن « وهدان والى » و « وهدان والى » الجد الثالث للمترجم له ينتسب إلى « السلطان عامر » أبن « مروان الحسينى » وينتهى نسب « السلطان عامر » هذا إلى الإمام على كرم الله وجهه .

وقد ولد الفقيد ببلدة « ميت أبى على » الملحقة بمركز « الزقازيق » من أعمال الشرقيـــة سنة ١٨٩٦ م – وكان والده من علماء الأزهر الفحول المعاصرين « للاشمونى » « والإنبابى » « والطويل » وغيرهم ، وكان مدرساً بالمدرسة التجهيزية ، تثق به وزارة المعارف فتسند اليـه رياسة الامتحانات العـامة وتعهد إليـــه بتفتيش المدارس ، كما كان من المقربين للخديو « توفيق باشا »

تعلم المترجم فى مكتب القرية وحفظ فيـــه القرآن الـكريم ، ولما أوفى على التاسعة من عمره استصحبه والده إلى القاهرة حيث كان يقيم بقصر عمه المرحوم « مصطفى بهجت باشا » بحى « السيدة زينب » وهناك أدخل مدرسة ابتدائية أتم بهـا دراسته ، ثم ألحق بالأزهر حول الثـالثة عشرة من عمره فتلق العلوم على أساتذته بجد ومثابرة حتى نال شهادة العالميـــة ، وقد عرف طول درسه بالبحث والتدقيق .

وعين بعد ذلك مدرساً فى الأزهر فدرس كثيراً من علوم الفقه والشرع وخاصة كتاب « الأم » فى مذهب الشافعيـــة إذ أذن له بتدريسه أستاذه

« الأشمونى » ولما يتجاوز الثلاثين من عمره ، وكانت حلقة درسه مقصد الطـــلاب لثقتهم به وتمكنه من مادته .

ولما كان من العلماء الأثبات الراسخين فى الإفتاء كان المغفور له الشيخ « محمد عبده » يحيل عليه استفتاءات ترد إليـه من مختلف الأقطار الإسلامية فكان مثار الإعجاب بدقته وعمله ورسوخ قدمه حتى أن « مجلة المنار » أشارت إلى ما كان له من جهود فى تحرى الحقيقة وتوخى الصواب فيما كان يصدره من فتاوى للمسلمين فى شتى الأقطار .

ولما أنشئت مدرسة القضاء الشرعى اختير مدرساً لعلوم الأدب العربى والإنشاء والمنطق وأدب البحث والمناظرة وبعض العلوم الشرعية فتلق عنه هذه العلوم طائفة من نابغى القضاء الشرعى (ومما يذكر عنـه بمناسبة إشتغاله بالتدريس فى مدرسة القضاء أنه كان جلدا على العمل دقيقا فى مراجعة ما يكتب تلامذته حتى أن حضره صاحب العزة الأستاذ « أحمد إبراهيم بك » رحمه الله ـ وصف الفقيد لنـا بهذا الوصف فى مقام ذكر حسناته قال ، أنه كان أحد اثنين عرفا بالتدقيق فى العمل والقيام بالواجب المدرسى ، وهما الفقيد العظيم والمغفور له الشيخ « محمد المهدى » الذى كان وكيلا لمدرسة القضاء الشرعى [1]

على أنه كان موصول الأواصر بالأزهر وهو يدرس بمدرسة القضاء إذ شغل منصب المفتش العام للأزهر والمعاهد الدينية حين أنشئت وظائف التفتيش فى الأزهر .

ومما يذكر أن له فى الأزهر تشريعا صدر به قانون فى ســـنة ١٩١١ لا يزال هـذا التسريع متبعا حتى الآن فى المعـاهد الدينية ـ ثم أنه نقل من التفتيش الى معهد طنطا حيث عين وكيلا له ، وقد أظهر من حسن الإدارة وبراعة التوجيه ما زاد فى فضله .

---

(١) من كلمة منصور فهمى باشافى تأبينه فى المجمع اللغوى .

وإذ تولى المغفور له « السلطان فؤاد » عرش « مصر » اختير لمنصب كاتم السر العام للأزهر والمعاهد الدينية ، فاضطلع بأعماله الضخمة وأعبائه الجسام على خير وجه ، ومما يذكر له بالحمد والتقدير أنه فى أثناء توليه هـذا المنصب قررت لجنة (١) إصلاح المعاهد الدينية وضع الأزهر تحت تفتيش وزارة المعارف كفاء عشرين ألف جنيه تأخذها المعـاهد الدينية من وزارة المالية وكان ذلك فى وزارة المرحوم « يحيى ابراهيم باشا » ولما رفع قرار اللجنة إلى مجلس الوزراء أصدر رأيه بالموافقة عليه ، إلا أن « والينا » حملته الغيرة على إستقلال الأزهر فغضب له واستطاع بنفوذه البالغ ولباقته الساحرة أن يصرف الأمر عن وجهه بعد ما تهيأ له من أسباب التنفيذ .

عضويته فى جماعة كبار العلمـاء

وفى سنة ١٩٢٤ تقدم ببحث على لينال عضوية الجماعة فصدرت الإرادة الملـكية بتعيينه فى عضوية هذه الجماعة الموقرة .

فى مجلس الشيوخ :

ثم اختير بعد ذلك عضواً فى مجلس الشيوخ فمثل الأزهر أكرم تمثيل ودوى صوته الدينى فى جنبات المجلس فقاوم التبشـــير وحض على العناية بالقرآن الـكريم فى المدارس الإلزامية ووقف للغة العربية موقف المدافع الغيور فكان يثور حين يجد خطأ فى الأداء منبهاً صاحبه إلى الصواب مهما علا شأنه .

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه دخل المجلس يوما فقال لأعضائه فيم تبحثون ؟ فقالوا نبحث قانون التسول ، فقال لهم التسول معناه الاستـكراش واسترخاء البطن فهل تريدون فى ذلك بحثا ؟ وكانت ملاحظة لغوية طريفة دلت على براعته التى شهد بها الجميع فى كل مواقفه .

---

(١) اللجنة الجماعة يجتمعون فى الأمر ويرضونه

فى المجمع اللغوى :

ولما أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ م كان أحد عشرين عضواً وقع الاختيار عليهم للقيام برسالة المجمع ، وقد شهد له بالفضل والتمكن فى اللغة جميع علمائها الذين عرفوا فيه الدقة وغزارة العلم وسعة الاطلاع .

صفاته وأخلاقه :

هذا وقد كان رحمه الله جم الذكاء حاضر البديهة عذب الحديث آخذاً بأسباب الجد عظيم الخلق عفيف اللسان نزيه الرأى كريم التواضع ، فأكرم بهاتيك أن تكون صفات العلماء .

مكانته اللغوية وأسلوبه :

كان رحمه الله دائم البحث والتنقيب فى كتب اللغة وعلومها والأدب وفنونه ، وكان شديد الغيرة على اللغة العربية حريصا على تنقيتها مما يشوبها من الخطأ والدخيل ، دائب السهر على سلامتها من كل يشوبها .

وقد أثر عنه إذ عين وكيلا لمعهد طنطا أنه كان نافذ الرقابة على العلماء والطلاب ، ولما لاحظ بعض الخطأ فى عباراتهم أراد أن ينقيها من هذا الزيف وأن يضع حداً لما يشوب الألسنة من الخطأ فكان يكتب ما يتداول من الكلمات على اللوح مبينا الخطأ هاديا إلى الصواب ، وقد ظل يعرض هذه الكلمات فى فناء المعهد مرتين فى كل أسبوع وذلك مما كان له أعظم الأثر فى صحة العبارة وسلامتها من كل شائبة .

وكان آية الآيات فى غزارة المادة ودقة البحث والتملىء من العلم والتهدى إلى وجه الصواب فيما يتناوله من البحوث .

ومن يطلع على محاضر الجلسات للمجمع اللغوى ويستقرىء ما دار فيها

من بحث وتنقيب يجده صاحب الفضل الضخم والعلم الجمّ والرأى السديد ويجد له من الجهد الموفور ما يربى على جهد جماعة مجتمعة .

وكان الحكم الفصل فى المجمع فيما يطرح من بحث ويتناول من دراسة قوى الحجة متين البرهان ، مكنته سعة أفقه وطول اطلاعه على أسرار العربية ودقائقها من أن يكون (فيصل هذه المناقشات يقول حين يدور الجدل فى الاصطلاح أو القاعدة القول الذى يقطع الشك ويقف المناقشة على ما يحسن السكوت عليه[1]) .

وقد شهد بوفرة علمه وشدة تمكنه فى اللغة وعلومها ، وبراعته فى البحث وتفوقه فيه ، ما نشره فى صحيفة المجمع من أبحاث لغوية بارعة ، وخاصة ما كتبه بعنوان « سبيل الاشتقاق بين السماع والقياس » المنشور فى الجزء الثانى من صحيفة المجمع فإنه نموذج القدرة الفائقة والدرس الحصيف والبحث المتين .

وكان إلى جانب هذا أديبا عذب الأسلوب متخير اللفظ ، فصيح العبارة محكم النسج ، رائع البيان حتى فيما يكتبه من بحوث ودراسات علمية .

شـــعره :

وكان ينظم الشعر ويجيده على إقلال ، إلا أنه كان منقطع النظير فى التاريخ الشعرى ، فقد أنشأ فيه القصائد الطوال ، وبلغ من البراعة فيه أن يجعل أحد مصراعى القصيدة رمزا للتاريخ الهجرى والمصراع الآخر رمزاً للتاريخ الميلادى ، ومن ذلك قصيدته التى سماها (شوارة عكاظ) قالها فى مدح الشيخ « محمد عبده » وبدأها بالفخر بنفسه وهى تبلغ خمسين بيتاً ، يؤرخ المصراع الأول من كل منها عام ١٨٩٨ م والمصراع الآخر عام ١٣١٦هـ كما أن عنوانها يؤرخ عام إنشائها بالتاريخ الميلادى .

---

(١) من كلمة منصور باشا فهمى فى حفل تأبينه فى المجمع اللغوى .

وللشيخ كتاب لم يطبع سماه «عصا موسى» فى قريض العرب والمولدين ذكر فى هـذا الكتاب قصيدة له سماها «مليكة شعر الدهر» وتؤرخ هذه التسمية بحساب الجمل عام إنشائها وهو ١٣١٠ هـ - ويقول عن هذه القصيدة إنها مائة تاريخ فى ستين بيتا كل ثلاثة أبيات خمسة تواريخ تكتب فى الأصل خطا واحدا فتكون القصيدة عشرين خطا وحينئذ تقرأ على أوجه متعددة لو قرأت على أصل كتابتها كانت مسدسة وكان المصراع الأول منها وماتحته من كل تسديس عشرين تاريخا لعام ١٣١٠ هـ والصراع الثانى وما تحته كذلك عشرين تاريخا لعام ١٨٩٢م والمصراع الثالث وما تحته كذلك عشرين تاريخا إلى سنة ١٩٠٦ قبطية والمصاريع الثلاثة المذكورة مصرعة إلى انتهائها ، والمصراع الرابع وما تحته كذلك عشرين تاريخا لسنة ٢٢٠٤ رومية لازمة فيه قافية النون ، كل مصراع مما ذكر تاريخ ، والمصراعان الخامس والسادس وما تحتهما كذلك عشرين تاريخا لسنة ٥٦٥٣ عبرانية كل مصراعين تاريخ واحد لازمة فى الخامس قافية الدال الموصولة بالهاء ، وفى السادس قافية اللام

ولست أدرى إلى أى حد احتمل الشيخ عناء هذه الطريقة وكيف أطاق هذا الجهد المضنى ، ولكنها قدرة وولوع .

مؤلفاته

ترك الشيخ مؤلفات قيمة كثيرة أعانه على تأليفها طول مثابرته وفيض علمه وبعض هذه المؤلفات مطبوع ككتاب أدب البحث والمناظرة ، وكتاب الاشتقاق ورسالة فى التوحيد ، ورسائل فى الاملاء ، وله غير ذلك مؤلفات جليلة لا تزال مخطوطة فى فقه الشافعيـة الذى كان إماما فيه ، وفى علم الحيوان ، وفى علم الكلام وتاريخه ، كما ألف فى اللغة كتابا ضخما تناول فيه اللغة وعوامل نشأتها وتطورها واختلافها ونمو اللغة وتعدد لهجاتها ، وما أدخل على اللغة العربية من ألفاظ غريبة عنها مع تبيين أصل هذه الالفاظ .

هذه المؤلفات ثروة ذات خطر ، وحبذا لو أتيحت مراجعتها وطبعت لينتفع الناس بكنوزها .

نموذج من نثره

مما نشر فى الجزء الثانى من مجلة المجمع بعنوان « سبيل الاشتقاق بين القياس والسماع »

كان للعرب فى الجاهلية كلام كثير وشعر كثير لم يكن لهم علم أصح منه ، ولم ينتهِ الينا جميع ما قالوا لأن اعتمادهم كان على الرواية لا على دواوين معروفة فإنهم كانوا أميين لا يعلمون الكتاب ، ومن علمه منهم فهو قليل .

ولما جاء الاسلام لفت العرب عما كانوا عليه ، وبهرهم القرآن بأساليبه وشغلهم بأحكامه وتكاليفه ، وغادر القادرون منهم الأرض الجرز إلى غيرها فى شئون ساقتهم فشرقوا وغربوا إلى أن هلك منهم من لا يحصون موتا وقتلا بيد أنه كان لمن بقى فى بلاد العرب ومن خرج فترات أو فرص حصل فيها إثبات طرف من الرواية وطرف من الكلام والشعر عليه من الرونق ما لم يكن من قبل .

هذا ما صارت إليه لغة العرب من الكثرة فلم ترثها من العرب الا كما يرث الرجل من أبيه نحو الكفاف من الرزق .

ثم حدثت أطوار عبثت فيها يد الحدثان بطائفة من هذا ، فبعضها أصابه الفناء ، وبعضها أصابه التفريق ولولا حسن التصرف وسعة الحيلة لكشفت الحاجة عن وجهها العابس .

إننا نجد مواطن غير تامة الافادة أو البيان فى أمهات الكتب اللغوية التى بين أيدينا وقد حشدت ما يرى كثيرا وهو قليل من الكثير الذى ذهب ولو وصلت الينا اللغة وافرة ، لوجدنا طلبتنا فيما نحسب ، ومن هذه المواطن ما انساقت إليه الفكرة الآن .

قد يذكر اللغوى الكلمة التى من شأنها أن تشتق أو يشتق منها ولا يذكر الأصل أو الفرع ، أو يقول مثل كلمة كذا لا فعل لها أو المصدر ممات أو لا تقل كذا . والفطين المستنبط لا يقف عند ذلك ، بل ينبعث للإحاطة بأسبابه وتوسيع البحث عنه ، والنظر فى الاشتقاق وأصول العربية ، فإذا سلك هذا المنهج رأى أن بعض المحظور يصير غير محظور ، وأن الشىء قد يمنع من جهة ولا يمنع من جهة أخرى ، وأن هناك ما يقدر على القياس ولا يتكلم به لوجود مانع ، وأن هناك ما يؤتى به على القياس ويتكلم به وان لم تتكلم به العرب ، لأنه لا مانع وما قيس على كلام العرب وسلم من موانع الاستعمال فهو من كلام العرب ، وعلماء العربية لم يضعوا أصولهم لما سمع من العرب ، وانما وضعوها لما لم يسمع .

ومما ألقاه فى إحدى جلسات المجمع ما يأتى :ـ

سادتى

أتشرف بأن أقوم بينكم لألقى كلمة فى القرارات السبعة التى رآها مجمع اللغة العربية الملكى فى دور الانعقاد الثانى ، وبيان مأخذها وسبيل الانتفاع بها وما رآها إلا عن نظر صحيح وحجج قائمة وقد دعت إليها الدواعى وبعثت عليها البواعث ، وان المجمع لا تفتر له همة عن خدمة اللغة ومعالجة إنمائها بالاشتقاق وغيره ، وقيامها بالأغراض التى يتطلبها الزمان مع المحافظة عليها حتى لا يكون هناك ميل عن سنن الطريق .

وإذا كان المجمع نعمة على اللغة وأهلها من نعم صاحب الجلالة مولانا المعظم أيده الله وأبقاه ، فإن من شكر النعمة الدأب فى العمل ، وان شاء الله رأى الناس أن الطل صار وابلا .

وانما ألقى كلمتى فى ضوء من بحوثى التى سمعها المجمع وعول عليها عند النظر فى المسائل .

لقد سن المجمع طريقة لإكمال المواد اللغوية التي ورد بعضها ولم ترد بقيتها حتى ينتفع بما يجيزه القياس من هذا .

إن كتب اللغة هي مثابة اللغويين والادباء وغيرهم ، وقد جمعت كثيرا وبينت كثيرا وان لبعضها اصلاحا مرشدا ، ولكن فيها وراء ذلكم أصولا لم تذكر مشتقاتها ومشتقات لم تذكر أصولها ، وقد يذكر في بعض هذا أنه لا يقال كذا أو لا فعل لكذا ، أو أن المصدر ممات ، أو ما شأنه أن يمنع من سد الثلمة ومرجع هذا الكلام العرب ، والعرب أمراء الكلام يتصرفون فيه بالسليقة يتكلمون تارة بالكلمة ومشتقاتها وتارة يتكلمون ببعض دون بعض ، وطورا يحيون الكلمة ثم يميتونها كالمرء يتذوق الشيء فإذا لم يعجبه طعمه طرحه .

فهمنا هذا كما في كتب اللغة ، وان من اللغويين ذوي أحلام كشفوا الغطاء عن بعض ما نظن أنه محظور فإذا هو مباح ولو من من طريق القياس فكان ذلكم من أسباب التكملة التي رآها المجمع ، أما ترك الامر على حاله فإخفار لذمة اللغة .

ومن بحث في كتب اللغة بحث استقصاء ، وكان بصيرا بأصول العربية والاشتقاق عرف مواطن الاتفاق والاختلاف ، ومنزلة كل من المختلف فيه ، وعرف أن كثيرا مما أشرت اليه يجوز في القياس وان لم تتكلم به العرب ، فما قيس على كلام العرب ولم يمنع من التكلم به مانع كان من كلام العرب ، فما وضعت أصول العربية والاشتقاق لما فاتوه ، وإنما وضعت لما لم يقولوه .

لما رأى المجمع رأيه جعل المذكور في كتب اللغة سبيلا إلى غير المذكور وأوى إلى ركن شديد بما حقق علماء العربية فأزال توهم بعض الناس ان ما لم تنص عليه كتب اللغة مطروح ، وأفاد ان اصول العربية هي الادوات التي تستخرج بها الثروة اللغوية المذكورة .

ومن الأمثلة قول لسان العرب «بخن فهو باخن، «طال» والخاء من بخن مفتوحة فإذا بحثت فى كتب اللغة عن ضبط عين المضارع وعن المصدر لم تجد، فيفهم من تفسير بخن بطال أن بخن فعل لازم، ويفهم من فتح عينه أن مصدره هنا على مثال فعول قياسا، ويفهم من كون عينه حرف حلق أنها تفتح فى المضارع قياسا، كدأب يدأب دءوبا فيقال بخن يبخن بخونا.

* * *

نموذج من شعره

قال يقرظ كتاب (شذا العرف فى فن الصرف) لمؤلفه الشيخ الحملاوى وهو من تاريخه الشعرى :ــ

شذا العرف بالطبع مبناه رق   وبرق اصطفا الصرف لطفا برق

١٠٠١ ٣٨١ ١١٤ ٩٨ ٣٠٠   ٣٠٨ ١٨١ ٤٠١ ١٢٠ ٣٠٢

كتاب نقى أغار الحسود   وأخمل كل كتاب سبق

٤٢٣ ١٦٠ ١٢٠٢ ١٠٩   ٦٧٧ ٥٠ ٤٢٣ ١٦٢

كتاب كريم عظيم مقام   صفا مثلما رق لطفا ورق

٤٢٣ ٢٧٠ ١٠٢٣ ١٨١   ١٧١ ٦١١ ٣٠٠ ١٢٠ ١١٠

كتاب تباهى بأقعد وضع   وأضحى حليفا لحسن نسق

٤٢٣ ٢٧٠ ١٠٢٠ ٨٧٦   ٨٢٥ ١٢٩ ١٤٨ ٢١٠

به الصرف وافاه أسمى افتخار   فأبدى زهاء عظيم الأفق

٧ ٥٠١ ٩٣ ١١١ ١١٨٣   ٩٧ ١٣ ١٠٣٠ ١٨٢

غوى الصرف زلفا فأرجعه   فصار برجعته كالفلق

١٠١٦ ٤٠١ ١١٨ ٣٥٩   ٣٧١ ٦٨٠ ٣٦١

صنيع أخى الفضل وافى الأيادى   وأرقى جليل شريف الأرق

٢٣٠ ٦١١ ٩٤١ ٦٥ ٥٧   ٣١٧ ٧٣ ٥٩٠ ٣٣٢

أغر البرايا النبيـــل الفريد	من البـــدر دون زكاء اتمحق
١٢٠١ ٢٤٥ ١٣٣ ٣٢٥	٩٠ ٢٣٧ ٦٠ ٧٢٦ ١٩٩
غياث العلا الحلاوى العزيز	مناط النهى من به الفخر حق
١٥١١ ١٣٢ ١٢٦ ١٢٥	١٠٠ ٩٦ ٩٠ ٧ ١١ ١٠٨٩
لعمرك هــذا الذى عز جاها	يبث ثناء المديح نطق
٣٦٠ ٧٠٦ ٧٤١ ٧٧ ١٠	٥٠٤ ٥٥٦ ٩٣ ١٥٩
ســنة ١٨٩٣	ســنة ١٣١٢

وقال يهنىء الشيخ «حسونه النواوى» بتوليته مشيخة الأزهر من قصيدة عدتها خمسة وعشرون بيتا صدورها للتاريخ الهجرى (١٣١٣) وأعجازها للتاريخ الميلادى (١٨٩٥) على طريقة الرسم الكوفى .

لعمرك مجد الدهر حسونة الاسمى أخو المجد خدن العز رب العلا قدما
أشم الورى رأيا ومجدا ومحتدا وأفخمهم فضلا وأطودهم علما

وقال يهنىء الشيخ «محمد عبده» من قصيدة طويلة صدورها تاريخ لسنة (١٣١٧ هـ) وأعجازها لسنة (١٨٩٩ م) وهى على طريقة الرسم الكوفى أيضا

توحد عزك لاذ ونهى جناه سواك ولاذ وعظم
فأنت مآل القوافى تزف م فرائد طالت بأغلى الكلم
منيع الذرى ووطيد السعو د منيع العلا وأغر الشيم
مسدد رأى إذا الرأى ند م وشهم عزيز إذا الخطب عم

الشعر فى العصر الحديث

مر بالشعر فى هذا العصر ثلاثة أطوار أو مراحل كان فى كل منها مغايرا للأخرى فى ظواهرها تبعا لعوامل النشاط والخمود التى تهيأ له - فالطور الأول من ولاية «محمد على باشا» سنة ١٨٠٥ إلى ولاية «اسماعيل باشا» سنة ١٨٦٣ م والطور الثانى من ولاية «اسماعيل باشا» إلى الاحتلال الانكليزى سنة ١٨٨٢ م والطور الثالث من الاحتلال الانكليزى إلى يومنا هذا .

الشعر فى المرحلة الأولى

وفدت هذه النهضة والشعر صورة من ماضيه فى العصر السالف لا ابتكار فى أغراضه ولا تهذيب فى أسلوبه ولا تجديد فى معانيه وأخيلته ، وظلت مواهب الشعراء مجدبة لا تخصب ، جامدة لا تلين وذلك لأن عوامل النهضة المستحدثة لم تكن قد أثرت فى الاتجاه الادبى واللغوى فى بواكيرها ولأن ما جرى من الإصلاح لم يكن فى وجازة مدته وضيق أفقه يؤثر فى طريقة التفكير أو يغير من أسلوب الكلام .

ولم يكن «محمد على» منصرف الهمة إذ ذاك إلى الآداب بله الشعر فهو أمى ليس للشعر موضع من تفكيره ، ولا نصيب من تقديره ، وما كانت حكومته حينئذ عربية الصبغة ، بل كانت تركية فى كثير من مظاهرها ، ولم يكن الوالى ذلك الوقت يعنى إلا بتشجيع العلوم التى هى أساس الإصلاح المادى ، ولم يلتفت إلا لإنهاض البلاد وانقاذها مما انحدرت إليه من تأخر إدارى وحيوى تمخض عنه العصر السابق .

بقى الشعر فى هذه المرحلة على ما كان عليه من ارتصاد للبديع وتهالك على الزخرف وولوع بالتاريخ الشعرى الذى اخترع فى العصر الماضى وأغرم الشعراء به بل من القصائد ما يكون كل بيت أو شطر منها تاريخا .

ولعل لرغبة الأمراء فى تسجيل أعمالهم وضبطها بسنى حدوثها أثرا فى إكثار الشعراء من ذلك فقد رأينا التواريخ تكتب بالشعر على القبور والمنشآت من مساجد ومنازل وسفن وغيرها ، ويسجل بها ما يكون من قران أو ختان حتى طبع الكتب كان يؤرخ بالشعر أيضا .

ومن شعراء الأزهر فى هذه الفترة «السيد اسماعيل الخشاب» «والسيد على الدرويش» «والشيخ حسن العطار» «والشيخ محمد شهاب الدين المصرى»

الشعر فى المرحلة الثانية

كان عصر «اسماعيل» نهضة مشبوبة فى شتى مظاهر الحياة ، نهضة فى العلم والفن والأدب ، وقد أعان على ذلك نشاط المطابع فى إخراج الكتب المؤلفة والمترجمة ، وإحياء ما اندثر من الأدب العربى الخصب ، وماتم من إنشاء دار الكتب التى سهلت للأدباء الاطلاع ووفرت لهم اتساع الثقافة وقد مكن الخديو «اسماعيل» الأفرنج وغيرهم من النزوح إلى وادى النيل والاقامة فيه ، ونشط الأدباء وقربهم وأنعم عليهم فتكاثر الشعراء والأدباء ودخل الأدب شىء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التى نقلت بالمخالطة أو الأسفار أو بمطالعة كتب الأفرنج الشعرية (١)

وشاعت الحرية فى عصر «اسماعيل» وأحس الشعراء والأدباء بالقدرة على التعبير لا يحد من حريتهم عنت ، ولا يحبس عواطفهم تضييق أو إرهاق وبشيوع الحرية استيقظت الافكار ونهضت القرائح وتيسر للأديب والشاعر أن يعبر عن إحساسه وخوالج نفسه بألوان من التعبير وفنون من التصوير .

ونزع شعراء هذا العصر أيضا إلى تقليد الاساليب الغربية ، وتأثروا بالحضارة الحديثة والعلم الجديد وامتزجت خيالاتهم بخيالات الغرب التى

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٢٢١

نقل منها إذ ذاك جانب غير قليل .

ولم يكن « اسماعيل » ليجفو الادباء أو ينأى بجانبه عن الشعراء ، بل كان هاشا لهم بارا بهم ، يفيض عليهم فى غير عسر ولا تضييق ، حتى لقد ذكروا أنه أعطى بطرس البستانى ألفا وخمسمائة جنيـــه معونة له على طبع دائرة المعارف ، وأجرى على « السيد جمال الدين الافغانى » عشرة جنيهات شهريا من مال الدولة تقديرا لفضله ، وعوض على « ابراهيم المويلحى » خسارته التى خسرها فى التجارة (١)

وبلغ من حب « اسماعيل » للشعراء خاصة أن اصطفى منهم شاعرين لخاصته هما الشاعران الازهريان « الشيخ على الليثى ، والشيخ على أبو النصر المنفلوطى بل لقد وكل تربية أبنائه إلى العالم الشاعر الاديب « الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى »

وكان ذلك حاثا للشعراء على أن يمتدحوا « اسماعيل » وأن ينظموا الشعر فى الولاء له ، حتى لم تخل صحيفة الوقائع وهى الصحيفة الرسمية من شعر يمدح به فى شتى المواسم والاعياد والمناسبات .

على أن هذه العوامل كلها لم تكن كفيلة بأن تغير صفحة الشعر تغييرا تاما ، بل لقد ظل متورطا فى الصناعات اللفظية والمحسنات البديعة ، ولم يزل الشعراء عاكفين على التاريخ فى قصائدهم ، وان كانوا قد اتجهوا نحو الفكرة فى الشعر وتوخوا المعنى شيئا ما ، واتسعت أفكارهم ، وخف تناولهم الزخرف وتزيينهم الالفاظ والاساليب .

أما « توفيق باشا » فقد منح الادب عناية وتشجيعا عظيمين وأجدى على الشعراء وكافأهم ، بل دل على ولوع بالشعر وارتياح له ، وقد حدث « عبدالله فكرى باشا » أن « توفيقا » أمره بأن يجمع من الحكم والامثال وجوامع الكلم أبياتا تكون زينتـــه فى المسامرة ، وعونه فى المطارحة والمحاضرة ،

---

(١) مذكرة المرحوم الأستاذ محمود مصطفى ص ٣٩٥

ومرشدا لمحاسن السجايا الفاخرة

وارتياح «توفيق» للشعر هو الذى بدل غضبه على الثائرين على حكومته صفحا ورضا، واستجاب للشعر فعفا به وأغضى، كتب إليه «عبد الله فكرى باشا» وكان متهما باشتراكه فى الثورة العرابية ومشايعته الثائرين يستعطفه بقصيدته التى يقول فى مطلعها

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى

وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا

وقف خاشعا واستوهب الإذن والتمس

قبولا وقبل سدة الباب لى عشرا

وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة

لذى أمل يرجو له البشر والبشرى

فلم يلبث «توفيق» أن هش له وعطف عليه ورد إليه معاشه الذى كان قد حرمه إياه

ويدل صنيع «توفيق» مع «السيد عبد الله نديم» هذه الدلالة فقد شفع له إذ مثل بين يديه بعد أن كان جادا فى تعقبه مكافئا على العثور به وهو خطيب الثورة الذى هيج النفوس وملأها حماسة وثورة، عفا عنه «توفيق» إرتياحا لأدبه وتقديرا لبيانه، وذلك هو المرحوم «احمد شوقى بك» يحدث عما تقلب فى أعطافه من رعاية «توفيق» وحدبه إذ أمره بألا يتجه إلى والده فى شىء من حاجاته ورغائبه وأن يتجه بها جميعا إليه

وكان من آثار شيوع الثقافة وانتشار التعليم والصحافة وسعة الحرية تلك الثورة العرابية التى هزت الأفكار وأيقظت القرائح والعقول

ومن شعراء تلك المرحلة «محمود صفوت الساعاتى» «والسيد على أبو النصر المنفلوطى» «والسيد صالح مجدى بك» «وعبد الله فكرى باشا» «والشيخ على الليثى» «وعثمان بك جلال»

المرحلة الثالثة

اقترن عهد « توفيق » بالثورة العرابيـة التى كانت أثرا من آثار الشعور بالكرامة الوطنية ، والنزوع إلى الحياة الكريمة ، وكان الاحتلال الإنجليزى بدا امتدت إلى الحرية فسلبتها ، وإلى العزة فجرحتها ، وإذ ذاك صرخت الدماء واشتعلت العزائم وهب الشعب المصرى ينادى بالحرية والحياة فطفق الأدباء والشعراء يعبرون عن نكبة الوطن بمختلف الأساليب ويصورون حال الشعب بفنون من القول ، ونزح كثير من المصريين إلى أوربة لطلب العلم بها والتحدث عن قضية مصر فيها ، فنجم عن ذلك الاختلاط امتزاج فى الفكر والخيال كان مما ساعد على بلوغ هذه النهضة

وكان لهذا الاحتلال السياسى أثره فى نفوس الأدباء والشعراء فصوروا هذه الكارثة السياسية وحضوا على الجهاد والتحرر ما ساعفهم المجال وأصبحت السياسة غرضا جديدا من أغراض الشعر يتوخاه كل شاعر حسبما تسمح ملابساته وشئونه ، والتفتوا إلى ماضيهم الخالد ينشرون مجده ويعرضون منه صفحات عساها تحفز الهمم لتصل الحاضر بالماضى

وكان « للبارودى » أبلغ الأثر فى توجيه النهضة الشعرية فى هـذا العصر فراح الشعراء يجرون على طريقته ، ويترسمون سبيله ويتوخون محاكاته فعكفوا على شعر الفحول من شعراء العرب فى الجاهلية والإسلام واستظهروا ما راق وطاب ، فتهيأت لهم ملكات سليمة ، وطباع طيعة (وجرى الشعر جزلا شريف اللفظ مشرق الديباجة متلاحم النسج ، رصين القافية)[1]

وبدأ الشعراء يهجرون الطلاء اللفظى ويجافون الزخرف والمحسنات ، لا يعملون فيها فكرا ولا يبذلون لتحصيلها جهدا ، إلا إن واتتهم عفوا ووفدت إليهم دون استكراه ، وأصبح الشعراء على الإجمال يستنكفون من القيود التى كان سلفهم مقيدين بها من حيث الاستهلال والتخلص

---

(١) المفصل ج ٢ ص ٣٤٠

والجناس وصاروا إذا اهتموا بمديح أو رثاء أو غزل أو حكمة بدأوا بها رأسا وإن كان كثير منهم لا يزالون يتحدون أساليب القدماء [1]

أما معانى الشعر فقد زادت جدتها واتسع أفقها بما تيسر لها من مظاهر جديدة ونهضة محدثة وأدب أجنبى يفسح فى الثقافة ويزيد فى ألوانها ويمد فى خيالاتها ، كل هذا كان نبعا صافيا نهل منه الشعراء فأغناهم عن مجاراة الأقدمين فى بكاء الأطلال والديار والحنين إلى الظباء والعيس ، فأصبحوا يصفون ما جد من المخترعات وما استحدث من العلم وابتدع من الفنون

وقد حفلت هذه الفترة بالشعراء الفحول الذين رفعوا مكانة الشعر وردوا إليه حياته وجماله من أمثال « محمود سامى البارودى » « وأحمد شوقى » « وحافظ ابراهيم » « وحفنى ناصف » « ومحمد عبد المطلب »

* * *

التجديد فى الشعر

كان من الطبعى أن يساير الشعراء روح العصر وأن يتأثروا بالحضارة الحديثة التى وافتهم من الغرب فيجددوا فى أفكار الشعر وأساليبه وخيالاته وطرق تصويره ، ويجانبوا الغموض والتعقيد ، ويعالجوا وصف المخترعات المحدثة والحياة الجديدة ، ويتوخوا المعانى فيجعلوها موضع احتفالهم ، والأغراض فتدور على شرحها والتعبير عنها أفكارهم ، دون كلف باللفظ أو ولوع بالطلاء

وكان من الشعراء المصريين فى هذا العصر من بلغوا فى هذا الشأن مبلغا سما به الشعر والشعراء ، فكانوا مثلا كريما للشعراء الذين جمعوا إلى جزالة القديم ورصانته تطور الحديث فى كل مظاهره ، وكان منهم جمهرة يعقد عليهم الأمل ويناط بهم الرجاء من أمثال « شوقى وحافظ واسماعيل صبرى » لولا

(١) تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٢٢٦

أن الموت استأثر بهم فقام من بعدهم فريق من الشعراء يهتدى مرة ويضل أخرى ، وتستقيم له الطريق حينا وتلتوى به آخر

وكان من آثار النهضة الجديدة فى الشعر أن التفت كثير من الشعراء عن العكوف على طريقة العرب القديمة فلجأوا إلى السهولة ومجاراة العصر فى الوصف وتصوير الحضارات الطارفة ، واستعملوا فى شعرهم مايتصل بشئون العصر من تعبير أو تفكير أو خيال أو غرض ، غير أن بعض الشعراء لا يزالون يتحدثون عن الأطلال والدمن والأربع الخوالى ، والناقة والبيداء ، والعرار وصبا نجد ، وكأنهم لم يجدوا من بيئتهم الخصبة بخيالاتها ومشاهدها وصور الحياة فيها ما يشغلهم ويكون مجالا لتفكيرهم وأداة لخيالهم ومناطا لتصويرهم ، وكأنهم يعيشون فى عصر غير عصرهم ويحدثون قوما لا صلة لهم بهم فى الشعور والتصوير

نحب تراثنا العربى المجيد ونود أن نفاخر به فى كل حين وأن يستزيد الشعراء من استظهار هذه الثروة الخصبة ليستمدوا منها القوة والجزالة ويستعينوا بها على تقوية الملكات وتنمية القرائح ، لكن على أن يعين ذلك كله الشعراء على تأدية رسالتهم فى هذه الحياة فيوائموا العصر ويساوقوا الشعور وإلا عاش الحاضر بماضى الآباء والأجداد ، وعقم المعاصر عن إيجاد نهضة شعرية تكون للأدب حياة وللشعراء مجدا

وهناك فريق من شعراء مصر انصرفوا عن القديم برمته ،وأغضوا عن كل ما أعقبه الماضى من ثروة ، وهاموا بالجديد وانفضوا عن القديم لأنه قديم ، كأن الجدة وحدها هى البريق الذى يخطف أبصارهم ، نأى هؤلاء عن الشعر العربى القديم ، وتخلوا عن أساليبه ففاتتهم جزالة النسج وأخطأوا النهج الواضح وضلوا الأسلوب الرصين وأصبحوا فراغا من القديم والجديد معا لأن ما وافاهم من الجديد لم يكن إلا تخبطا وعثارا وما كان هذا المسلك منهم إلا عيا فى الملكات ، وجمودا فى القرائح ، والموهوبون من الشعراء الفحول من يجمعون بين جزالة القديم وروعته وجدة المحدث وطرافته ..

وانك لتجزع لما يطالعك من شعر هؤلاء من خيال سقيم وغرض تافه وإدعاء ممقوت ، ومعنى سمج ، وفكر ناب،وقد ملأوا الدنيا ضجيجا ومفاخرة بدواوينهم الغثة التى يخلعون عليها ألقاب المجد ونباهة الشأن ورفعة المنزلة ، مدعين أنها دراسات فنية دقيقة وتصويرات رائعة رقيقة ، وانها الهامات من لدن الوحى الصادق والعبقرية الملهمة

وأول ما تشاهده فى هذه الدواوين بوجه عام ذلك التنوق الظاهر فى إختيار الأسماء وإختلاق الألقاب للدواوين والأشعار فانك تجد فيها (الينبوع والشفق الباكى واللحن الضائع والغمام الحائر والأعشاب ، وتجد بين أسماء القصائد والمقطوعات الحزن الوديع ، وزهر الحب ،واللهفة الخالدة والبسمة الحزينة ، وحلم العذارى وأنشودة الهاجر) وهى ترجمة لبعض ما يترامون عليه ويدعون دراسته والمعرفة برجاله من الأدب الأجنبى مما يصح أن يشعرك أيضاً بإتهامهم لأدبهم حتى احتاجوا إلى تزيينه بمثل الكلمات المجلوبة والألقاب المموهة (١)

هذه هى الألقاب التى يفتنون فى اطلاقها على دواوينهم وقصائدهم ومقطوعاتهم وذلك هو مظهر التجديد عندهم ، على حين أن شعرهم من المعانى الخصبة والأغراض الكريمة خواء

* * *

(١) الأستاذ محمد هاشم عطية من بحث فى صحيفة دار العلوم العدد الثانى من السنة الأولى .

شعراء الأزهر والتجديد فى الشعر

ومن التجديد المثمر الذى أدخل على الشعر العربى فى العصر الحديث ما فعله الشيخ « رفاعه رافع الطهطاوى » أحد زعماء النهضة الأدبية والعلمية فى هذا العصر ، فإنه لما عاد من بعثه إلى « باريس » حاول إدخال نوع جديد فى الشعر المصرى إذ كان قد تعلم الفرنسية وآدابها وأراد محاكاة بعض الشعراء هناك ، وكان من أول آثره فى ذلك أن نقل قصيدة « المارسيليز » التى هى نشيد فرنسا القومى إلى العربية فى شعر تصرف فيه بعض التصرف حيث قال : ـ

فهيا يا بنى الأوطان هيا ⠀⠀ فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا ⠀⠀ وشنوا غارة الهيجا مليا
عليكم بالسلام أيا أهالى ⠀⠀ ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال ⠀⠀ فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودكم غدا فيكم جليا
فماذا تبتغى منا الجنود ⠀⠀ وهم جمع وأخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود ⠀⠀ كذاك ملوك بغى لم يسودا
تعصبهم لنا لم يجد شيئا

الخ

وقد جرى على هذا النهج فى إنشاء أناشيد وطنية مصرية ومدائح لحكام مصر مزجها بذكر مجد البلاد ، ومن ذلك منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٢٧ من الهجرة قال فيها يمدح « سعيد باشا » الخديو

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح ⠀⠀ وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل ⠀⠀ حسب عريق زانه مجد أثيل

ونخارنا فى الكون جل عن المثيل

بشرى لمصر . . . .

نحن السراة وشأننا حب الوطن ولشأننا السامى نزاحم من قطن

شانى حمانا ليس من أهل الفطن فهو الدعى وعرضه شرعا مباح

بشرى لمصر . . . .

وطن عزيز لا يهان ولا يضام وحمى تعزز من علا علياه حام

مجد له لا زال يخترق الغمام عين السها لفخاره ذات التمام

بشرى لمصر . . . .

الخ

فكان الشيخ « رفاعة » من المجددين فى الشعر على هذا النمط .

وكان صاحب الفضل فى إضافة هذا اللون من الشعر الذى يمثل الحياة المصرية من بعض وجوهها

لقد غرس « رفاعة » فى الشعر الحديث هـــذا الغرض الذى كان نواة للأناشيد القومية التى تودع كل معانى الحماسة والغيرة على الوطن والتى هى رمز لكفاح الدولة .

وكان من تجديد الأزهريين فى الشعر الحديث أيضاً ما اقتدر عليه المرحوم « السيد عبد الله نديم » من اخضاع الزجل لمعانى الشعر الرفيعـــة وإيداعه خيالاته الرائعة وألوان الأدب فى شتى صورها — واستخدامه الزجل فى توجيه الشعب وتقويم الأمة ودعوتها للنهوض سياسيا وخلقيا واجتماعيا

* * *

الثورة على الأوزان الشعرية

ومما جنح إليه كثير من الشعراء المحدثين الثورة على الأوزان الشعرية زاعمين أن التزام وزن واحد وقافيـــة واحدة يصدعن الإطالة ويعوق دون إحداث الملاحم فى الشعر العربى ، وقد أطلقوا على القصيدة التى تجمع أوزانا مختلفة « مجمع البحور » والتى تضم أكثر من قافية « الشعر المرسل » ولست ولست أعرف لمذهبهم هذا من سبب ولا لثورتهم تلك من علة ، الا عجزهم عن الإطالة واعياء نفسهم عن الاسترسال وضعف معينهم الشعرى عن الإفاضة والتدفق فيما اتحد نغمة ولحنا

وقد كان من أثر ذلك أن اختلت نغمة الشعر واضطربت ألحانه ، ومجتها الأسماع ولو أن هؤلاء الشعراء قنعوا بما استحدث من الأنواع التى يستريح الشاعر فيهـا من التزام القافية كالموشح والمزدوج والمسمط التى اخترعت من قبل لحفظوا جمال الشعر وأبقوا على روعته

نعم ان المرحوم « شوقى بك » ارتضى لنفسه الجمع بين الأوزان المختلفة والتنقل من بحر الى بحر فى رواياته الشعرية ، ولـكن ذلك مذهب فى الشعر سائغ لا ينـكسر إذ أن « شوقى » لم يعمد إلى ذلك عن تقاصر منه أو إعياء وهو صاحب المطولات التى تطول وتطول حتى يخيل إليك أن صاحبها لايفرغ منها وهو فى آخرها كأولها قوة وصفاء لفظ واشراق ديباجة ، ولـكنه عمد إلى ذلك فى رواياته التمثيلية التى هى أداة التسلية ومجال التلهى ، ومن شأن ما هو كذلك أن لا يكون على الطول الممل والاسهاب المسئم

على أن « لشوقى » مندوحة فى هذا الصنيع إذ أن الروايات انما تقوم على ألسنة مختلفة ، وأبطال متعددة ، ولـكل منهم أن ينشد على وزن غير ما ينشد عليه الآخر وأن يغاير بقافية غير قافيته

والذى نراه صالحا ومحققا لما يريد المحدثون من استطاعة نظم الملاحم والقصص الطويل هو أن يجعل الشاعر ملحمته أو قصته فصولا وأبوابا يختار لكل فصل أو باب الوزن والقافية المناسبين له ، وبذلك يجمع بين صيانة القصيد العربى وما يريد من طول النفس ويكون كل فصل من قصته قصيدة واحدة بوزنها (١)

(١) الأستاذ محمود مصطفى فى مذكرته فى الادب فى العصر الحاضر صفحة رقم ٤٠٨

نظر علماء الأزهر إلى الشعر

رسالة الأزهريين دينية خلقية، ينشرون دين الله فى الأرض، ويحضون على الفضائل جهدهم، ويدعون إلى مكارم الأخلاق بكل أسلوب، ومن ثم كان طابعهم الجلال وسمتهم الزماتة والوقار، وحديثهم النقى العفيف، يحرصون كل الحرص على أن يكون شعرهم بعيداً من الفحش لإمامتهم فى الناس، ويجهدون أنفسهم فى مجانبة مالا يتفق مع هذه النزعة أو يجافى ذلك الاتجاه.

وفى هذا الأفق ينظر علماء الأزهر إلى الشعر، وبهذه المثابة يرون رأيهم فيه، فلم يكن من الجائز فى نظرهم أن يسرفوا فى قول الشعر هجاء وملاحاة، أو يمنعوا فى قرضه خوضا فى عرض. أو تأريثا لعداوة، ولم يعهد فيهم أن يقولوا الشعر لايتحرزون فيه عن ذكر الغافلات المقصورات فى خدورهن، ورأوا من كرامة العلماء أن يعفوا عن المبالغة فى المدح والاطراء والتدلى إلى الكذب والتجنى على الناس وإذا حاموا حول ذلك فى شعرهم فبقصد واعتدال دون إغراق ولا مغالاة، وهذا الشعور من العلماء، وتلك النظرة منهم إلى الشعر كانت جناية فى كثير من الأحيان على كثير من فنون الشعر وأغراضه، فقد أنفوا أن تفيض شاعريتهم فى ألوان مختلفة تهتز لها الأسماع وتخفق لها القلوب. فكان ذلك مضعفا لشعرهم فوق ماضعف به من ضيق خيالهم وأفقهم المحدود الذى يعيشون فيه.

والشعر فى رأى الشاعر الذى لا يتزمت ولا يتعفف خيال وتصوير وافتنان لاتحرج ولا تصون فيه، وأعذبه فى رأيه أكذبه كما يقولون، ولكنه عندهم فى هذا المتجه مجافاة لرسالتهم وزراية بمكانتهم، وذلك هو الذى حمل العلماء على أن يطووا صفحة فيها مجون وطرب، وفيها خفة وغزل، وألا ينشروا

من ذلك إلا الهين المقتصد ، وذلك هو الذى حضهم على أن يخفوا عن الناس شعرا أو دعوه مكنون صدورهم ومجلى أخيلتهم وخفقة أفئدتهم . وجعلهم يشعرون بأن من الشعر ما هو عورات يجب أن تستر ، واستهتار لا ينبغى أن يظهر .

وهذا هو « السيد عبد الله نديم » الأزهرى الخطيب الكاتب الشاعر تبحث عن شعره الذى تدفقت به شاعريته الفياضة فلا تهتدى إلا الى غيض من فيض وقل من كثر حدث الأستاذ « احمد سمير المترجم له فى صدر مختاراته المعروفة « بسلافة النـــديم » أن له ديوانين منظومين يشتملان على سبعة آلاف بيت .

ويقول فى تصديره للسلافة (ولما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محررا يكلفنى به أن أطلب « ديوان شعره الصغير » من صديقه المرحوم « عبدالعزيز بك حافظ » فلما قصدته وجدته مصابا فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا ثم كتب إلى ثانيا بأن ديوانه الأوسط عند « م . بك . ف » فطلبته منه فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل الى فى مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهمـا ومن أمثالها لأن فيهمـا هجوا كثيرا ، وختم المكتوب بهذه العبارة (وقد خلعت تلك الثياب الدنسة وليست ثوب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

ذلك هو رأى أحد علماء الأزهر فى الشعر ، وتلك هى نظرته له فالهجاء فى نظره رجس والملاحاة فى رأيه ثوب من الدنس ، ومن ثم فهو يريد أن يحرق هذا الشعر وأن يجعل هذه الثروة القيمة حطبا للتاركى يذهب الله عنه الرجس ويطهره تطهيرا

وهذا شاعر آخر من شعراء الأزهر الفحول وهو المرحوم « الشيخ على الليثى » يلعن من يطبع ديوانه المخطوط المحفوظ ، لأنه يخشى حسابه على ما أودعه من قول يزعم أن فيـه منافاة للورع والتقية

ولعلى لم أسمع أن شاعرا آخر معاصرا غير أزهرى طاوعته نفسه أن يحرق شعره لأن فيه هجرا وملاحاة مهما كان شعره من الغثاثة والضعف والانحلال طلبا للتطهير وبعدا من الرجس والدنس ، ولعلى أيضا لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهرى لعن من يطبع ديوانه المخطوط المحفوظ لسبب من الأسباب

بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يقيمون حول شعرهم ضجة هائلة من الدعاية والترويج ويجتهدون فى طبع شعرهم محتالين على أرباب اليراعات أن يقدموا دواوينهم بعبارات التقريظ والإطراء المبالغين ، بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يسعون لدى الشفعاء أن يتوسطوا لطبع شعرهم وعساهم ألا يقتصروا على طبع الشعر بل يقدموا لكل قصيدة بصورة رمزية تمثل فتاة عارية أو صبيا ضارعا أو منظرا مسرفا فى فحشه وخلاعته ، ويرى الأستاذ العقاد أن القدوة عند شعراء الأزهر فى هذا المذهب ما روى عن الإمام الشافعى إذ يقول : ـ

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد[1]

وقد يكون القدوة عندهم فى ذلك ما حكم الدين به على الشعر فهم يعلمون أن الإسلام إنما جاء بالجد الذى يحض على الثواب فى الآخرة ويحرم على المسلمين فضلا عن علمائهم الكذب فى القول وإشاعة الفاحشة وقذف المحصنات والحديث عن الخمر والمحرمات والولوع فى الأغراض وتأريث العداوات .

وهم يعلمون أن الله نزه محمدا صلى الله عليه وسلم عن الشعر فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وأن الله ذم الشعراء بقوله (والشعراء يتبعهم الغاوون) وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلىء جوف

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ عباس العقاد ص ٩٠ .

احدكم قيحاً فيريه خير له من أن يمتلىء شعرا

وهم يعلمون أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر حكما » وأنه خلع على كعب بن زهير بردته التى اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم وتوارثها الخلفاء من بعـــده يلبسونها فى الجمع والأعياد .

وأنه كان يكثر من استنشاد الخنساء فى رثاء أخيها صخر ويقول « هيه ياخناس » وأنه دعا إلى الشعر واستعان به فى دعوته واتخذ حسان شاعرا له ينافح عنه وكان يقول له « شن الغارة على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام » وأنه استحسن شعر النابغة الجعدى ودعا له وذلك حيث يقول النابغة « أنشدت رسول الله عليه وسلم قولى

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » فقلت الجنة يا رسول الله ، فقال أجل إن شاء الله . ثم قال انشدنى — فأنشدته قولى

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر (٢) تحمى صفوه ان يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اجدت لا يفضض الله فاك » قال الراوى فنظرت إليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلت (٣) ترف غروبه (٤)

---

(١) وروى القيح جوفه كوعى أفسده ، وروى فلان فلانا أصاب رئته

(٢) بوادر جمع بادرة وهى الحدة أو ما يبدر من الإنسان عند الحدة من الخفة الى الانتقام بالقول أو الفعل

(٣) انفلت انثلمت — ترف تبرق وتلمع — غروب الأسنان ماؤها وظلمها

(٤) دلائل الاعجاز ص ١٨

كما يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أثابه ودعا له ، وأن الشعراء أنشدوا بين يديه واهتز لما أنشدوه ، فهذه هي قتيلة أخت النضر بن الحارث الذي كان غاليا في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويلقن فتيان قريش الشعر في هجائهم أسره النبي في بدر وقتله فجاءته أخته وأنشدته :ـ

يا راكبا إن الأثيل مظنة — من صبح خامسة وأنت موفق (١)

أبلغ به ميتا بأن تحية — ما إن تزال بها النجائب تخفق (٢)

مني إليك وعبرة مسفوحة — جادت بواكفها وأخرى تخنق (٣)

هل يسمعني النضر إن ناديته — أم كيف يسمع ميت لا ينطق (٤)

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه — لله ارحام هناك تشقق (٥)

صبرا يقاد إلى المنية متعبا — رسف المقيد وهو عان موثق (٦)

أمحمد ولدتك خير نجيبة — في قومها والفحل فحل معرق (٧)

ما كان ضرك لو مننت وربما — من الفتى وهو المغيظ المحنق (٨)

فالنضر أقرب من قتلت قرابة — وأحقهم إن كان عتق يعتق

لو كنت قابل فدية لفديته — بأعز ما يغلي به من ينفق (٩)

---

(١) الأثيل واد قرب بدر وهو الموضع الذي دفن به خوها أ

(٢) تخفق كتضرب ـ تسرع

(٣) وكف المطر والدمع سال

(٤) أم للأضراب ـ أي بل إنه لا يسمع لأنه لا ينطق

(٥) تنوشه ـ تتناوله

(٦) يقال قتله صبرا ـ وصبر الإنسان على القتل أن يحبس ويرمى حتى يموت ، العاني الأسير الموثق المقيد بالوثاق

(٧) الفحل ـ كناية عن الأب ، والمعرق الأصيل

(٨) المحنق ـ المغتاظ من أحنقه إذا أغاظه

(٩) غلا بالشيء وغالى به ـ طلب فيه ثمنا غاليا أو اشتراه كذلك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه »

وهم قد عرفوا أيضا أن كثيرا من شعراء الإسلام أنشدوا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم غزلا ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير إذ يقول

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول (١)

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغن غضيض الطرف مكحول (٢)

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت

كأنه منهل بالراح معلول (٣)

كما عرفوا أن الخلفاء ارتاحوا للشعر واهتزوا له وحضوا على الحرص عليه وتأديب النشء به ، فهذا عمر بن الخطاب يقول رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب

ويروى أن السيدة عائشة كانت تحفظ شعر لبيد وتقول « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم » بل كانوا يجدون تعلمه ضروريا لتفهم القرآن ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إذا قرأتم شيئا فى كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب »

---

(١) المتبول ـ من تبله الحب إذا أضناه وأفسده أو ذهب بلبه وعقله ، والمتيم المذلل المعبد ، والمغلول من وضع الغل فى عنقه وفى رواية مكبول وهو المقيد بالكبل أى القيد

(٢) الأغن الذى يتكلم من قبل خياشيمه . غضيض الطرف من غضه إذا خفضه

(٣) العوارض جمع عارضة وهى السن التى فى عرض الفم ، الظلم شدة صفاء منون الإنسان المنهل ، النهل حركة أول الشرب والمنهل المشرب والشرب والمنزل يكون بالمفازة ، معلول ـ العلل حركة الشربة الثانية او الشرب بعد الشرب تباعا

هؤلاء العلماء عرفوا ذلك كله فيما توافد إليهم من التاريخ والأدب فهم يعرفون أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر وموقف الخلفاء منه لم يكن بغضا كله ولا حبا كله ، لم يرتاحوا للشعر فى كل حال ، ولم ينكروه وينفضوا عنه فى كل حال ، بل اهتزوا لما دعا منه لنصرة الدين ومكارم الأخلاق وحض على المروءة والوفاء والنجدة والأخذ بأسباب الفضائل ، وارتاحوا لما كان غزلا عفيفا وهوى بريئا لا يفضح النساء ولا يكشف عن العورات ولا يتصل بالأعراض ، بل يرمى إلى نبل الغاية وبراءة الهوى وعفة القصد ولا يراد منه امرأة خاصة يكون الحديث عنها قذفا وإفحاشا .

اهتزوا لهذا كله ولكنهم لم يستمعوا للشعر المفحش ، ولم يطربوا لما تدلى الى ضعة الأخلاق ودناءة الأغراض .

فعلماء الأزهر الذين هم ورثة الأنبياء والقائمون على دين الله سلكوا طريق الشعر على هذا النهج ، وأباحوا منه لأنفسهم ما أباحه الإسلام ، وحرموا منه على أنفسهم ما حرمه الدين ، فنظرهم إلى الشعر فيه تقية وتورع ، ومن ثم خلا شعرهم غالبا عما ينافى هذه المبادىء ، ويحيد به عن الجادة .

ومن كانت رسالته بهذه المثابة ، ومكانته على هذا الوضع ونظرته فى هذا الأفق لا يسمح لنفسه أن يشبب فيفحش ، أو يهجو فيقذع ، أو يمدح فيتضع أو يمعن فى الحديث عن المحرمات والمجاهرة بالدعوة إلى الخمر ، وهو العليم بأن ذلك تأثم واستهتار ، فإن استجابت نفس بعض منهم لدواعى الشعر وترنحت أعطافه بهوى ذلك الفن وانساق فى شعره مساق غيره من غير المتحرزين فإنما يخفى ما يقوله ويكتمه عن الناس ، وما ذلك فيهم الا أقل من القليل .

وانى لأسائل نفسى هل كان شعراء الأزهر من فطرة غير فطر الناس ، وهل خرجوا عن طبيعة البشر فكان لهم احساس خاص ؟ هل يجمدون

حيث ترق العواطف ، وينقبضون إذ ينطلق المحيا ، ويعبسون للجمال إذا ابتسم له فم الزمان ؟ هل مكنوا من الحواس والمشاعر فحرموها حسن التعبير وعاشوا بها دون شرح وتصوير ؟ هل حبسوا الخيال أن يطير فى مجاليه ، والقلب فلم يخفق بحب من يستهويه ؟

أنا أفهم أن فريقا من شعراء الأزهر أحنقهم بعض الناس فامتلأت نفوسهم بغضا له فهجوه وصوروا بغضهم فى شعر لاذع وهجر مرير ، ومنهم من أحب من يجدر بحبه وإجلاله ، فأفاض فى شرح مكارمه وتصوير خلاله وخلع عليه من ألقاب الرفعة وحلل الكمال ما يشاء الشعراء ، ومنهم من ترنحت عواطفه لمعانى الجمال وخفق فؤاده لإشراق القسمات ونور المحيا ، وحومت روحه حول الخرد الغيد والظباء الكنس ، وعبر عن ذلك بصور من شعره وألوان من فنه ـ لم يكونوا جمادا ولا تماثيل ولم تكن لهم قلوب من الحجارة ، ولا عواطف من غير عواطف الناس ، هم أحبوا كما يحب كل إنسان ، وهووا كما تهوى كل روح ، وائتلفوا مع بعض الخلائق كما يأتلف كل خليل مع خليله ، ولكن حبهم حب فضيلة ونبل ، وهواهم هوى عفة وشرف وغزلهم غزل كمال محتشم ، وصبابة مخدرة ، يتخيلونه فى مطلع القصائد حينا ويعبرون به عن شعورهم حينا آخر

ولقد كان العلماء الشعراء فى حيرة من أمرهم ، فدينهم يدفعهم إلى التوقر وعواطفهم تحضهم على الغزل والتشبيب ، وحياة أمثالهم « تتطلب تجاهل الحب وعدم الانسياق فيه وغض النظر وكبت النفس وترك ذلك لأهل الخلاعة » ، ولكن ما جريرتهم « وليس مرد العشق إلى الرأى فيملك ، ولا إلى العقل فيدرك ، إنما هو كما قال الشاعر

ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ... ى ولا بالقياس والتدبير
إنما الأمر فى الهوى خطرات ... محدثات الأمور بعد الأمور

لا تدرك الأبصار مداخله ، ولا تعي القلوب مسالكه ، وهو كما قال

القائل — إن لم يكن طرفا من الجنون فهو عصارة من السحر — فسواء أكان صاحبه فقيها أم دينا ورعاً أم داعرا فاجرا فهو إذا مس قلبه صرعه وأذله

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة   إذا شئت لمساً للثريا لمستها

أتتني سهام من لحاظ فأرشقت   بقلبي ولو أسطيع ردا رددتها(١)

ومن ثم لم يكن لهم بد على رغم تدينهم من تصوير عواطفهم وشرح وجدانهم بالشعر ولكن لم يظهر من شعرهم الغزلي في أغلب الأمر إلا ما نقيت صفحته وطهر غرضه وشرف مغزاه، وعسى أن يكون من ذلك ما يقوله «عبد الله باشا فكرى» أحد شعراء الأزهر ممثلا إلى حد كبير براءة شعره الغزلي ومجانبة الإفحاش والإسراف وذلك حيث يقول :-

ما أحيلى يوم اجتمعنا بروض   أوردتنا ظلا ظليلا غصونه

كان فيه الرقيب غير قريب   والزمان الخئون نامت عيونه

فهجرنا مر المدامة فيه   بحديث مستعذب مضمونه

إن في سكرنا من اللفظ واللحـ   ـظ غناء عما تدير يمينه

فقد تهيأ له لقاء الحبيب في الروض الناضر وظل غصونه الظليل، وليست عين الرقيب قريبة فترى ما عساه أن يكون بين المحب وحبيبه من لهو الهوى وعبث الغرام، ولكنه كان في صون وتحرز وهجر «مر المدامة» إلى عذب حديثه وآثر «السكر» من لفظه ولحظه على سكر الكأس تديرها يمينه.

«وعبد الله فكرى باشا» هو الذي يحدث في شعره بأن أسباب الفتنة توانت له وتيسرت له بالمحب مفاتن تغرى النفس، ومباهج تنحل معها أواصر العفة والتصون ولكنه لم يجاف الشرف، ولم ينأ عن التعفف، وذلك حيث يقول :-

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد أمين بك في مجلة الثقافة عدد ٣٦٤ بعنوان «إمامان فقيهان عاشقان» هما «محمد بن دوار الظاهري وعلي بن حزم»

فقالت وقد مال الكرى بقوامها ... كما مال بالنشوان صرف من الخمر
وماست تزجى ردفها فى مورد ... من اللاذ قد وشته بالدر والتبر (١)
وتمسح عن أجفانها النوم سحرة ... فيرفض عنها كل فن من السحر (٢)
وبتنا كما شاء الهوى فى صيانة ... وعفة ثوب لم يزر على وزر

وهذا هو «رفاعة رافع الطهطاوى» أحد علماء الأزهر وشعرائه يمثل عفة العلماء وقناعتهم فى الملذات ويمر مر الكرام بما يطيل الشعراء الوقوف عنده وتسريح النظر فيه وذلك حيث يقول :-

قد قلت لما بدا والكأس فى يده
وجوهر الخمر فيه شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه
ونشوتى من معانى سحر عينيه

فهو يقنع بنزاهة طرفه فى محاسن محبوبه عن التمتع بهذه المحاسن فلا يقبل فما ولا يهصر عودا ، ولا يذهب مذاهب العشاق ، من الضم والعناق ، ويغنيه من حبيبه النظر إلى مواطن جماله ، والنشوة بمغانى سحر عينيه عن كل ما يلتمس سواه من لذة ومتاع

وهذا هو «عبد الله فكرى باشا» الذى يعف فى الهجاء ويتدلى إلى الملاحاة ويذهب مذهب القصد والاعتدال فيتحرج من الإسفاف فى الهجاء والإقذاع فيه ، انظر إليه إذ يقول :-

رمانى بهجر القول لا دردره
ولو رمت هجر القول لم يستطع فى

---

(١) اللاذ جمع لاذة وهى ثوب حرير أحمر صينى — وشى الثوب نمنمه ونقشه وحسنه

(٢) السحرة بالضم السحر الأعلى

ولو شئت حكمت القوافى بيننا بماضى شباة القول فيهم مصمم (١)
ولكننى أنهى اللسان عن الخنا وألوى عنان الأعوجى المقوم (٢)
سأضرب صفح القول عنهم نزاهة
وأطويه طى الأتحمى المسهم

وهذا مذهب فيه تقية وتورع وصون « للسان عن الهجر والإفحاش حتى لو رام هجر القول لأباه فمه على رغم أن القوافى ماضية كالسيف

«وعبد الله فكرى» أيضا يضرب أبلغ الأمثال فى صون قريضه عن مدح من لا يجدر بمدحه ، وهو يمثل مذهب العلماء الشعراء فى التسامى بشعرهم عن مدح من هان شأنه من الناس ، والضن بالإطراء على غير من هو أهل لإطرائه فهو يقول

ولذت بأعطاف القريض وطالما
رميت .ذراه بالقلا والتجهم
ولكننى أرويه عن غير أهله وأهديه مدحا للخديو المعظم

كما يمثل مذهبهم أيضا فى صدق الشعر والنأى به عن الكذب والنفاق ، وقصره على ما الحب داع من دواعيه

فخر القصائد أنى لست أنظمها
إلا وللحب داع من دواعيها

---

(١) شباة كل شىء حده ، والجمع شبا وشبوات . صمم فى الأمر تصميما مضى كصمصم وعض ونهب والسيف أصاب المفصل وقطعه أو طبق .
(٢) (الأعوج السىء الخلق) وبلا لام فرس لبنى هلال تنسب إليه الأعوجيات
(٣) الأتحمى — برد معرف — المسهم لمعظم البرد المخطط .

ولا تجافيت عنها قبــل من حصر
بحمد ربى ولا ضنت قوافيهــا
لـكنها نفس حر لا تهم بما لا يستوى فيـه باديها وخافيها

وعسى أن تجد بعض هؤلاء الشعراء يمدح من هان شأنه من الناس ، ويهدى قصيده لمن هو غير أهـل لمدحه ، ولـكن ذلك من بواعث الحاجة ودوافع الحياة التى تتجاوز معها هذه المعانى وتدفعهم إلى تقحمها دفعا .



الصبغة العامة فى شعر الأزهريين

لشعر الأزهريين طابع يسوده ، وصبغة تتمثل فيه ، تطالع من يبحث فى دواوينهم ويمعن النظر فى شعرهم

ولما كانت الحياة العلمية هى التى شغلتهم واستنفدت جهدهم رأيناهم قد تأثروا بالعلم فى أسلوبه وتعبيره ونضجت أقلامهم بهـذه النزعة العلمية ، واستعملوا ألفاظها فى تصوير خيالهم الشعرى ، كل حسب ما تأثر به من نحو أو صرف أو بيان أو منطق أو فلسفة أو فقه أو غير ذلك مما شغلوا به متفاوتين فى هذا التأثر

وكان ظهور هذه الأساليب والمصطلحات العلمية فى شعرهم طبعيا لأنها ملكت عليهم قواهم ، وكانت حـديث ألسنتهم ومجال دراستهم وأداة ثقافتهم ، فلم يكن من المستطاع لهم أن يتخلوا عنها مهما جهدوا ولا أن يتحرروا منها التحرر كله مهما حاولوا ذلك

شاعت الألفاظ العلمية فى شعرهم وظهرت فى قصائدهو فذهبت بغير قليل من جمال الشعر وبهائه وروعته وروائه فإن الألفاظ العلمية جافةغليظة لا تعطيك من الروعة والأخذ وحسن الموقع ما تجده من الألفاظ الشعرية الرقيقةالعذبة ، وقـد يكون لنضوب معينهم الشعرى ، وجدب خيالهم وافتقارهم من المعانى ما دفعهم إلى التحلى بهذه الألفاظ بجانب تأثرهم بها ظنا منهم أن فى تناولها دليلا على قدرتهم وتمهرهم ، على أنهذه النزعة سرت إليهم من شعراء المماليك فقـد كانوا مغرقين فى إدخال المصطلحات العلمية فى شعرهم

هذا وقد حرر « ابن خلدون » فى ذلك بحثا ممتعا ذهب فيه إلى أن (الفقهاء وأهل العلوم قاصرون فى البلاغة وما ذلك الا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة

والنازلة عن الطبقة لأن العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها فى البلاغة . فاذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور)

ويقول (وأخبرنى صاحبنا الفاضل « أبو القاسم بن رضوان » قال — ذكرت يوما صاحبنا « أبا العباس بن شعيب » كاتب السلطان « أبى الحسن » وكان المقدم فى البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالأطلال　　ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لى على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت ومن أين لك ذلك ؟ فقال من قوله ما الفرق إذ هى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب . فقلت لله أبوك إنه ابن النحوى[1]

وإنا نسوق أمثلة من شعرهم ناطقة بصحة هذه الدعوى

يقول الشيخ « حسن قويدر الخليلى » :

خاطرت لما أن رأيته خطر　　وحار فكرى فى بها ذاك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر　　ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندى بالقياس بدرى

فكلمة (بالقياس) من مصطلحات علم المنطق استعملها الشاعر فى شعره وهو الذى يقول أيضا :

والنوفر الرطب يقول جسمى　　كجسمه فى حده والرسم
لكننى مخالف فى الاسم　　من أجل هذا حكموا بوسمى
وغرقونى وسط هذا البحر

فكلمة « الحد والرسم » من أدوات علم المنطق عدا ما أشار إليه الشاعر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٨

من قياس لخلاصة المعنى تشير إلى تركيب الكلام تركيبا منطقيا على طريقة القياس الذى صغراه الشطران الاولان أى جسمى يماثله فى الحد والرسم وكبراه مطوية قائلة — وكل ما يماثله حدا ورسما يغرق فى البحر ، والنتيجة المشار اليها بالشطر الأخير قائلة — فهذا النبات يغرق فى البحر ، ويقول الشيخ « مصطفى الصاوى » المتوفى سنة ١٢١٦ ﻫ

وغدا بنطق كماله يبدى لنا عين النتيجة ضمن شكل أنور

فالنتيجة والشكل كلاهما من مصطلحات علم المنطق

ويقول الشيخ « محمد شهاب الدين المصرى » فى قصيدته التى أنشأها لتكتب على جامع القلعة :

عروس كنوز قد تحلت بعسجد مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنى عالى قصورها بأبهج ياقوت وأبهى زمرد
أم المكرمات الآصفية أبدعت هيولى أعاجيب بصورة مسجد

ويقول أيضا :

شخص ولكن هيولى روحه ملك
وجسمه صورة فى شكل قديس

فكلمة « هيولى » المتكررة إنما هى من مصطلح علم الفلسفة

ويقول الشيخ « مصطفى الصاوى » :

نزلنا بهذا القصر والنيل تحته فلله قصر قد تعاظم بالمد

ورى بالقصر عن معنييه ضد المد وهو من مصطح علم الصرف والبيت العظيم كما ورى بالمد عن معنييه ضد القصر الذى هو من مصطلح علم الصرف وارتفاع الماء الذى هو ضد « الجزر »

ويقول « عبد الله فكرى باشا » :

جمعتهم الأقدار جمع سلامة والله فى أقداره مختار

فقد ورى « بجمع سلامة » عن معنييه جمع المذكر السالم الذى سلم بناء

مفرده من التغيير وهو من مصطلح الصرف ، وجمع السلامة من كل ما يسوء .

ويقول الشيخ « حسن العطار » :

كر القلب وما كان التقى فيه من حين هواه ساكنان

وقد أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

ياساكنا قلبى المعنى وليس فيه سواك ثان
بأى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان

ويقول الشيخ « حسن العطار » أيضاً :

وكيف أعـــبر عن حالة ضيرك منى بهـــا أعرف

فقد ورى فى البيتين بمصطلحات النحو

ويقول الشيخ « محمد شهاب الدين » المصرى مادحا « مصطفى بك المختار » مدير ديوان المدارس إذ ذاك :

رأيت (حالا مضى) (فعل) (أبرز) فى (شأنه) (الضمير)

فقد ورى بالكلمات (حالا) و (مضى) و (فعل) و (أبرز) و (شأنه) و (الضمير) عن معانيها النحوية .

وتدور فى شعرهم أيضا الألفاظ المصطلح عليها فى علم الحديث ، ومن ذلك ما يقوله الشيخ « مصطفى الصاوى »

(ويسند) (إرسال) السحاب لدمعه
(مسلسل) أحزان بوجد مجدد

فالكلمات (يسند) و (إرسال) و (مسلسل) مصطلح علم الحديث وألفاظه الشائعة فيه

ومن ألفاظ علم الحديث المستعملة فى شعرهم ما قاله الشيخ «محمد شهاب الدين» المصرى يمدح « ابراهيم رأفت بك » الذى كان وكيلا لديوان المدارس

إنى على دعوى الهوى والحب لى حجج قويه
وحديث أشواقى إليـــك مسلسل بالأولية

ويقول الشيخ « عبد الهادى نجا الأبيارى » :

فارفع حديثك فى ضعيف لحاظها يا عاذلى فحديث وجدى أرفع

وصحيح حبى مسند لضعيف جفنيها يعنعنه الهوى وينعنع[1] الأبيات الأربعة حافلة بالألفاظ الشائعة فى هذا العلم التى هى من مصطلحاته وتعبيره .

وتجرى فى شعرهم ألفاظ علوم البلاغة وتعبيراتها الخاصة بها كقول الشيخ « محمد شهاب الدين المصرى » :

ما لأيديه فى الحقيقة) شبه) إذ (مجاز) النوال فيهن (مرسل)

فالحقيقة والمجاز والمرسل من مصطلح علم البيان ويقول :

هو الفلك المحيط بكل معنى وفياض الفضائل فى الأنام

(بيان) حلى (معناه) (بديع) وسحر حديثه حكم الكلام

فالبيان والمعانى الذى أشار إليه بمعناه والبديع إنما هى أسماء لعلوم البلاغة .

وتجد فى شعرهم كثيرا من الألفاظ الفقهية وما يجرى على ألسنة الفقهاء كقول الشيخ « حسن قويدر الخليلى »

دعواكم يأيها الزهور كما زعمتم باطل وزور

وكلكم بنفسه مغرور وواجب فى حقه التعزير

من جملة التعزير لوم الحر

فالتعزير الواجب الذى تحدث الشاعر عنه إنما هو من تعبير الفقهاء ويقول « السيد على أبو النصر المنفلوطى »

وحبكم كل وقت فرائض لا نوافل

فلفظا الفرائض والنوافل من الألفاظ الجارية على ألسنة الفقهاء

ومما استعملوه من مصطلح العروض فى شعرهم ما يقوله « عبد الله فكرى باشا » فى الخديو « توفيق » ، ووصف بوارجه

---

(١) النعنعة . حكاية صوت — والتنعنع الاضطراب والتمايل والتباعد

دوارع يلقين المخاوف آمنا ... بهاسربها من كل هول ومرغم [١]
من اللاء لا يتركن حصنا محصنا ... ولا أنف برج شامخ غير مرغم
يطارحن أسلوب المدافع فى الوغى ... بكل رجيح (وزنه) غير أخرم [٢]

فقد ورى بالوصف أخرم الذى يحتمل أن يكون مرادا به ما هو من ألفاظ العروض أو كمال القذيفة التى يطلقها مدفع البارجة .

بل إنك لتعثر فى شعرهم على الحوار الذى يجرى على ألسنة العلماء فى تشقيق البحث وتفريع المسائل بقولهم فإن قيل ، وقلنا ، واستمع إلى الشيخ « حسن قويدر الخليلى إذ يقول :ـ

إن قيل بدر قلت ذا قريب ... وكامل فى الحسن لا يغيب
والبدر فيه كلف يعيب ... وذا الرشا جماله عجيب [٣]
والفرق ظاهر لدى من بدرى

فهاتان الكلمتان « إن قيل وقلت » كلتاهما مما يدور فى أفواه العلماء الأزهريين فى دراسة المسائل وتقرير البحوث العلمية . ولا ننسى كلمة والفرق ظاهر أيضا فإنها تنحدر من هذا الوادى

ومما يحسن أن نشير إليه أن هذا الشاعر أخذ هذا المعنى من قول البهاء زهير فى مثل هذا الغرض وهو الموازنة بين بدره وبدر السماء إذ قال « البهاء زهير » .

يهنيك بدرك حاضر ... يا ليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ... من منهما زاه وزاهر
بدرى أرق محاسنا ... والفرق مثل الصبح ظاهر

---

(١) فى الأساس رغم أنفه ولأنفه الرغم والمرغم الذلة

(٢) الخزم . أنف الجبل وفى الشعر ذهاب الفاء من فعولن أو الميم من مفاعلن والبيت مخزوم وأخرم (قاموس)

(٣) كلف الوجه كلفا تغيرت بشرته بلون علاه قال الأزهرى ويقال للبهق كلف وخد أكلف أى أسفع

وهذا التعبير (والفرق ظاهر) مع أن فيه تورية بين فرق الشعر والفرق والذى هو الفصل بين الشيئين هو من مصطلح العلم وأسلوبه

ويقول الشيخ «حسن قويدر الخليلى» أيضا

فقال لابد من الفراق ولو رقانا اليوم ألف راق

قلت اذن ياناعس الأحداق فهل يكون بعده تلاق

فقال إن العسر ضد اليسر

فكلمة «فقال» المكررة وقلت من سدى التشقيق العلمى ولحمته مع ملاحظة أن لفظ الضد علمى أيضا

وتلك هى كلمة نفرض فرضا التى هى مما يشيع فى دراستهم وتتناولها ألسنتهم وكلمة «والله أعلم» التى يختم بها العلماء الأجلاء بحوثهم العلمية تأليفا ودراسة للتواضع ومجانبة الزهو يستعملها أحد شعراء الأزهر وهو المرحوم الشيخ «محمد الأمير» المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ حيث يقول فى الحث على الزهد

دع الدنيا فليس بها سرور يتم ولا من الأحزان تسلم

ونفرض أنه قد تم فرضا فغم زواله أمر محتسم

فكن فيها غريبا ثم هيء إلى دار البقاء ما فيه مغنم

وإن لابد من لهو فلهو بشىء نافع والله أعلم

وهذه كلمة على فرض أن ذلك قد كان وتسليم قولك يستعملها الشيخ «عبد الهادى نجا الإبيارى» فى شعره كاملة غير منقوصة ، وذلك حيث يقول

أين كانت قل لى لديكم جوار من لدن آدم لهذا النهار

وعلى فرض أن ذلك قد كا ن وتسليم قولك الفشار (١)

---

(١) فى القاموس — الفشار (كغراب) الذى تستعمله العامة بمعنى الهذيان ليس من كلام العرب

ما الذى كان لى بهن من الآ راب حتى إذ بان بان مزارى
وبتسليم أن ذلك قد كا ن فقل لى فداك عصية جارى

وهاتان كلمتا زيد وعمرو الشائعتان فى أفواه الأزهريين وفى كتبهم للتمثيل للفاعل والمفعول وغيرهما يأبى كثير من شعراء الأزهر إلا أن يسلكهما فى شعره ويديرهما فى قريضه كما يقول « عبد الله فكرى باشا »

ترقت حلاها عن سواك وراقها
علاك فلم تجنح لزيد ولا عمرو

ويقول « السيد على الدرويش »

خليلى فيها غنيانى على الطلا ولا تذكرا لى (حال) زيد ولا عمرو

فهو يريد أن يمتع نفسه بالغناء ليستمع له على الطلا ولا يود أن يحدث بشىء عن حال زيد وعمرو من الناس فقد سئم الحديث عنهما وأراد أن يهجره إلى هذا المتاع ، وقد يكون المعنى أنه يريد أن حرمة الغناء والشراب دون الغيبة بالحديث عن زيد وعمرو أو أراد أن يفر من الجد والدرس والكلام عن زيد وعمرو فى مسائل النحو إلى ما ذكره من متعة الغناء والطلا ، وأياً ما كان فقد تأثر بهذين اللفظين اللذين يدوران فى المسائل النحوية فتسللا إلى شعره .

استخدامهم الشعر فى مسائل العلم

ولما كان العلم هو شغل العلماء الأول ومناط حرصهم ومثار اهتمامهم والمالك قواهم وجهودهم ، بذلوا فى تقييده وسائل مختلفة ، واتخذوا الشعر إحدى هذه الوسائل فأخضعوه للعلم وأودعوه مسائله ومشاكله وعبروا به عن شوارده ، وضمنوه ألغازا وحوارا وقواعد ، وعساه أن يكون بهذه المثابة نظما لا شعرا ، إذ أنه مقفر من الخيال ، خلو من الفن عار من الروعة والسحر ، ومن هذا الوادى كل ما نظموه فى علومهم المختلفة .

فمن حوارهم العلمي الذى اتخذ الشعر أسلوبا له ما وقع بين الشيخ «محمد الأمير» والشيخ «العوضي» المتوفى سنة ١٢١٤ ﻫ إذ يقول الأول

حى الفقيـه الشافعى وقل له ... ما ذلك الحـكم الذى يستغرب
نجس عفوا عنه فإن يخلط به ... نجس فإن العفو باق يصحب
وإذا طرا بدل النجاسة طاهر ... لا عفو بأهل الذكاء تعجبوا

ويجيبه الثانى بقوله :ــ

حييت إذ حييتنا وسألتنا ... مستغربا من حيث لا يستغرب
العفو عن نجس عراه مثله ... من جنسه لا مطلقا فاستوعبوا
والشيء ليس يصان عن أمثاله ... لـكنه للأجنبي يجنب
وأراك قد (أطلقت ما قد قيدوا)
وهو العجيب وفهم ذلك أعجب

اقتباسهم من القرآن والحديث

ومن الظواهر العامة فى شعرهم إشراق القرآن فى مجاليه، وظهوره فى كثير من نواحيه، واقتباسهم من القرآن فى شعرهم أمر طبعى لأنهم أشد عناية بحفظ القرآن ودراسة تفسيره واستنباط الأحكام الشرعيـة منـه. واكتناها لأسراره وفهما لمغزاه وتأدبا بأدبه وتذوقا لبلاغته، كما اقتبسوا من الأدب النبوى كثيرا من آياته البينات التى جرت على ألسنتهم من طول ما أخذوا من أحكامه الشرعية وآدابه الرفيعة، فمن اقتباسهم من القرآن قول الشيخ «حسن قويدر الخليلى»

فقال طب نفسا فقد زال الألم ... والصفو من كل الجهات قد ألم
كأنه يتلو على القلب ألم ... نشرح لك الصدر بهذه النعم
روض ووجه حسن ونهر

ويقول الشيخ « حسن العطار »

مرج البحرين فيضا دمعه إذ رأى جفنيه لا يلتقيان

ويقول « السيد على درويش » يمدح المرحوم محمد على باشا ويؤرخ مجيء الجراد عام البقر سنة ١٢٥٩ ﻫ

لواحة للأرض لا تبقى البنات ولا تذر
وصغيرة فى حجمها لكنها إحدى الكبر

ويقول « عبد الله فكرى باشا »

أليس بكاف عبده وهو قائم على كل نفس بالقضاء المحتم

كما يقول

فمن بالعفو إنى منه على غير ياس
وان عتبت فحق (وما أبرىء نفسى)

ومن اقتباسهم من الحديث النبوى قول الشيخ « مصطفى الصاوى »

فالصبرعندالصدمة الأولى رضا ما حيلة المحتال إن لم يصبر

وقول « عبد الله فكرى باشا »

ألا إن أوساط الأمور خيارها مقال نبي عن هدى الله مخبر
وخير عباد الله أنفعهم له كما جاء فى قول النذير المبشر

وقول « السيد عبد الله نديم »

دع عنك لومى فى شيء خصصت به
وانظر لنفسك تعذر مثلك الجانى
فتركك الشيء لا يعنيك منقبة بل ذاك للمرء يدعى حسن إيمان

شـــعراء الأزهر

قامت دولة الشعر فى هذا العصر على كثير من الأزهريين وكانوا المرحلة التى عبرها الشعر إلى مجده الذى بلغه « بالبارودى » « وشوقى » « وحافظ » « واسماعيل صبرى » وغيرهم من شعراء العصر الفحول

وفى الأزهر اليوم جمهرة من الشعراء النابهين ، وفى شبابه من يعقد به الأمل ، ويناط به الرجاء ، ولولا أننا التزمنا الحديث عن الراحلين وكففنا عن التحدث عن الأحياء ، خشاة أن نتهم بالمجاملة ، ونرمى بالتجنى (وحاشا للمنصف أن تحق على عطفيه تلك الظنون) لولا ذلك لبسطنا شعر الأحياء الأزهريين وأفضنا فى دراسة نابهيهم وأفذاذهم .

ومما التزمناه فى الحديث عن الشعراء أن قصرنا القول على أشهرهم وأسيرهم ذكرا وأعظمهم قدرا ، فلم نتبع كل نابه ولم نستقر كل مجيد ، كما أننا توخينا فى الشعراء الذين نتناولهم بالدرس والتحليل أن يكونوا أزهريين أقحاحا بدأوا ثقافتهم فى الأزهر وأتموها فيه ، ومن ثم لم نعرج على من كانت خاتمته الدراسية فى المعاهد الأخرى رغم أنها فروع من الأزهر وأغصان من دوحته فلم نتكلم عن المرحوم « حفنى بك ناصف » والمرحوم « محمد عبد المطلب » والمرحوم « أحمد مفتاح » وغيرهم ممن أتموا بعد المرحلة الأولى دراستهم فى غير الأزهر .

وسنبدأ بذكر أشهر شعراء الأزهر حسب وفياتهم

الخطأ والعامى فى شعرهم :

ومن الانصاف أن نقرر أن العامية قد تتسرب إلى شعرهم ، والخطأ فى النحو والصرف قد يجرى على ألسنتهم ، ولكن ذلك فى قلة وندرة فأما العامية فى شعرهم فكما جاء فى شعر السيد على درويش إذ يجمع « سقف » على « سقفان » فى قوله فى مسجد

إذا سجدت حيطانه فهى ركع   وتسمع تسبيح الحصا منه سقفان

وكاطلاقه لفظ « بردان » على من أصابه البرد وذلك إذ يقول

بُردان لا نفع « للبردان » عندهما   وجبة البرد تكسو كل عريان

فكلمة بردان عامية والفصيح بارد وبَردٌ وبَرُودٌ

ومن العامية فى شعرهم قول الشيخ محمد شهاب الدين

وتفضل بجبر خاطر من هم   أتقنوا صنعه وخذ منه شيًّا

ويقول السيد على درويش

ولا عجب إذا كان المربى   مربى الروح بالعقل المصان

فهو يخطىء فى مجىء اسم المفعول من صانه على مصان بدلا من مصون ويخطىء كذلك إذ يستعمل الفعل أحرمه من كذا بدلا من حرمه وهو الفصيح ولا يقال حرمه من كذا بل حرمه كذا وذلك حيث يقول

السيد اسماعيل الخشاب

المتوفى سنة (١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م)

نشأته وحياته

هو «السيد اسماعيل» بن «إسماعيل الوهبي الشهير بالخشاب» كان أبوه نجارا ثم أنشأ متجرا للخشب بالقرب من باب زويلة بالقاهرة، وولد له الشاعر المترجم وهو أصغر اخوته، وشب مولعا بحفظ القرآن راغبا فى العلم مشوقا لتحصيله، فطلب العلم فى الأزهر حتى صارت له مشاركة فى كثير من علومه (١)

وكان رقيق الحال حتى اضطر للتكسب فى المحكمة الشرعية، وكان عاكفا على مطالعة الكتب الأدبية والتصوف والتاريخ يستظهر كثيرا من أشعار العرب والمراسلات والمكاتبات الأدبية، ويلم بطرف من حكايات المتصوفين وأقوالهم حتى أصبح فريد عصره فى المحاضرات واستحضار البدائع فى المناسبات وكثيرا ما يصفه «الجبرتى» بأنه البليغ النجيب، والنبيه الأديب نادرة الزمان فريد الأوان المتقن العلامة يتيمة الدهر وبقية نجباء العصر

وعرف بالشعر الرائق والنثر العذب وكان نبيها أديبا عظيم الأخلاق لطيف السجايا كريم الشمائل، خفيف الروح، وذلك مما يسر له مخالطة الرؤساء والأمراء ومصاحبة الكبراء والعظماء، فتنافسوا فى صحبته وتباهوا بمجالسته حيث يرتاحون لخلقه، ويستطيبون منادمته، ويجدون من طيب فكاهته ولطف عبارته وعذب بيانه ما يدفعهم إلى طلبه والحرص عليه كما كان رقيقا مهذبا كريم النفس محبا للمجد متطلعا لمعالى الأمور

وكانت له قوة استحضار فى إبداء المناسبات بحسب ما يقتضيه حال

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ٣٣٤

المجلس فكان يجانس ويشاكل كل جليس بما يدخل عليه السرور فى الخطاب ويخلب عقله بلطف محادثته كما يفعل بالعقول الشراب (١)

ولما أنشأ الفرنسيون ديوانا للقضاء بين المسلمين عين فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه لأن الفرنسيين كانت لهم عناية بالغة بتسجيل الحوادث يوما فيوما ، وتدوين ما يجرى منها فى الدواوين ومقر أحكامهم ثم يجمعون هذه الحوادث ويطبعون منها نسخا يوزعونها على الجيش فى مختلف مواضعه ومواطنه فى الأمصار والقرى ، فلما رتبوا ذلك الديوان . كان الخشاب هو الذى يتولى كل ما يتصل بعمله ، وظل فى هذه الوظيفة إلى أن ولى « جاك منو » وعلى رغم ذلك لم يتخل عن التكسب بالشهادة فى المحكمة

ولما عاد المرحوم « الشيخ حسن العطار » من طوافه بالبلاد التى كان قد ارتحل إليها امتزج بالخشاب فصفا ودهما وطابت مخالطتهما وصارا لا يفارق كل منهما صاحبه حتى ليحدث « الجبرتى » بأنهما كثيرا ما كانا يبيتان معا ويقطعان الليل بحديث أرق من نسيم السحر وألطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيرا ما كانا يتنادمان بداره لما بينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان فى كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات

ومع أن « الخشاب » أدرك فى أواخر حياته « محمد على باشا » نراه لم يل فى عهده عملا من الأعمال مع شهرته الأدبية وبعد صيته فى البيان لأن والى مصر لم يكن إلى هذا العهد قد اتجه إلى استصناع الأدباء والشعراء إذ كان مصروفا لغير ذلك من شئون الدولة واصلاحها الداخلى وتأثيل ملكه الذى خلفه المماليك منهوك القوى محلول العزائم

وبرح الداء « بالخشاب » فلزم فراشه حتى غلبه المنون فى يوم السبت ثانى شهر ذى الحجة من سنة ثلاث ومائتين وألف من الهجرة.

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٣٨

وقد جزع عليه صديقه الوفى الشيخ «حسن العطار» وجمع ما تفرق من شعره فأودعه ديوانا طبع فى الآستانة

شعره

«الخشاب» أقدم شعراء العصر الحديث وأقلهم حظا من الحضارة الغربية التى وفدت إلى مصر ونبهت الأذهان والقرائح بعد أن استقر الحكم «لمحمد على» وأبنائه واتصلت مصر بالغرب اتصالا مختلفا، ولم يكن «الخشاب» قد تعلم اللغات الأجنبية فيستعين بها على الاطلاع على ثقافة الغرب وعلمه الجديد فتتسع مداركه وتترامى آفاق خياله، وتأتيه من هذه الآداب سهولة الطبع ورقة التعبير، وعلى رغم ذلك يتسم شعره بالوضوح والسلاسة ومجانبة التعقيد والإقلال من البهرج والطلاء، وهذه ظاهرة واضحة فى شعره، فهو لم يتهالك على البديع ولم يكلف بالصناعة ولم يتورط فيما تورط فيه غيره من الشعراء الصناع على قربه من الشعر الضعيف المنحل فى عهد المماليك ووثيق اتصاله بآداب ذلك العصر الواهن المتخاذل

والذى يبدو أن فى طبع «الخشاب» ميلا فطريا إلى الإشراق والوضوح والبعد من التعمل، وقد تهيأ له من الاتصال بالفرنسيين فى مصر ما طوع أدبه وجلى شعره ونحا به نحو السهولة والانطلاق، فقد أقاموه فى ديوان القضاء أمينا لمحفوظاته وكاتبا سلسلة التاريخ فيه ومسجلا لأحداثه تباعا وعاش طول حياته شديد المخالطة للكبراء والأمراء والعظماء بين منادمة ومطارحة ومفاكهة، ولا ريب أن ذلك كله هيأ له تطويع أدبه وسهولة قريضه وإشراق ديباجته وصفاؤه من التعقيد والزخرف والصنعة

وقد حدث «الجبرتى» أنه علق شابا من رؤساء كتاب الفرنسيين كان لطيف الطبع جميل الصورة عالما ببعض العلوم العربية، مائلا إلى اكتساب النكات الأدبية فصيح اللسان العربى يحفظ كثيرا من شعر العرب، فلتلك المجانسة مال كل منهما للآخر ووقع بينهما تواد وتصاف حتى لا يقدر أحدهما.

على مفارقة صاحبه ، فتارة يذهب الخشاب إلى دار صديقه وتارة يذهب الشاب الفرنسى إلى دار الخشاب فيتجاذبان أطراف الأحاديث ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يتعجب منه ، يقول « الجبرتى » ـ وعند ذلك قال « الخشاب » الغزل الرائق والنظم الفائق (١)

أفلام تكون هذه المخالطة من أسباب تنشيط شعره وانطلاق قريضه وسعة خياله ؟

وهل لنا أن نذهب إلى أن هذه المخالطة دلت « الخشاب » على كثير من أخلاق الفرنسيين وعاداتهم وأحوالهم وطبائعهم فبسط ذلك فى فكره وفسح فى مخيلته ؟

يقول الخشاب فى صديقه الفرنسى :

علقته لؤلؤى الثغر باسمه ... فيه خلعت عذارى بل حلا نسكى
ملكته الروح طوعا ثم قلت له ... متى ازديارك لى أفديك من ملك
فقال لى وحميا الراح قد عقلت ... لسانه وهو يثنى الجيد من ضحك
إذا غزا الفجر جيش الليل وانهزمت
منه عساكر ذاك الأسود الحلك
فجاءنى وجبين الصبح مشرقة ... عليه من شغف آثار معترك
فى حلة من أديم الليل رصعها(١) ... بمثل أنجمه فى قبة الفلك
فخلت بدرا به حفت نجوم دجا ... فى أسود من ظلام الليل محتبك(٢)
وافى وولى بعقل غير مختبل ... من الشراب وستر غير منهتك(٣)

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٣٩
(٢) رصعها : ملأها .
(٣) محتبك : موثق محكم .
(٤) منهتك : هتك الستر جذبه فقطعه من موضعه أوشق منه جزءا فبدا ما وراءه وهتك ستر فلان فضحه .

فهذه أبيات عذبة سائغة لاتعقيد فيها ولا التواء ، لم تشبها شائبة الصنعة ، ولم يفسد جمالها المحسن البديعي الذى أسرف العصر فى تناوله وتاه فى فيافيه.

هذا إلى ما ذهب إليه من غزو الفجر جيش الليل وانهزام عساكره ، وقدوم صاحبه وقد أشرق جبين الصبح يبدو عليه من شغفه آثار معترك ، وتشبيهه فى حلته التى كأنها من أديم الليل تلمع فيها الأنجم التى رصعتها وحلتها بالبدر أشرق نوره وحفت نجوم الدجى به فى الليل الحالك الذى وثق سواده وأحكم .

هذا ويجوز أن تكون كلمة شغف محرفة وأصلها « شفق » أى أن صاحبه وفد اليه وعلى جبين الصبح آثار معترك من الشفق ، لما بينهما من المنازعة والمغالبة ويستأنس له بما ذهب اليه من قبل من غزو الفجر جيش الليل ، وانهزام عساكره .

غير أنا نلاحظ أن الشاعر وصف جبين الصبح بلفظ مشرقة فلم يطابق بين الموصوف والصفة فى التذكير والتأنيث وكان يجب أن يقول « مشرق » فى اللسان « الجبين يذكر لا غير » إلا أن يقال إنه أنث الوصف باعتبار الجبين جبهة وبذلك تتأتى المطابقة أوجرى على ما يذهبون إليه من أن كل مالا يعقل يجوز تذكيره وتأنيثه ؛ أوتقول إن كلمة آثار فاعل «مشرقة» ويكون مرجع الضمير لجبين الصبح لا لفاعل جاء .

وقال فى فرنسى آخر اسمه « ريج » .

أدرها على زهو الكواكب والزهر	وإشراق ضوء البدر فى صفحة النهر
وهات على نغم المثانى[1] فعاطنى	على خدك المحمر حمراء كالجمر
وموه لجين الكأس من ذهب الطلا	وخضب بنانى من سنا الراح بالتبر
ومزق رداء الليل وامح بنورها	دجاه وطف بالشمس فينا إلى الفجر

---

(١) المثانى : من أوتار العود الذى بعد الأول واحدها مثنى

وأصل بنار الخد قلبي وأطفه ... ببرد ثناياك الشهية والثغـــر
أ د ريبج، ذكى المسك أنفاسك التى ... أريج شـذاها قد تبسم عن عطر
معنبرة يسرى النسيم بطيبهـا ... فتغدو رياض الزهر طيبة النشر
رشافاتك[1] الألحاظ عيناه غادرت ... فؤادى فى دمعى دما سائلا يجرى
طويل نجاد السيف ألمى[2] محجب ... شقيق المها[3] زاهى البها ناحل الخصر
رقيق حواشى الطبع يغنى حديثه ... عن اللؤلؤ المنظوم والدر والنثر
ولمـا وقفنا للوداع عشـــية ... وأمسى بروحى يوم جد النوى سيرى
تباكى لتوديع وأبدى شقائقا[4] ... مكللة[5] من لؤلؤ الطل بالقطر

فهذا شاب فرنسى آخر خالطه الخشاب وأدمن الود معه ، وكانت لهما مجالس وسمر ، وغدو ورواح ، فصفا أنسهما ، وطابت مودتهما ووجد الشاعر فيه ما ارتاح له وبهره منه فتك ألحاظه ، وطول نجاده ، وسمرة شفته وتحجبه ، وأنه شبيه بالمها زها بهاؤه ونحـل خصره ، ورق طبعه ، وأغنى عن اللؤلؤ المنظوم والدر المنثور عذب حديثه ، ووصف يوم الوداع وما لقيه من هوله وأن صاحبه تباكى فبلل بدمع كاللؤلؤ خدودا حمرا كالشقائق .

هذه صورة ناطقة رسمها الشاعر فجاءت رائعه فاتنة ولم تتعثر ريشته أو ينب رسمه والشاعر فى إبداعه هذه المعانى تلك الأبيات . وفى تعبيره عن هذا

---

(١) رشا : الرشأ محركة الظبى إذا قوى ومشى مع أمه

(٢) ألمى : اللمى مثلثة اللام سمرة فى الشفة .

(٣) المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية .

(٤) الشقائق : جمع شقيقة — وشقائق النعمان معروفة . سميت بذلك لحمرتها تشبيها بشقيقة البرق أضيف إلى ابن المنذر لأنه جاء إلى موضع وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر وفيه من الشقائق ما راقه فقال ما هذه الشقائق احموها وكان أول من حماها وقيل النعمان اسم للدم وشقائقه قطعه فشبهت حمرتها بحمرة الدم (شارح القاموس) .

(٥) مكللة : الروضة المكللة المحفوفة بالنور .

كله لم يحم حول تعقيد أو التواء ولم تهده صنعة أو طلاء اللهم إلا أنه يشك المحسن البديعي شكا خفيفا ويتناوله برفق ولطف فيستعمل الجناس بين كلمة زهر الكواكب التي هي جمع أزهر والزهر للذى هو النبت المعروف .

ويلهمه اسم صديقه « ريج » فيوقع الجناس بينه منادى بالهمزة وبين أريج الشذى ، وهو وإن كان بهذا الجناس المتكرر يجارى شعراء عصره ، لم يظهر بمظهر المتكلف والمتهالك عليه .

ونلاحظ على أن الشاعر عبر بلفظ تباكى لتوديع — وكان المفهوم أن يقول « بكى » لأن ذلك موقف البكاء لوجود دواعيه ، أما « تباكى » فتعبير يفيد أن صاحبه تكلف البكاء ومن شأن هذا الوصف أن ينفى عنه صفة التأثر بالرحيل إلا أن يقال إن صاحبه لشدة هول التوديع جمدت عيناه فلم تبكيا فتكلف البكاء ليوائم بين حاله وحال المودعين وفى الحديث « فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا » ى تكلفوا البكاء وتكلف البكاء يستدعيه وهـذا الوجه يثبت لصاحب خشاب تأثراً أبلغ من تأثره وأنه بلغ من الحزن ما جمدت به عيناه ولم تسمح البكاء إلا أن يتكلفه تكلفا .

ومما قاله يتغزل به :

ياشقيق البدر نوراً وسنا	وأخا الغصن إذا ما انعطفا
بأبي منك جبينا مشرقا	لو بدا للنيرين انكسفا
بغيتي منك رضاب[1] ورضا	وعلى الدنيا ومن فيها العفا[2]

فهذه أبيات رقيقة عذبة حلوة الروح خفيفة المذاق لم يشبها تعقيد ولم تتأثر بصنعة إلا الجناس المقبول فى « رضاب » و « رضا » .

وقال يمدح الشيخ « محمد الأمير » العالم الفقيه المتوفى سنة (١٢٣٢ إلى ١٨١٧) .

الرضاب ـ كغراب الريق المرشوف أو قطع الريق فى الفم ، وفتات المسك

ادر لى فى الربا القدحا   وكن للعذل مطرحا
ونبه صاح ساقيها   فضوء الصبح قد وضحا
وثغر الدهر مبتسم   وشادى الورق قد صدحا
وخذها من يدى رشا   مليح قد حوى ملحا
غزال إن يلح للبد   ر أو غصن القا افتضحا
وأطرب مسمعيك بما   به أستاذنا امتدحا
«محمد الأمير» المر   تجى كم آملا منحا
إمام إن تزنه بكل   م مولى ماجد رجحا
سراج فى ذكائه الوها   ج ليل المشكلات محا

فهذه الأبيات تقطر سلاسة ورقة ويفيض ماء الشعر من أعطافها وتبدو صفحتها نقية من الزخرف والطلاء حتى لتشبه أعذب ما ينظم الآن من الشعر العربى السهل على ما فيها من معان خصبة وتصوير بديع، كرجحان الإمام الممدوح حين تزنه بكل مولى ماجد؛ وجعل الشاعر ذكاء الممدوح سراجا وهاجا يمحو المشكلات التى جعل لها ليلا.

وكان «محمد بن الحسن بن عبد الله الطيب» المتوفى سنة خمس ومائتين وألف من الهجرة شاعرا يلتزم فى شعره ما لا يلزم، فلما جمع شعره فى ديوان كتب الخشاب على ظاهر هذا الديوان يداعب صاحبه فقال:

قل للرئيس أبى الحسين محمد   خدن(١) المعالى والسرى الأمجد
والحاذق(٢) الفطن اللبيب أخى الذ   كاء اللوذعى(٣) الألمعى(٤) الأوحد
ألزمت نفسك فى القريض مذاهبا   ذهبت بشعرك فى الحضيض الأوهد

---

(١) العفاء: الهلاك والدروس ومن معانيه التراب
(٢) الخدن والخدين الصاحب
(٣) الحاذق الماهر البارع
(٤) اللوذعى: الخفيف الذكى الظريف الذهن الحديد الفؤاد واللسن الفصيح كأنه يلذع بالنار   (٥) الألمعى الذكى المتوقد

وتركت ما قد كان فيه لازما   هلا عكست فجئت بالقول السدى
كدرت منه بما صنعت بحوره
فغدت مشارع[1] ليس ينحوها الصدى[2]
فإذا نظمت فكن لنظمك ناقدا   نقد البصير بذهنك المتوقد
أولا فدع تكليف نفسك واسترح   من قولهم ما شعره بالجيد
ولئن عنفت عليك فيما قلته   فلقد بذلت النصح للمسترشد

فلما قرأ صاحب الديوان هذه الأبيات ضحك ولم يزد على أن قال (أنت في حل) وكان «محمد بن الحسن» قد علق غلاما فكتب إليه الخشاب .

إنى أجلك أن تصبو بمبتذل   على تسنمك العلياء من صغر
أمسك عليك وحاذر من إخاء فتى   قميصه مذنشا ينقد من دبر

وهذه قطعة رائعة تزخر بالمعانى الكريمة وتفيض سلاسة ولطافة فلا ينبو منها لفظ ولا يقلق فيها تعبير وتطرد أجزاؤها وتتسلسل حتى لتكون كالعقد انتظمت حباته قالهايرثى بها المرحوم الشيخ «أحمد بن موسى بن داود» المتوفى سنة ثمان ومائتين وألف من الهجرة .

تغير وجه الدهر وازور حاجبه   وجاءت بأشراط المعاد عجائبه
وكدر صفو العيش وقع خطوبه   وقد كان وردا صافيات مشاربه
فمالى لا أذرى المدامع حسرة   وأفق سطء المجد تهوى كواكبه[3]
ومالى لا أبكى على فقد ذاهب   موصلة لله كانت مذاهبه
أغرسنا شمس الضحى دون وجهه   وفوق مناط الفرقدين مراتبه
حليف ندى كالسيل سيب يمينه   وكالبحر تجرى للعفاة مواهبه
له عفو ذى حلم ورأى أخى نهى   يضىء لدى محلولك الخطب ثاقبه
على نهج أهل الرشد عاش وقد مضى   مطهرة أردانه وجلابيه

---

(١) المشارع — موارد الشرب
(٢) الصدى — الظامىء

فمن ذا الذى ندعو لكل ملمة ... ونرجو اذا ما الأمر خيفت عواقبه

لقد هد ركن الدين حادث فقده ... وشابت له من كل طفل ذوائبه

وغادر ضوء الصبح أسود حالكا ... كأن الدجى ليست تزول غياهبه

ألم تر أن الأرض مادت بأهلها ... وأن الفرات العذب قد غص شاربه

سطت نوب الأيام بالعلم الذى ... تزال به عن كل شخص نوائبه

عجيب لهم أنى أقلوا سريره ... وقد ضم طودا أى طود يقاربه

وكيف ثوى البحر الخضم بحفرة ... وضاق بجدواه الفضا وسباسبه

خليلى قوما فابكيا لمصابه ... بمنهل دمع ليس ترقا سواكبه

لقد آد [١] إذ أودى [٢] وأعقب مذمضى ... أسى يجعل الأحشا جذاذا [٣] تعاقبه

وأى شهاب ليس يخبو ضياؤه ؟ ... وأى حسام لا تفل مضاربه ؟

وأى فتى أيدى المنية أفلتت ؟ ... وأى فتى وافته يوما مآربه ؟

وماذا عسى نبغى من الدهر بعد ما ... أصمت [٤] وأصمت [٥] كل قلب مصائبه ؟

فانظر كيف جاءت هذه القصيدة سهلة مشرقة لم تعكرها صنعة ولم يذهب بروائها تكلف

نقاء شعره من التاريخ

ومما امتاز به « الخشاب » أنه لا يميل إلى التاريخ الشعرى ولا يتصل به

---

(١) آده الحمل أثقله
(٢) أودى هلك
(٣) جذاذ قطعا
(٤) أصمه سد أذنه
(٥) أصمى الصيد رماه فقتله مكانه

فى قليل أو كثير ، وعلى رغم أنه أقرب شعراء العصر الحاضر إلى العصر السالف وكان مقتضى ذلك أن ينحو منحى الشعراء فى ذلك العصر فيفتن فى التاريخ الشعرى ويولع به كما أولعوا ويستعمله فى الشطر أو البيت أو القصيدة على رغم من معاصرته لهؤلاء الذين كلفوا به خلا شعره منه فلا تكاد تعثر على تاريخ له فى حادث أو أمر ذى بال ، وان هذه لحسنة من حسنات «الخشاب» فقد نجا من قيوده وأغلاله وكم طغت هذه الصناعة على الشعر فذهبت بجماله وكسبته الغموض والتعقيد والالتواء واستبدت بالشاعر فصرفته عن روعة التصوير وجمال المعنى ، وحسن الأداء . ولكن «الخشاب» نجا من هذا وكره هذه الطريق الملتوية لحاد عنها وسلك مسلك السهولة والإشراق والوضوح



الشيخ حسن العطار

المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م)

نشأته وحياته :

ولد بالقاهرة سنة نيف وثمانين ومائة وألف من الهجرة ونشأ بها فى ظل أبيه الشيخ « محمد كتن » ويمت بنسبه إلى أسرة مغربية وفدت إلى مصر وكان أبوه رقيق الحال « عطارا » ملما بالعلم كما يدل عليه ما يقوله فى بعض كتبه (ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله) وكان يستصحبه إلى متجره ويستعين به فى صغار شئونه — نشأ حاد الذكاء قوى الفطنة ، إلى التعليم هواه . شديد الغيرة والتنافس ، إذ يرى أترابه يترددون على المكاتب ، ومن ثم يتسلل إلى الجامع الأزهر مستخفيا من أبيه ، وقد عجب والده إذ رآه يقرأ القرآن فى زمن وجيز فشجعه ذلك على أن يدع ابنه الذكى الفطن المحب للعلم يختلف إلى العلماء وينهل من وردهم مايشاء ، فجد فى المثابرة والانتفاع من الفحول أمثال الشيخ « محمد الأمير » والشيخ « الصبان » وغيرهما حتى بلغ من العلم والتفوق فيه ما أهله للتدريس بالأزهر على تمكن وجدارة .

ولكن نفسه لم تقنع بهذه الغاية ، بل مال إلى التبحر فى العلوم واشتغل بغرائب الفنون . والوقوف على أسرارها .

وكان منذ صباه ذا شغف بالأدب ، جادا فى مطالعته والتزود منه حتى أجاد النظم والنثر فى ريعان صباه وبواكير حياته .

وعنى بالأدب الأندلسى عناية فائقة فأخذ يدرسه ويحاكيه ، وكثيرا ما كان يأسف على انحطاط الأدب فى عصره ويصف شعراء زمانه بأنهم (اتخذوا الشعر حرفة وسلكوا فيه طريقة متعسف فصرفوا أكثر أشعارهم فى المدح والاستجلاب والمنح ، حتى مدحوا أرباب الحرف لجمع الدراهم ، وكان منهم

من كان يصنع القطعة من الشعر فى مدح شخص ثم يغيرها فى مدح آخر وهكذا حتى يمتدح بها كثيرا من الناس وهو لا يزيد على أن يغير الاسم والقافية وما أشبهه فى ذلك إلا بمن يفرق أوراق الكدية[1] بين صفوف المصلين فى المساجد وهكذا كان حال الرجل فلا يكاد يتخذ وليمة أو عرسا أيبنى بناء أو يرزأ بموت محب إلا بادره بشىء من الشعر قانعا بالشىء النزر) .

ولما كانت تلك نظرته إلى الشعر والشعراء رأيناه قد أغفل شعره ، ولم يحتفظ بما قاله فى المدح والهجاء اضطرارا ورجا ألا يحفظ عنه إلا ما لطف من النسيب) مما ولع به (أيام الشباب حيث غض الشبيبة غض و الزمن من الشوائب محض ، ولأعين الملاح سهام بالفؤاد راشقة ، وتثنى قدود الغيد تظل له أعين الأحبة وامقة .

ذاك وقت قضيت فيه غرامى من شبابى فى ستره بالظلام
ثم لما بدا الصباح لعينى من مشيبى ودعتـــه بسلام)

ولما اضطربت الفتن بدخول الفرنسيين مصر رحل إلى الصعيد ومعه جماعة من العلماء ، ثم عاد إلى مصر بعد أن استقرت الأمور ، وقد أداه حبه الحياة الاجتماعية وميله إلى المخالطة ، وما عرف به من خفة الروح ، وطيب المعاشرة ، إلى الاتصال بالفرنسيين العلماء فاستفاد من فنونهم وأفادهم اللغة العربية وكان يقول « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ماليس فيها» وكان يتعجب مما وقف عليه من علوم الفرنسيين ومن كثرة كتبهم وتحريرها وقربها من العقول وسهولة الاستفادة منها ، وقد تحدثنا عن ذلك فى صلة الأزهر بالحملة الفرنسية .

وهو الذى وقف فى امتحان مدرسة الطب خطيبا يشيد بفائدة الطب فى تقدم الإنسانية ويفخر بأن أتيح للأزهر فى تاريخ مدرسة الطب أول نشأتها

---

(١) الكديسة : السؤال .

أثر جليل إذ كان جل تلامذتها الأول من الأزهر وكان لهم فى مدرسة الطب من الذكاء وحسن الاستعداد ما راع وبهر .

والشيخ « حسن العطار » هو الذى قدم الشاب الشيخ « رفاعة رافع » « لمحمد على » ليكون إماما للبعث الذى أرسل إلى فرنسه فى سنة ١٨٢٦ م .

وهو الذى أوصى «رفاعة» أن يقيد مشاهداته فى بلاد الغرب من الأمور التى يرى فيها فائدة لبنى وطنه كى يظهرهم على النواحى المختلفة للحضارة الأوربية ، حتى إذا أطاع « رفاعة » أستاذه وأتم رحلته « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » أوصى العطار بها حتى قامت الحكومة على طبعها ونشرها .

تنقله :

ثم إنه ارتحل إلى الشام وأقام بدمشق زمنا كان يقرض فيه الشعر حينا بعد حين ، قال « وقلت وأنا بدمشق هذه القصيدة وسببها أن صاحبنا العلامة محمد المسيرى كان قدم من بيروت لدمشق فأقام بالمدرسة البدرية حيث أنا مقيم ومكث نحو شهرين فوقع لى به أنس عظيم » .

ثم عاد إلى بيروت وأرسل مكتوبا لبعض التجار فيه قصيدة تتضمن مدح دمشق وعلمائها وتجارها الذين صاحبوه مدة إقامته ، فكان جزاء تلك القصيدة أنها لم تقع منهم موقع القبول وساروا يهزأون بكلماتها وقوافيها فانتدبت لنظم هذه القصيدة على بحرها ورويها انتصارا للشيخ «المسيرى» وقد ذكرت بعض متنزهات دمشق فى أول قصيدتى وأتيت فيها بفنون من الغزل والهجاء وغيرهما فقلت :

بوادى دمشق الشام جزبى أخا البسط
وعرج على باب السلام ولا تخطى

ولا تبك ما يبكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

هنالك تلق ما يروقك منظرا

ويسلى عن الأخوان والصحب والرهط

عرائس أشجـــار إذا الريح هزها

تميل سكارى وهى تخطر(١) فى مرط(٢)

كساها الحيا أثواب خضر تدثرت

بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط(٣)

ومنهـــا :

وقف بى بجسر الصالحية وقفة   لأقضى لبانات الهوى فيه بالبسط

وعرج على باب البريد تجد به   مراصد للعشاق فى ذلك الخط(٤)

وحاذر سويقات العمارة أنها   مهالك للأموال تأخذ لا تعطى

فلو أن قارونا تبايع بينهم   لعاد فقيرا للخلائق يستعطى

ولست لما أنفقت فيها بآسف   ولا بالرضا منى أمازج بالسخط

وجاء فى بعض كتبه أنه أدى فريضة الحج واتفق له بعد أدائه أن توجه مع الركب الشامى إلى معان ثم بلدة الخيل فأقام بها عشرة أيام ، ثم يمم القدس فنزل دار نقيبها وهنأه بعودته إلى منصبه بعد عزله منه ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم وأقام بها طويلا وسكن بلدا من بلاد الأرناؤد وتأهل بها وأعقب ولكن لم يعش عقبه .

---

(١) تخطر — خطر فى مشيته اهتز وتبختر .

(٢) المرط — كساء من صوف أوخز .

(٣) القرط — ما يعلق فى شحمة الأذن .

(٤) الخط بالضم موضع الحى والطريق والشارع ويفتح ، وبالكسر الأرض لم تمطر والتى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك .

عودته إلى مصر :

ولما عاد إلى مصر تولى تحرير الوقائع المصرية فكان أحد الأزهريين الأدباء الذين نهضوا بها وكانت له شهرة علمية أدبية ومكانة أذعن لها معاصروه من العلماء والأدباء والأفذاذ .

كان يعقد مجلسا لقراءة تفسير البيضاوى فيتوافد الشيوخ عليه تاركين حلق دروسهم ، وقد أهلته هذه المكانة العلمية والأدبية وما اتسم به من النبوغ وماطار من شهرته وبعد صيته أن يكون شيخا للأزهر بعد وفاة الشيخ « أحمد الدمهوجى الشافعى » .

ولما قدم إلى مصر عام سبعة وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة كبير الدروز وكانوا قد انتقضوا عليه ملتجئاً إلى « محمد على باشا » وكان فى صحبته « بطرس النصرانى » اجتمع به وكان بينهما اتصال ومودة ورأى المترجم فيه تمكنا من الأدب والمحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأنساب وعلوم العربية ، وقد حدث[1] بذلك وبأن « بطرسا » امتدحه بقصيدة منها :

أما الذكاء فإنه ... أذكى وأبرع من إياسه
فى أى فن شئته ... فكأنه بانى أساسه
أضحى البديع رفيقه ... لما تفرد فى جناسه

مواهبـــه :

كان رحمه الله طموحا محبا للاجتماع والتنقل ومشاهدة الحضارات المختلفة وكان معروفا بالجد والذكاء معا ، حدث عنه معاصره المرحوم الشيخ « محمد شهاب الدين المصرى » الشاعر بأنه كان آية فى حدة النظر وشدة

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٩ .

الذكاء وأنه ربما استعار منـــه الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده الأسبوع أو الأسبوعين ثم يعيده إلى وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره[1] على كثير من مواضعه[2] ومما عرف عنه أنه كان يرسم بيده المزاول النهارية .

آثـــاره :

له تآليف عدة منها حاشيته على جمع الجوامع نحو مجلدين، وحاشية على الأزهرية النحو ، وحاشية على مقولات الشيخ « السجاعى » وحاشية على السمرقندية ، ورسائل فى الطب والتشريح « والرمل » « والبازرجة » وغير ذلك ، وقد شرح جزءا من الكامل للمبرد .

شـــعره :

لم يجمع شعر العطار فى ديوان ، وقد أراد هو كما قلنا ألا يحتفظ بشعره الذى نظمه فى المدح والهجاء ، ورغب ألا يحفظ عنه إلا ما كان غزلا رقيقا نظمه فى صباه حيث العيش غض والزمن من الشوائب محض ، وأن مما يؤسف له أن يفقد كثير من ثروة العطار الشعرية النفيسة ، ولو توفر جميع شعره لارتسمت فيه صورة ناطقة لشاعريته ومواهبه وشخصيته ووضحت هـذه القصائد مجتمعة كثيراً من أحوال العصر إذ الشعر مرآته المجلوة .

ومهما يكن من شىء ففى القصائد المتناثرة التى وقعنا عليها ما يعين ـ ولو فى جهد ـ على دراسة شعره ، وطريقته واتجاهه الشعرى .

يدل ما بين أيدينا من شعر « العطـار » على السهولة ووضوح الغرض وإشراق المعنى وسعة الأفق ، وغزارة مادة التشبيه ، ولعل مما بسط فى أفقه الشعرى ، ومد فى خياله ومال به فى الشعر إلى الوضوح والرقة والسجاحة

---

(١) الطرر جمع طرة وهى جانب الثوب الذى لاهدب له وشفير النهر والوادى وطرف كل شىء وحرفه والناصية .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٩ .

ما تهيأ له من مخالطة الكبراء والعظماء وما كلف به من حب الحياة الاجتماعية وغشيانها فى شتى مجاليها ، ومختلف ميادينها وما اجتلاه فى الممالك التى ارتحل إليها وجال فى ربوعها من مشاهد وحضارات ، وأخلاق وعادات ، وما اطلع عليه من ألوان الحياة المتقاربة والمتباينة ، فإن كل ذلك من مقومات الشعر ومن أسباب بسطه وتلوينه ، على أن هذه المخالطات وتلك الاتصالات التى وثق « العطار » أسبابها صرفت شعره عن التعقيد والغموض والالتواء .

ويظهر أن العطار يميل بطبعه إلى السلاسة ، وينحرف بفطرته إلى الإشراق والسهولة ، وإذا رجعت إلى أقدم ما عثر عليه من شعره لم تفتك منه هذه الصفات ، وطالعتك منه صفحة نقية من الغموض والالتواء .

فمن أقدم شعره قصيدته التى رواها « الجبرتى »[1] يمدح بها الشيخ « شامل أحمد بن رمضان » المتوفى سنة خمسة عشر ومائتين وألف من الهجرة حينما ولى مشيخة رواق المغاربة إذ يقول :

انهض فقد ولت جيوش الظلام	وأقبل الصبح سفير اللثام
وغنت الورق على أيكها	تنبه الشرب لشرب المدام
والزهر أضحى فى الربا باسما	لما بكت بالطل عين الغمام
وللغصن قد ماس بأزهاره	لما غدت كالدر فى الانتظام
وعطر الروض مرور الصبا	على الرياحين فأبرا السقام
كأنما الورد على غصنه	تيجان إبريز على حسن هام
كأنما الغدران خلجان أغصـان النقا	والنهر مثل الحسام[2]
كأن منظوم الزراجين بها	قوت غدا من نظمه فى انسجام[3]

---

(١) الجزء الثالث ص ١١٣

(٢) النقا ـ القطعة من الرمل تنقاد محدودبة .

(٣) الزرجون ، كقربوس شجر العنب أو قضبانها والخمرة وماء المطر الصافى المستنقع فى الصخرة .

كأنما الآس[1] عذار[2] على وجنته وقد علاها ضرام
كأنما الورقاء لما شدت تتلو علينا فضل هذا الإمام
بشراك مولاى على منصب كان له فيك مزيد الهيام
وافاك إقبـــال به دائمـا وعشت مسعودا بطول الدوام
فقد رأينا فيك ما نرتضى لازلت فينا سالما والسلام

هذه الأبيات من أقدم شعره الذى عثرنا عليه وهى متسعة بالسهولة ووضوح الغرض ومجافاة الغموض ، مع حسن صياغتها وتسلسلها ، وكثرة تشبيهاتها المحكمة السائغة .

ومما قاله متغزلا :ــ

إلى متى أشكو ولم ترث لى أما كفى أن رق لى عذلى؟
يا باخلا بالوصل عن عاشق بعسجد الأجفان لم يبخل
أنفق فى حر الهوى عمره وعن أمانيه فلا تســأل
لم يبق فى الصب سوى مهجة أمست بنيران الهوى تصطلى
ومقلة ترعى نجوم الدجى شقيقك الزاهر عنها سل
تبيت تبكى شجوها كلمـــا هاج بذكراك فؤاد بلى
ما أطول الليل على عاشق فارق محبوبا عليــــه ولى
كأنمـا الصبح اتقى سطوه من كافر الليل فلم ينجل

فهذه القطعة من أرق أبيات الصبابة وأعذبها ، أودعها الشاعر عواطفه وشجونه فعبرت عنها أصدق تعبير ، فهو يعتب على محبوبه عتاب الشاكى ويسائله إلام يغضى من شكواه وقد رثى العذل لحاله ؟ ثم يتجه إليه فيخاطبه قائلا متى بخل بالوصل على عاشق جاد بعسجد أجفانه لطول بكائه وأنفق

---

(١) الآس نبت معروف من الرياحين .
(٢) عذار اللحية الشعر النازل على اللحيتين .

عمره فى حر الهوى وأنت معرض لا تسأل عن أمانيه ، لم يبق فى محبك إلا مهجة تصطلى بنار الهوى ومقلة تبيت ساهرة ترعى النجوم ، فسل شقيقك ينبئك عن حالها ، إنها تبيت تبكى كلما هاج بذكراك الفؤاد البالى ، ثم ينتقل الشاعر إلى التبرم من طول الليل على العاشق الذى فارق محبوبا ولى عليه ، وينتظر الصبح فلا يطلع فيخيل إليه أنه يخشى سطوة الليل الكافر فمن ثم لم ينجل ، وهو مسبوق إلى هذا المعنى يقول البهاء زهير :

لى فيك أجر مجـــاهد إن صح أن الليل كافر

المحسنات فى شعره :

والمحسنات البديعية تبدو فى شعر « العطار » وتدور أنواعها فى شعره كما تدور فى شعر أقرانه المعاصرين .

ففى شعره الطباق كقوله :

أسرونى وأطلقوا دمع جفنى وأثاروا فى القلب نار الجحيم

وهو بين « أسروا » و « أطلقوا » .

والتقسيم كقوله :

فطرفى إلى رؤياكم متشوف وقلبى إلى لقياكم متشوق

مع ما فى البيت من الجناس بين متشوف ومتشوق .

وتجد فى شعره الاقتباس كقوله :

مرج البحرين فيضا دمعه إذ رأى جفنيه لا يلتقيان

وهو اقتباس من قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان » .

ويستعمل التورية فى شعره وتطالعك كثيراً كما فى قوله :

حلمه الروض جناه يجتنى ويرجّى العفو منه كل جان

فقد ورى بلفظ « جان » بين معنيه الآثم والقاطف .

وكما فى قوله :

وكيف أجوز فى ميدان قوم   حقيقة فضلهم أرجو مجازه

فقد ورى بلفظ « مجاز » المضاف إلى الضمير يبين معنيه مقابل الحقيقة والمصدر الميمى الذى هو بمعنى الاجتياز .

وكما فى قوله :

كسر القلب وماكان التقى   فيه من حين هواه ساكنان

فلفظ « ساكنان » مورى به بين مثنى اسم الفاعل من سكن بمعنى حل أو سكن بمعنى لم يتحرك ويحسن أن نشير إلى أن « العطار » أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

يا ســاكنا قلبي المعنى   وليس فيه سواك ثان
بأى معنى كسرت قلبي   وما التقى فيه ساكنان

أما الجناس فإنه مولع به ، مفتون بفنونه . يستعمل منه فى شعره ألوانا مختلفة ويدور فى شعره فى صور شتى ، وكأن « بطرسا » الذى قدم إلى مصر ضيفا مع كبير الدروز لم يقل فى « العطار » .

أضحى البديع رفيقــه   لما تفرد فى جناسه

إلا حيث كانت « للعطار » شهرة بإدمان الجناس والافتتان فيه ، وتلوينه بألوان مختلفة ، فقد يعمد إلى الجناس فى الكلمة الواحدة فيوردها ذات معان شتى وفى صور متغايرة قد تصل أحيانا إلى أربع كقوله يمدح « إبراهيم باشا » :

سمهرى[1] ينثنى أم غصن بان   أم قوام دونه صبرى بان
صان بالعسال[2] معسول اللمى   وتهادى هادما ما أنا بان

(١) السمهرى - الرمح الصلب والمنسوب إلى سمهر زوج ردينة وكانا مثقفين للرماح ، أو إلى قرية بالحبشة .

(٢) العسال الرمح الذى يهتز لينا والمعسول المخلوط بالعسل .

يا مليك الحسن رفقا بشبح   كلما حاول كتم الشجو[1] بان

فكلمة « بان » فى هذه الأبيات كررها الشاعر أربع مرات ، وهى على ترتيبها (اسم) للشجر ، وفعل ماض بمعنى تعد ، واسم فاعل من بنى بمعنى أقام وشيد وفعل ماض بمعنى ظهر ، وولوعه بالجناس هذا هو الذى أوقعه فى هذا التكرار الذى غاض معه جمال الشعر وبهاؤه ، وجاء متكلفا لاتنفتح الأسماع له ، وهو لا ينسى فى غمار هذه الضجة التى أثارها بجناسه (وبان) تكلفها فى شعره أن يسوق جناسات أخرى فى سياق هذه الأبيات كما بين (العسال) (ومعسول) اللمى (وتهادى) و (هادما) و (شبح) و (شجو) .

وهذا الجناس الذى يغرق « العطار » فى تناوله ويسرف فى استعماله يحلو أحيانا فيكون مقبولا سائغاً لا نبو فيه كقوله :

وصفا لى زمان أنس صفالى   بحبيب غض وراح قديم

وقوله :

ومالى إن منعتكها اقتدارا   ومالى إن منحتكها إجازة

وقوله :

يمم اليم ورد ما تشتهى   وعلى المورد يا صاح الضمان

وقوله :

وغنت الورق على أيكها   تنبه الشرب لشرب المدام

وقوله :

همم فوق السموات سمت   ومعال دونهن الصعب هان

فالجناس بين « صفا » و « صفا » و « منعتكها » و « منحتكها » و « يمم » و « اليم » و « الشرب » جمع شارب و « الشرب » مصدر شرب و « السموات » و « سمت » و « دونهن » و « هان » وهذه جناسات سائغة لا تمجها النفس

---

(١) الشجو — شجاه حزنه وطربه كأشجاه فهما ضد .

ولا تتكره لها ومن جناسه ما يسمج وينبو وتسمعه الآذان بغضاضة وتسخط لما يبذله له من التكلف والتعسف كقوله :ـ

وحلى حلت وجلت غاية   أيجارى من له سبق الرهان

وقوله :

فهو كالشمس سمت آفاقها   وسناها كان فى كل مكان

هذه جناسات موسومة بطابع التكلف ارتصد لها الشاعر فلم تخف على الأسماع .

حسن الانتقال فى شعره :

والشاعر يحسن الانتقال من معنى إلى معنى فلا تحس بقلق بين المعنيين أو اقتضاب أو تنقل من الأول إلى الثانى بل نجد تمام الالتئام وحسن السبك وأحكام التآخى كقوله :ـ

يا نديمى قم وباكرها وطب   هذه الجنة والحور الحسان

وأدر لى بنت كرم عتقت   نورها الباهر يحكى البهرمان

بالنهى قد فعلت كاساتها   فعل إبراهيم سلطان الزمان

فقد انتقل من أثر الكؤوس فى النهى وما تفعل به إلى أثر إبراهيم الممدوح فى نفوس الناس دون مجافاة بين المعنى الأول والثانى أو تعثر أو فجوة بينهما .

أغراض شعره :

هو واسع الأفق فى شعره يتناول فيه جميع الأغراض الشعرية من غزل ومدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وتهنئة وحكم وغير ذلك .

ومن حكمه قوله :

قد يطلب الحسناء من لم يكن   كفؤاً لها للحمق فى عقله

قد يتساوى اثنان فى منصب ... وإنما التفريق فى سبله
ويفخر المـــرء بأفعاله ... لا بالذى قد مات من أهله

المصطلحات العلمية فى شعره :

تبدو المصطلحات العلمية فى شعره ولكن على قلة فمن ذلك قوله :

فمنصب المرء قرين له ... والشكل مجذوب إلى شكله
وقد ترى فرعين من دوحة ... تخالفا فى الحكم مع شكله

التاريخ الشعرى وبراءته منه :

أما التاريخ الشعرى الذى تهافت عليه الشعراء المعاصرون له نختموا به قصائدهم وسجلوا به كل حادث وافتنوا فى تناوله ، فقد تحرر « العطار » منه ولم نعثر فيما وقع بين أيدينا من شعره على استعماله هذا النوع .

* * *

نــــثره

جرى « العطار » فى انشائه على طريقة عصره وخاصة فى أوائله فالتزم السجع حتى لم تفلت منه جملة ، وتكلف الصنعة ما طاوعه جهده ، فكان نثره عكس شعره قيودا والتزامات فى النثر وسهولة وانطلاقا فى الشعر فى أغلب الأمر ، وقد أودع ما كتبه فى كتاب سماه « إنشاء العطار » وقسمه قسمين (كتابة الشروط والصكوك ، وإنشاء المراسلات الواقعة بين السوقة والمملوك وأثبت فى هذا الكتاب (من كل فن منهما قدرا به اللبيب عن غيره يستغنى ، فهو لكل كاتب عن الافتقار لسواه مغنى)

وكان له فى صباه أغراض دونها فى أوراق تلاعبت بها الأيدى ، ولم يبق منها إلا النزر القليل فلخص منها ما يحسن ايراده فى (المخاطبات) وترك (مالا يتعلق به غرض فى المكاتبات)

ولما كانت الأقلام فى هذه الفترة متقاصرة عن تصوير المشاعر وتسجيل الخواطر وتدوين الرسائل فى مختلف الأغراض ، وضع «العطار» لشتى المناسبات انشاء مختلفا يستعمله كل كاتب فى غرضه ، مراعيا مقام المكتوب إليه ، فإن كتب رسالة ترفع إلى أمير أو سلطان حشد له المدح والثناء ، أو لمرجو فى حاجة بسط إليه أكف الضراعة والاستجداء ، واستدر عطفه ونداه ، وإن خاطب عالما كان خطابه متسقا مع ما عرف به المخاطب من نوع علمه ، وراعى فى رسالته إليـــه ما يناسب من العبارات والتراكيب مستشهدا بالشعر حينا من نظمه وحينا آخر من محفوظه .

وبعد أن حشد فى القسم الأول من هـذه المخاطبات طائفة من الرسائل المتنوعة ، عقب بخاتمة (تشتمل على أبيات تورد فى أوائل الصدور ويستشهد بها فى أثناء السطور) وبطائفة أخرى من (شطور أبيات تحلى بها السجعات)

ثم كتب فى القسم الثانى ما يلائمه من رسائل أعدها لمن يعجز عن الكتابة فيستعين بها من صور مبايعات وصلح وحوالة وشركة وشفعة ووكالة ونحو ذلك .

* * *

نماذج من إنشائه

مما كتبه فى رسائل الإخوان

(الإخاء بيننا أدام الله سعدك وأثل مجدك ، وأورى زندك ، وأهلك ضدك وأجرى على الألسنة شكرك وحمدك .

فالناس أجدر من أن يمدحوا رجلا
حتى يروا عنده آثار احسان

قوى الارتباط بغيد الانحطاط، متزايد متصاعد ، عتيد أكيد ، لا يطمع واش فى نثر عقده ، ولا يوجب طول التباعد تناسى عهده ، كيف وأنت الجليل الذى عليه المعول ، والحبيب الذى آخر شوقى إليه أول ، لى بلقياك أنس وارتياح ، وبدارك غدو ورواح ، ومبيت ومقيل ، فى ظل عيش ظليل قوبل باجلال ، وعومل بإفضال

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مكان صالح ومقيل

يجد منك القاصد إليك ، والمستقر لديك ، ما تقر به عينه ، ويستقر أينه من نفيس كتاب ، ولذيذ خطاب ، وجليس أنيس ، ونديم نفيس .

مجلس تكثر الفوائد فيه وتسر العيون والأسماع

وكتب لعالم نحوى

ويقبل الأرض إجلالا ويشرح ما يحس من حرق الأشواق والقلق

ويشتكى بعض ما يلقى وأعجب ما رأيت أن تخمد النيران بالورق

ويبدى غراما تحرك سواكنه عوامل الاشتياق ، وحبا أضرمت ناره فى الضمير فكاد يشعله الاحتراق ، وينعت ودا ممتزجا بتوابع الثناء والمدح ويرفع أدعية صارت بها الأكف مبنية على الفتح ، ويصف أشواقا سكنت فى صميم الضمير ، وسلم جمعها من التكسير ، بعد دعاء إذا قصد باب القبول قيل ادخلوها بسلام ، وسلام أعطر من حديث النسيم بأخبار زهر الكمام ، وينهى بعد بث أشواق أصبحت بها الدموع فى محاجر العين معثرة ، ولو لم يقرأ إنسانها بمرسلات الدمع لقلت فى حقه قتل الانسان ما أكفره .

إنه إن تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد المخلص ، والمحب المتخصص ، فهو باق على ما تشهد به الذات العلية ، من صدق المحبة ورق العبودية ، ويخبركم بكذا وكذا . . . الخ »

السيد على الدرويش المصرى

المتوفى سنة (١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م)

نشأته وحياته :

هو « السيد على الدرويش » بن « حسن » بن « ابراهيم الأنكورى » ولد بالقاهرة فى غرة شهر المحرم سنة ١٢١١ هـ ، ولما شب ألحق بالأزهر فتلقى علومه على جلة من شيوخه ، وكان منذ صباه ميالا إلى الأدب وفنونه ، فأقبل على كتبه يغذى ملكته بقراءتها ويرتوى من محاسنها ، ويستظهر ما يستطيبه منها ، وقلب فى كتب اللغة فعرف أسرارها ، ووقف على مكنونها وكان هواه إلى الهندسة والحساب أيضا فأجال فيهما نظره ، ثم تفرغ للكتابة وقرض الشعر ، وحرر الرسائل ونظم جمهرة من الأصوات (أدوار الغناء) واشتهر بصناعة المواليا والموشحات ، وتهيأت له بأدبه وشهرته منزلة رفيعة لدى الوجوه وأمراء العصر حتى أصبح شاعر المرحوم «عباس الأول»

وكان غنيا بماله وعقاره عن التكسب بشعره معروفا بميله إلى اللهو والطرب غزير المدح لمن يحبه لاذع الهجاء لمن يبغضه ، ولعله امتاز بهذين من الشعراء الأزهريين الذين لم يكونوا فى ذلك مسرفين ، كما كان حاضر البديهة عذب المفاكهة ، حلو المنادرة ، كانت وفاته فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة .

شعــــره :

عصر الدرويش عصر صناعة وزخرف وطلاء وتعمل وكلف بالبديع وإغراق فيه على تفاوت الشعراء فى ذلك ، ولو أن الدرويش اقتصر فى شعره على الحظ الذى تناوله المعاصرون له من الصناعة والمحسنات لكان من أجودهم شعرا الا أنه أغرق فى البديع ، وكلف بالزخرف يحشده حشدا ، ويشده شدا ،

ويسرف فيه إسرافاً ، ويتصيده بسهولة ويرتقبه رضيه الذوق أو أباه ، وبذلك استغلق شعره ، والتوى قصده ، وانحط نسجه ، وضلت معانيه فيما أغرى به من صنعة وما سهر عليه من زينة .

فمن جناسه الذى يستعمله فى شعره قوله :

أيام أفراح هى الحسن   صدق اليمين بأنها يمن

فالجناس بين اليمين واليمن وهو متكلف الا أنه غير موغل فى الثقل

وقوله :

كالروض مختلف الثمار مهذبا   أفنانه من عنده فن

فالجناس بين أفنان جمع فنن (وفن)

وقوله :

أملى وعلم مآله أعيانى   أو لم تكن منقولة أعيانى

فالجناس بين أملى ومآله وبين (أعيانى) بمعنى أثقلنى و (أعيان) المضافة إلى ياء المتكلم جمع عين

وقوله :

صفو الليالى أحسنا   يمن تراهم أحسنا

فالجناس بين أحسن ضد أساء وأحسن وصفا من الحسن .

هذه الجناسات ليس فيها ما واتاه عفوا ، أو انساق إليه دون استكراه بل احتفل الشاعر بها فشدها شدا أضاع المعنى الشعرى وجرد الشعر من الجمال والروعة .

ومما أسرف فيه من الجناس وكان غاية فى الثقل والتعمل والنبو والقلق قوله :

جسمى لعرى غدا بالبرد مكتسيا   ليلا وشمس نهارى بردى الثانى
بردان لا نفع للبردان عندهما   وجبة البرد تكو كل عريان
أخاف أطلب بردا أستغيث به   يرده بردا بالغيث حرمانى

لا أسأل الحظ برداً أن يحرقه ... والبرد والبرد فى التحرير سيان

فانه مازال يكرر لفظ (البرد) ويديره فى شعره فى أوضاع مختلفة طلبا للجناس حتى قبح نسج الشعر وسمج نظمه ، وأصبح غاية فى السخف و(البرودة) ولعل كلفه بالجناس أوقعه فى الخطأ باستعمال كلمة بردان العامية وفصيحها بارد وبُراد وبَرُود وبَرْد

ومن الطباق الذى يستعمله قوله :

بيت جديد قديم المجد عن سلف ... بسعد أنجالهم قد شرف السكن

فقد طابق بين جديد وقديم وقوله :

فكم قالت لها الأخرى هلمى ... وكم قالت لها الدنيا تأنى

فقد طابق بين الأخرى والدنيا :

ومن أنواع البديع التى يستعملها فى شعره مراعاة النظير كقوله :

لهم جامع من غير باب فكم عوت ... عليهم من المحراب فى الصبح جرذان

اذا سجدت حيطانه فهى ركع ... وتسمع تسبيح الحصا منه سقفان

وقد أخطأ إذ جمع سقف على سقفان والصحيح سقف وسقوف

ومما أولع به من التورية فى شعره قوله فى مليح اسمه رضوان

قد أكثر البعض فى إنكاره سفها ... يوم القيامة جنات ونيرانا

فأبطل الله فى الدنيا أدلتهم ... لما أراهم من الجنات رضوانا

فيحتمل أن يكون أراد (رضوان) خازن الجنة ، أو المليح المسمى (رضوان) أو الرضوان مصدر كالرضا من رضي (ورضوان من الله أكبر)

ويورّى فى كتاب اسمه « مراتع الغزلان » فيقول :ـ

يا واردا سلسال ذا البستان ... منك الدعاء لصادر ظمآن

واسمع قارى الحب فى أقمارها   فلقد سقاها كأسه وسقانى
واسترحم المولى شهيدا فى الهوى   أبدا صريع (مراتع الغزلان)

فالتورية فى قوله (مراتع الغزلان) إذ يحتمل أن يكون اسم الكتاب أو مواطن النسوه الشبيهات بالغزلان

وهو يغرى بالبديع أيضا فى الموشحات و (الأدوار) الغنائيـة فتراه يلتزم الجناس فيهـا ويستعمل التورية ما استطاع ، كقوله :ـ

يافاتك الفتـان   ناسى ناسى أهواء
وخـده النعمان   كاسى كاسى آه . . . وآه

فقد أوقع الجناس بين ناسى اسم فاعل و (ناسى) بمعنى أهلى ، وأوقعه بين كاسى اسم فاعل من كسا و (كاسى) التى هى اناء الخمر مضافة إلى ياء المتكلم ، كما أوقعه بين أهواه ، فعلا بمعنى أحبه ، وآه ، ووآه اسمى فعل بمعنى أتألم ، وفى ذلك من التكلف والتشدد ما فيـه ، ويقول :ـ

يا من على خده دينار   صرفت فيـه فضة دمعى
جد لى ببوسه قال دى نار   والبوس محرم فى شرعى

ففى كلمة (دينار) الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون مكونة من (دى) اسم الإشارة بالعامية (ونار) أى هـذه نار لا تطيقها ، وأن تكون النقد المعروف من المذهب ، والمعنى هات دينارا ان أردت القبلة .

ولوعه بالتاريخ الشعرى

وهو مفتون بالتاريخ الشعرى وما زال يستعمله فى شعره حتى عزف به ومهر فيـه حتى ما كانت تمر به حادثة إلا أرخها عفو الساعة [١]

---

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ٤٦

فمن ذلك ما قاله يؤرخ به إنشاء قنطرة

انشاء ممدوح الملا من عدله الدنيا ملا
أعنى الوزير محمدا رب المحامد والولا
لقبو له قد أرخوا إنشاء قنطرة العلا
١٣٢ ٧٥٩ ٣٥٢
سنة ١٢٤٣ هـ

ويؤرخ لتجديد القصر العالى فيقول :ـ

قصر به نور السعادة آهل إسعاد منشئه به متواصل
فكأنه الفردوس فى أوصافه ظل وفاكهة وماء هاطل
وبلابل الأغصان فيه ترنمت فرحا فنقطها اللجين الوابل
والسعد نادى بالسرور مؤرخا قصر به نور السعادة آهل
٣٩٠ ٧ ٥٢٦ ٥٦٨ ٣٦
سنة ١٢٥٧ هـ

ومما كتبه ليؤرخ به

تاريخه كمولد السيد أباظه حسن
١٠٠ ١٠٥ ١٠٥ ١٠٩ ١١٨
سنة ١٢٣٢ هـ

وهو يستعمل الشعر فى التاريخ للمناسبات التافهة فإذا مات حماره قال :ـ

الدرويش مات حماره
سنة ١٢٤٦

وإذا مات حمار (خليل) قال :ـ

قد نفق حمار خليل
سنة ١٢٥٣

ويموت خادمه فى ذلك العام الذى مات فيه حماره فيؤرخ كما أرخ له فيقول : ـ

قد مات خادمى أحمد

سنة ١٢٥٣

وإذا جدد منظرته كان تجديدها عمارة تستحق التايخ فيقول : ـ

جدد أحمد منظرة

سنة ١٢٥٩

هذا وسنورد أبياتا متصلة من شعره لتكون أنطق دلالة على مذهبه فى الشعر وأكثر توضيحا لمسلكه فيه ، مما هو من أغراض شعره المختلفة

فما قاله يمدح المرحوم « محمدا عليا » ويؤرخ لامتحان المدارس

أيجهد فى سوى العلم المعانى ... ومعنى الأنس إدراك المعانى ؟

كفانى أن رب العلم باق ... على الدنيا وهل باق كفانى ؟

فلو عرف الكمى مجال علم ... لزاحمنا عليه باليمانى

وسن يراعة بسمت بنجح ... متى عبس البنان من الطعان

بديوان المدارس نعم يوم ... ولا أنساه يوم المهرجان

بأنجاب جميعهم تحلى ... بعقد النجم مسعود القران

وقال لهم نزال لدى المعانى ... وراهنهم فجالوا فى الرهان

ترى شجعانهم بثبات جأش ... إذ عرف الجبين من الجبان(١)

وهم يتنافسون بكل فضل ... ليمتحنوا وعند الامتحان

كأن جوابهم لمغالطيهم ... (عتاب بين جحظة والزمان)

فهم سادوا بمسودّات فضل ... بها قد بيضوا وجه الزمان

معانيهم تصرف نحو فقه	ومنطقهم بديع فى البيان
ولا عجب إذا كان المربى	مربى الروح بالعقل المصان
خديو عدله فى كل دان	وفضل علائه فى كل آن
معان من معالى أريحى	أريج من زهور فى جنان
به الأوطان مثل الروض أضحت	وفيها مدحه كالأقحوان
قد اكسب هيئة الدنيا جمالا	وجمل مصر منه بامتنان
بترجمة العلوم وكن عجما	وتأليف اللآلى والجمان
ينظم فوق صدر الفضل عقد	ونثر ذاك منه النيران
بلين تمدن وشديد دين	فريد ماله مثل يدانى
به الإفضال نادى الفضل أرخ	أجل كرامة للامتحان

٣٤ ٦٦١ ٥٦٠

سنة ١٢٥٥ هـ

فهذه الأبيات حشد الشاعر فيها ما قدر عليه من أنواع البديع المشدود وألوان الصنعة المتكلفة المستكرهة حتى لكأنها مقصده الأول وغرضه الأسمى فجاءت لجة مقفرة من جمال الشعر ، لا تتنسم منها روح الشاعرية الخصبة ، بل لعلى لم أهتز لبيت واحد منها بخيال يطرب أو تصوير يعجب .

ودعاه صديقه « السيد أباظه » لمقابلته أحد الأمراء فكتب إليه :ـ

غيرى تلفته تلك الخيالات	فهل لخطك فوق الماء إثبات
لا تحسب الفضل عند الكل منقبة	إحسان قوم لدى قوم إساءات
وحاسب النفس عن ساعات ما اشتغلت	فى أى نفع مضت تلك السويعات

---

(١) يقال امرأة جبينة وجبين وجبانة .

قرب صديقك وابعد عن عدوك فى ... سر إذا منعتك الجهر حاجات

الناس بحر فمن والى سباحته ... لا بدّ يعيا وفى البر السلامات

فوحشة الناس أنس أو يمازجهم ... فتى بضاعته فى الناس مزجاة

إن عاتب الدهر غيرى لا أعاتبه ... إذ موجب العتب فى دهرى سجيات

فأكثر الناس لم أفرح لعيشتهم ... فى أى حال ولم أحزن إذا ماتوا

ولا أضر إذا غابوا وإن حضروا ... فلا أسر ولم أنظر إذا فاتوا

فللدراويش حالات مناقضة ... وللمجانين أوقات وساعات

وفى الحق أن هذه الأبيات لم تخل من المعانى الشعرية ، ففيها دلالة على مذهب الشاعر فى الحياة وأنه لا يعبأ بكبار الناس ولا يتهافت عليهم فما ذلك فى رأيه إلا خيالات ، هى أشبه عنده بخطك فوق الماء لا ثبات له ولا أثر ، وأنه لا يحمل لأكثر الناس فرحا إذا عاشوا فى أى حال ، ولا يحزن عليهم إذا رحلوا عن الحياة ، وإن غابوا فلا يضره غيابهم ، وإن حضروا لا يسره حضورهم ، وإن فاتوا لم يكلف نفسه نظراً .

وهو يلتمس لنفسه العذر بأنه من « الدراويش » (وفى ذلك تورية باسمه لطيفة) وللدراويش حالات مناقضة ويحسب نفسه فى المجانين ليقوم جنونه عذراً عند صاحبه وذلك عدا ما فى الأبيات من حكم جرت على لسان مجرب خبر الحياة وعرف الناس ، وأنه وإن لم يدع فى هذه الأبيات ما جبل عليه من حب الزخرف والطلاء كان غير مسرف وذلك مما أبقى لها كثيراً من الجمال وأهلها لغير قليل من التقدير وحسن الوزن .

ومن شعره الذى فيه شىء من الطرافة وحسن السبك ما قاله من قصيدة يعتذر بها للشيخ « البديرى » .

بدر صفا بعد تكدير النوى فيه ... وجاد لى بعد أن زالت نوافيه

فروح الروح وأغنم نور بهجتها ... بمفرد قد سما عمن يحاكيه

قل (للبديرى) واستعطف أصالته ... فإن عونى عليه فى معاليه

قد يهمل النقع فى البيدا لخسته ويرجم الغصن إن طابت مجانيه

فإذا أغضيت عن الجناس فى البيتين الأولين ، أعجبك من الشاعر تعبيره (استطف أصالته) وأنه جعل عونه عليه فى معاليه ، وراقك تشبيهاه المحكمان فى البيت الأخير .

وقال مضمنا .

وغادة غار منى زوجها فسعى يريد قتلى وفى أحشائه ضرم

يا زوجها كف عن قتلى مسامحة بينى وبينك لو أنصفتنى رحم

وقال مضمنا أيضا .

قد قلت لما بدا يختال فى خفر وهز عطفا كغصن البان ممشوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ومما قاله متغزلا

تعالى من أعار الغصن لينا وأحرم من جناه العاذ لينا

يهنأ العاشقون بطيب عيش فما أحلى عـــذاب العاشقينا

سعدنا بالتواصل بعد هجر وقـــد كنا بجفونه شقينا

فقل للصابرين على هواه دعوا العـــذال فيما يفترونا

(سيخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنينا)

أرى لى فى محبتـــه يقينا فهـل من لحظه شيء يقينا

إذا ما كنت تهوى البحر فينا فدع هـذا لقوم آخرينا

فمن هدب ومن شعر وخال يوالى المسلمون الكافرينا

فانا فى هواك عبيد رق على حب وما كنـا سبينا

فإن تمنن بإحسان علينـا (فان الله يجزى المحسنينا)

فقل للجاهلين بجـاه حسن لظبى لم يضف للجاه لينا

رأيتم طرة سلبت فؤادى بصفراء تسر النـاظرين

وهذه أبيات تمثل غزل العلماء الجاف فليس فيها من لوعة ولا صبابة ، وانما هي شعر جدب لا تهتز له نفس ولا يمس عاطفتك أثر منه ، عدا ما فيها من الجناس الذى حرص عليه ، والاقتباس الذى سعى إليه وساقه فى غير موضعه « سيخزيهم وينصرهم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنينا » و « ان الله يجزى المحسنينا » .

ولكن شعر الدرويش لايخلو أحيانا من شعر مقبول ونظم على طرف من الجمال والحسن ، ويظفر بذلك كلما تحرر من قيود التكلف وآثر السهولة والتطلق .

ومن ذلك قوله : —

ألا محب يلاقينى أطارحه هوى حبيب منيع الدار نازحه

رأيت فى الغصن شيئا من رشاقته

فكدت من فرط أشواقى أصافحه

حتى يؤجج نار الحب فى كبدى ظلما وقلبى مع هذا يسامحه

كأن شمس الضحى من طوقه شرقت

لنا ومن فرعه عادت بوارحه

وان جفانى لبعدى عن منازله واعتاض بى مائقا يهجوه مادحه

فطالما قصرت أوقاتنا معه فى ظل بان يثير الوجد صادحه

ورب ماض من الأعراب ذى شرف

تصافح الهام فى الهيجا صفائحه

سابقته للنعانى ثم قدمنى قلب الى الذروة العليا مطامحه

وبات يسرى الى شأو ليدركه كالوعل يمشى إلى طود يناطحه

ومهمه نازح الأرجاء ذى محن كأنما لجج خضر مناوحه

قطعته وركاب الركب واقفة سيان سانحه عندى وبارحه

حيا العقيق من الوسمى صوب حيا

وجاد مغناه غاديه ورائحه

فكم فؤاد أبى فيـه منطرح وعاشق سفحت فيـه سوافحه

فما من ريب فى أن فى هذه الأبيات غير قليل من الرصانة وجمال الشعر وقوة التصوير ولم يتهيأ ذلك للشاعر إلا بتخلصه شيئاً من الأغلال التى كان يرسف فيها من التعسف وكريه الصناعة .

ومن أبياته الرقاق ما قاله فى الهرمين :ـ

أنظر إلى الهرمين واعلم أننى فيما أراه منهما مبهـوت

رسخا على صدر الزمان وقلبه لم ينهضا حتى الزمان يموت

ديوان شعره :

وقد جمع تلميذه « مصطفى سلامة النجارى » شعره ونثره فى كتاب سماه « الإشعار بحميد الأشعار » وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ هـ ، ورتب الديوان على ثلاثة أبواب ـ الأول : فى الصناعات مرتبة على السنين ، والثانى : فى غير المصنع مرتباً على حروف الهجاء ، والثالث : فى النثر والأدوار ، وقد نظم الدرويش جملة متون وأراجيز منها متن التنوير ومنظومتان فى العروض والقوافى افتتح الأولى بقوله :

إلهى لك الحمد فضـل مسلما

على المصطفى والآل والصحب تفضيلا

واستهل الثانية بقوله :

لك الحمد فاللهم صل مسلما لطه وآل فضلهم مد أبحرا

وبعد ففى نظم عروضا قوافيا على هو الدرويش وازن أسطرا

وهو نظم ضعيف منحل السبك كما ترى :

نـــثره :

أما نثره فهو صورة من شعره فى التكلف والتعسف ، يلتزم فيه السجع حسن أو ساء (ولولا ماكانت تجره إليه الأسجاع من الحشو والخروج لعد من كتاب الطبقة الأولى فى منشىء ذلك العصر[1]) .

وقد تضمن نثره الباب الثالث من كتاب « الإشعار بحميد الأشعار » وله مقامات ورسائل فيها روعة ورصانة ، فمن نثره ماكتبه أحد أصدقائه وقد دعاه للحضور .

« سيدى كان مأمولى الحضور ، لأحظى بالحبور ، لكن قابلنى القدر بنحسه وحضر لى من قد بناه بنفسه ، فكادت النفس تحسن لى أن أقتله بسيف على ولو كنت من شيعته ، لحضر لأعتابكم العبد من ساعته . ولما لم تكن لى وسيلة حتى أشاهد بطرفكم كل حيلة ، قلت حسبى الله ونعم الوكيل ، واعتكفت على إسماعيل

ومن مقامة الفضيلة والرذيلة قوله :ـ

« وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك من موجب الذم ومن لا يتحاشاه ، وإن الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الإنسان مجبول على الميل للأولى والفرار من الأخرى على حسب آراء العباد وعوائد البلاد ، فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتأخرين وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، مع تفاوتهم فى طبائعهم وأشكالهم وصنائعهم فمنهم ذو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل إلى ترغيب الأول ليجتهد فى الازدياد ، والترهيب للثانى ليتطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، الا باللسان الآتى بسحر البيان ، فقد جاء فى الحديث أن إيمان المرء ليربو إذا مدح ، وربما يصح الجسم إذا جرح » .

مؤلفاته

من مؤلفاته كتاب الدرج والدرك ، وهو كتاب وضعه فى مدح من

---

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ٤٧

اشتهر فى أيامه بكريم الصفات وجميل المزايا وذم ذوى الدنايا والمثالب، على ما هداه ميله وأوحى إليه عقله ، جعل الدرج للممدوحين والدرك للمذمومين روى تلميذه « مصطفى النجارى » أن هـــذا الكتاب استعاره منه صديقه « حافظ بك مصطفى » ولم يردّه .

وله كتاب آخر اسمه « تاريخ محاسن الميل لصور الخيل » وهو كتاب وضعه تلبية لرغبة الخديو « عباس الأول » ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها وله رحلة لم تطبع ولم يتيسر الاطلاع عليها ، وله سفينة الآداب ، استعارها منـه صديقه « على أغا الترجمان » ولم يردها .



الشيخ محمد شهاب الدين المصرى

المتوفى سنة (١٢٧٤) هـ — ١٨٥٧ م)

نشأته وحياته :

هو « محمد » بن « اسماعيل » بن « عمر المصرى » الشهير بشهاب الدين ولد بمكة سنة ١٢١٠ هـ ، ثم وفد إلى القاهرة صبيا ونشأ بها والتحق بالأزهر ، فطلب العلم على شيوخه ، واختص منهم بالشيخ « حسن العطار » والشيخ « العروسى » وكان مفطورا على حب الأدب ، بارع النظر فى فنونه دائم التوفر على مطالعته ، ونال حظا وافرا من علوم الرياضة كالهندسة والحساب والموسيقى والألحان ، وكاتب أدباء عصره ، ويعمه الطلاب للاقتباس من أدبه ، والانتفاع بمعارفه ، وممن تخرج عليه فى فقه اللغة والبيان الأديب المعروف المرحوم الشيخ « أحمد فارس الشدياق » .

وقد تولى « شهاب الدين » تحرير الوقائع المصرية فكان أحد من رفعوا شأنها ، وهذبوا لغتها ، حيث كان الشيخ « حسن العطار » رئيس تحريرها فلما تولى الأخير مشيخة الأزهر وترك رياسة التحرير أسندت إلى «شهاب الدين» فأطلق يد الشيخ « أحمد فارس الشدياق » فى أنشاء الفصول وتحبير الرسائل وظل هو مشرفا على تحريرها حتى سنة (١٢٥٢ هـ — ١٨٣٦ م) ثم جعل مصححا بالمطبعة ببولاق .

وكان مداخلا للكبراء موصولا بالعظماء نديما مسامرا فكها ومحاضرا ذا نكتة بارعة وبديهة مساعفة ، وحديث طلى ، وقد تسامع الناس بهذه المواهب ونمى للخديو « عباس الأول » براعته وسعة روايته وخفة روحه فقربه وأدناه من مجلسه ، وجعله صاحب أسماره وكبير ندمائه ، وأباح له الدخول دون إذن عليه ، وبلغ من الحظوة والمكانة ما لم يبلغ شاعر معه (إذ جعل فى كل قصر من قصوره حجرة يبيت فيها الليلتين والثلاث إذا طلبه

للمجالسة والمنادمة[1]) فأفاض عليه من نعمه وأغدق عليه من كرمه وصار شفيعا لديه فيما جل من الأمور

وكانت له مع « عباس » نوادر ومفاكهات منها ما رواه صاحب أعيان القرن الثالث عشر وذلك أن « شهاب الدين » كان جالساً فى حجرته بأحد القصور ومعه بعض جلساء الوالى ينتظرون الإذن بالدخول عليه ، فقال فى عرض الكلام .

يقولون : إن البغلة لا تحمل أفلا يكون ذلك بسبب رطوبة أو ما أشبهها مما يمنع الحمل ، وعند الأمير أطباء كثيرون فلو أنه أطال الله بقاءه أمر بعضهم بالبحث عن سبب هذه العلة وإزالتها ، فلست أشك فى أنها تحمل بعد ذلك وأسرع بعض العيون فأبلغ عباسا كلامه فجاء بعد هنيهة أحد رجال القصر وقال له يا أستاذ يقول لك (أفندينا) أننا سنأمر بعض الأطباء بما أشرت ولكن إذا لم تحمل البغلة ماذا يكون ؟ فبهت القوم لنقل الحديث بهذه السرعة إلا شهابا فأنه وقف وقال : أبلغ مولاى أن شهابا له كذبتان كل سنة أيام الباذنجان هذه إحداهما[1] .

ويرجع اتصال « شهاب الدين » « بعباس الأول » إلى ما قبل ولايته على مصر حيث كان « كتخدا » لجده ، فقد كانت للشاعر تهان متعاقبة لفتت نظر « عباس » إليه ، حتى إذا ما صارت الولاية إليه قربه وأدناه .

ولما صارت الولاية « لسعيد باشا » اتصل الشاعر به وأجزل له المدح وأزجى له التهانى فى كل مناسبة إلا أنه لم يجد من خصب جنابه ما وجده من « عباس » فقد كان الثانى أشد حدباً عليه وتكريما له وبرآ به .

ثم بدأ المترجم ينقطع للدرس ويعكف على التأليف وينشر أدبه على الناس حتى استأثر الله به .

---

(١) أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور باشا ص ١٣٨

وكان ذكياً عبقرياً ممتازاً بقوة المناظرة ورصانة الجدل وقدرته على الحوار راوية كثير الإنشاد يتنادر فى مجالسه بطرائف من شعره ويطرف مجالسيه بألوان فاتنة من أدبه ، فلا يمل له حديث ولا يغمض عنه جفن .

شعره :

شعر « شهاب الدين » من أجود الشعر فى هذا العصر ، وهو صورة صادقة للحياة الاجتماعية فى زمنه ومرآة صافية تتمثل فيها حياته وصفاته ، وهو يقول الشعر غير مستعص عليه، وإنما يواتيه طيعاً وينقاد إليه غير متأب .

وأكثر ما فى شعره إنما هو المدائح التى وجهها « لمحمد على ولعباس » الذى كان شاعره ثم « لسعيد » من بعده ، بل انه ليمدح كثيراً ممن لهم مقام كريم وجاه رفيع ، فيمدح « أدهم باشا » و « مختار بك » ناظرى المعارف ومديرى إدارة المدارس ويمدح « عارفا بك » شيخ الإسلام بتركية ، والشريف « محمد بن عون » وأستاذيه الشيخ « حسن العطار » والشيخ « محمد والعروسى » كما يمدح الشيخ « أحمد الصائم » والشيخ « محمد العباسى المهدى المفتى » والشيخ « محمد عليش » شيخ المالكية ، والسيد محمد البكرى » نقيب الأشراف وغيرهم ، ولعل لرقة حاله سبباً يتصل بافراطه فى المدائح فقد نشأ وزاناً صغيراً يزاول ذلك فى أسواق البيع ، فاتخذ من هذه المدائح عنوانا له ليحيا حياة رغد وكرامة .

وقد كانت له مدائح نبوية إلا أنها لم تبلغ شيئاً من شعره بجانب ما بلغه المدح الآخر .

فما قاله يمدح به « محمداً علياً » وليكتب على مسجد القلعة الذى أنشأه سنة ١٢٦١ هـ .

مليك جليل الشأن ليس كمثله ... جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمد آثار على مآثر ... عزيز افتخار ساد كل مسود
هو المنهل العذب الذى دون ورده ... تزاحمت الأقدام فى كل مورد

هو الغيث يحيي كل قطر بجوده
فيخضل من قطر الندى وجهه الندى
هو الشمس لم تحجب سناها غمامة
ولا أنكرت أضواءها عين أرمد
له همم تسمو إلى هامة العلا إذا حددت لا تنتهى بالتحدد
مبان إذا أمعنت فيها مؤرخا تريك على قدر العزيز محمد
٦٣٠ ١١٠ ٣٠٤ ١٢٥ ٩٢
سنة ١٢٦١ هـ

ومما امتاز به شعر « شهاب الدين » السلاسة والسهولة وخضوعه للشاعر يصرفه فى كل أمر ويطوعه لكل غرض فينساب بين يديه عذباً رقيقاً ويشف عن المعنى الذى سيق له بلطف وسلاسة ، وذلك الذى جعل « شهابا » يستخدم شعره فى التعبير عن رغائبه والإفصاح عن آماله ومطالبه ، وهو فى هـذه الأغراض لا تعقيد فيه ولا غموض . يحتاج إلى بغلة يركبها وله على « عباس » دالة فيرفع إليه هـذه الأبيات الطريفة فيهتز لهـا ويجيب رغبته وذلك حيث يقول :

تبت عن مدح غير بابك يامن أنت ذخرى وموئلى وثمالى
وتجردت عن سواك لعلى أكتسى خلعة ألسنا المتلالى
وترجيت من جميل العطايا بغلة حالهـا يليق بحـالى
أن بدا لى ركوبها تهت عجبا فى ازدهاء وبهجة واختيال
أو بدا لى ارتباطها فاجتلاها فى مجالى الجمال زين مجالى
فتفضل وامنن وأنعم على من هو عبد من بعض بعض الموالى

وترق حاله ويشتد عسره فيكتب إلى « عبد الباقى بك » خازن خزينة الخديو فيقول :

أصبحت فى مضايق من فاقة وعطب
وصرت محتاجا إلى نوالك المستعذب

وأنت باقى الكرما   وخير سامى الرتب
فاصرف إلى ما تشا   من فضة أو ذهب
حتى أعود ساعيا   فى جمع شمل الحسب

ويكتب إلى « أدهم باشا » يشكو إليه ضيق يده فيقول من قصيدة طويلة :

فبادر إلى الشكوى وقل إن صاحبى   محا رسمه عصف الرياح الروامس
وقد ضاقت الدنيا عليه وأظلمت   وكان شهابا فى الدياجى الدوامس
فوسع عليه بالذى أنت أهله   وخلصه من أشراك ضيق المنافس

ولم يكن « شهاب » يقرض الشعر يطلب به بغلة أو ينشد فضة أو ذهباً فحسب بل كان ينظمه كلما عرضت له حاجة أو دفعته مسألة ، فإنه لينظمه ملتمسا به من أمين (جمرك) بولاق « على بك حسيب » شيئا من السمن لندرته فيقول له :

أليـة بالسمن أو بزبدة   لله در أصلها الحليب
لأعرضن الحال للفتى الذى   رجاء من يرجوه لا يخيب

وهكذا طوع الشعر فنظمه فى حاجته ومسألته وعبر به عن شكايته وأمله وأودعه مطامح نفسه جلت أو هانت .

« وشهاب الدين » يخضع فى شعره لما شاع فى عصره من طلب الزينة ونشدان الصنعة والجرى وراء الطلاء فيغرى بالجناس وخاصة فى مطالع القصائد فيقول فى مطلع قصيدة يوجهها إلى « عبـــاس » ويستهديه (بغـلة) :

أكؤس تجلى ببنت (الدوالى)   أم شهى الرضاب فيه (الدوالى)

فيوقع الجناس بين (الدوالى) بمعنى العنب ، وكلمة (الدوالى) الثانية المركبة من (الدوا) مقصورا مضافا إلى اللام المقرونة بياء المتكلم .

ويقول فى مطلع قصيدة يهنىء بها عباسا بنجاته من مرض .

تاب الزمان وقال إنى (نادم)　　فادعوا الندامى والمدام و(نادمو)

فقد أوقع الجناس بين (نادم) من الندم وفعل الأمر (نادموا) من المنادمة .

ويقول أيضاً فى مطلع قصيدة يهنئه بها على أثر عودته من الآستانة .

شرح الصدور قدوم أعدل (وال)　　فأدر مدام الإنس صاح و(وال)

فالجناس بين (وال) الأولى بمعنى راع والثانية فعل أمر من الموالاة .

ويولع بالتورية لاسيما فى « شهاب » كنيته فيستعملها فى شعر طبعة حينا وعصية حينا ، ومن ذلك قوله:

هاك منى وصيفة بنت فكر　　مثلها خادم ومثلك يخدم

حرست فى سماء حسن حلاها　　(بشهاب) به الشياطين ترجم

ويقول فى مدحه « عباسا الأول » .

هاك منى فريدة بنت فكر　　ما اعترتها يد الخنا بمساس

لو أتاها الشيطان يسترق السـ　　ـمع رماها (شهابها) بانتكاس

ويقول إذ يمدح الشيخ « أحمد الصائم » أحد شيوخ الأزهر .

هذا شهابك بالمرصاد يثقب من　　يسّمعون وترديهم قوافيه

فقد استعمل كلمة « شهاب » موربا بها بين معنيها (كنيته) (والشهاب الذى ترجم الشياطين به المذكور فى قوله تعالى « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »

ويتناول المصطلحات العلمية متأثرا بها فيقول

رطيب قوام أهيف القد لم تدع　　ليانة عطفيه قياسا لقائس

فإن قسته بالبان فالفرق ظاهر　　وإن بالعوالى فهى غير موائس

فالقياس هنا من مصطلح علم المنطق .

ويشير إلى علل الصرف فيقول

علل الصرف فى الضرورة تلغى   كيف ذو الصحة اختيارا يعل

ويغرق فى مصطلحات علم النحو فيورى بها ويقول

رأيت « حالا » « مضى » « فعل »   « أبرز » فى شأنه « الضمير »

فكل هذه الكلمات مصطلحات نحوية ودّى بها الشاعر عن معانيها النحوية وغير النحوية .

ولشهاب الدين كتابات لطيفة يعبر بها مبتكرا لها فهو يكنى عن المطر (بابن السحاب) فيقول

زوجوها (بابن السحاب) فجاءت   من درارى حبابها بذرارى

ويكنى عن (الخمر) (ببنت الكرم) فيقول

(بنت كرم) عذراء شهد لماها   كشذا المسك فى مذاق العقار

وعن القصيدة « ببنت فكر » و « وليدة فكر » و « وصيفة » فيقول

هاك منى خريدة « بنت فكر »   ما اعترتها يد الخنا بمساس

ويقول خدا « وليدة فكر » راق منظرها

كأن ريقتها ضرب من الضرب

ويقول أرجو قبول « وصيفة » قد قلدت

بحلاك عقدا لم تنله وصائف

وشعر « شهاب الدين » من أوضح الشعر فى هذا العصر وأسهله طريقا وأرقه حاشية وهو أقل متكلفى الصنعة وطلاب المحسن تعقيدا وغموضا ، وهذه المحسنات التى تشيع فى شعر « شهاب الدين » لا تؤثر فى جمال شعره كثيرا فتراه على غير قليل من السلاسة والوضوح وجمال المعنى — ومن رقيق شعره ما قاله متغزلا .

بروحى من لغصن البان شابه ومشروب الطلا بلماه شابه
مليح لم يخط له عذار وفى رقى له أبدا كتابه
بدا العقد الفريد بفيه نظما وحكم فى ديوان الصبابة
ومر فلم أجد صبرا عليه وأحشائى ترى عذبا عذابه
رمى قلبى بسهم قد مضى فى رميته ولم يخطىء مصابه
وراح وقد بدا برق الثنايا ودمعى هاطل يبدى انسكابه
يلوح وجهه بدر ولكن عليه من ذوائبه سحابه
بخد روضة يرعاه طرفى وقلبى بالجوى يصلى النهابه
يدير من الحديث عتيق خمر فيسكرنى ولم أطعم شرابه
أراه فى محاسنه عليا ولكن ما تنزل للصحابه
سعيت فزرته فازداد تيها وولى معرضا يولى اجتنابه
أنا الجانى على نفسى لأنى دخلت على عزيز الغاب غابه
فبدلنى بنوم الليل سهدا وعوضنى الشجون على الدعابة
سألقى منه غايات الأمانى وسوف تكون عقباها عتابه

ولا شك أن هذه الأبيات على حظ غير قليل من الجودة والرقة والوضوح وخصب المعانى .

ونظم الأبيات الآتية لترسم على مائدة الطعام

أيها السيد الكريم تكرم وتنازل ما شئت أكلا شهيا
وتفضل بجبر خاطر من هم أتقنوا صنعه وخذ منه شيا
وتحدث على الطعام وآنس واحدا واحدا بشوش المحيا
واستزدهم أكلا وقل إن هذا طاب نضجا وصار غضا طريا

فهلموا بنا ومدوا اليها أيديا باعها ينال الثريا
ثم قل يا أحبتى هل لكم فى بعض شىء من النبيذ المهيا
ولئن ساغ شربه للتمرى وكلوا واشربوا هنيئا مريا
وإذا ما أكلت ضيفا فأرخ ان هذا لرزقنا كل هنيا

٥١ ٧٠٦ ٣٨٨ ٥٠ ٦٦

سنة ١٢٦١ هـ

وهذه الأبيات متوسطة الجودة إلا أنها طريفة الموضوع .

* * *

آثاره

ديوان شعره

ديوان شعره الكبير الحجم الواقع فى ٣٨٠ صفحة المشتمل على شعره الرقيق بالنسبة لعصره وهو مرتب على حروف المعجم طبع بمصر سنة ١٢٧٧ هـ

سفينة الملك ونفيسة الفلك

وهو كتاب جليل أشتهر الشهاب به أودعه كثيرا من الموالى والموشحات والأهازيج والأزجال التى يتغنى بها ، وقد جدد بهذا الكتاب دارس الغناء العربى (وافتتح مغالقه بعد إيصادها من عهد الأصبهانى ومن سار على نهجه ممن جاء بعده وأوضح معالمه وأبان ما استعجم من آياته فكان فيه المبرز من بين أدباء المتأخرين والمعلم الأخير الذى لم يأت مثله الى الآن [١] وهو مرتب

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ٣٦

على ثلاثة أبواب — الأول فى الموسيق ، والثانى فيما نظمه فيها ، والثالث فى الألحان — وقد طبع بمصر غير مرة ولما أتمه سنة ١٢٥٩ هـ قال فى تاريخه

هذى سفينة فن بالمنى شحنت والفضل فى بحره العجاج أجراها

واذ جرت بالأمانى فيه أرخها سفينة البحر باسم الله مجراها

٦٠٠ ٢٤١ ١٠٢ ٦٦ ٢٥٠

سنة ١٢٦٠ هـ

وله رسالة فى التوحيد

ورسالة فى الأوفاق

السيد على أبو النصر المنفلوطى

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م

نشأته وحياته :

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأزهر لطلب العلم فيه ، وقد شب مفطوراً على حب الأدب والتزود من فنونه فبرع فى قرض الشعر يافعا ، ونظم الأزجال حدثا ، ولم يلبث أن ذاع صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكهة والمجالسة لطيف المسامرة والمؤانسة ، حاضر الذهن قوى الجدل لايغلب فى حوار ولاينهزم فى مناظرة وكانت له مطايبات حافلة بالنكت الأدبية مع الحشمة والحذر مما تأباه النفوس الأبية[١] فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه يجلون قدره ويلبون شفاعته ، اتصل بالبيت العلوى من عهد محمد على إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية رحلتين أولاهما فى عهد « محمد على » سنة ١٢٦٢ هـ حيث احتفل السلطان عبد المجيد بإعذار[٢] أنجاله وطلب من محمد على أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء فكان الشاعر فى طليعة الذين أوفدهم « محمد على » إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادها إذ قدمها إليه وبكى متأثراً ببعض أبياتها ثم سأله هل قلت فى القسطنطينية شيئاً ؟ فأجابه بأن له بيتين يستحى أن يعرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال نسمعهما إن شئت فقال : ـ

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ... ونحسبها دون البلاد هى العليا
فلما رأت دار الخلافة عيننا ... علمنا يقينا أنها لهى الدنيا

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : « إن البيتين جيدان من جهة الأدب ،

---

(١) مقدمة الديوان للمرحوم « أحمد باشا خيرى » .
(٢) أعذر الغلام ختنه كعذره يعذره : وللقوم عمل طعام الختان .

ولكنك فى مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها لأنك جعلت مصر هى العليا والقسطنطينية هى الدنيا ، وفى علمك أن الدنيا تأنيث الأدون فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فقال الشاعر مجيبا (حب الوطن من الإيمان) »

وأما رحلته الثانية إليها فكانت فى عهد الخديو « اسماعيل » سنة ١٢٨٩هـ حيث استصحبه إليها فى خلافة السلطان عبد العزيز وكان مقدمهما القسطنطينية متفقا مع الاحتفال بعيد الجلوس فأنشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ القطر   ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر

وكان مصراع تاريخها

(جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

١١٩   ٨٤   ٢٤٠   ٤١   ٤٧٠   ٣٣٥   سنة ١٢٨٩ هـ .

ومما اتسم به أنه كان راجح العقل نافذ الرأى عالما بالأحوال السياسية خبيراً بشؤون الأمم ، محبا لتربية الأمة داعيا لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتيتا غير مجموع حتى قيض له المغفور لهما « محمد باشا سلطان » و « حسين بك حسنى » ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك فجمعا أشتاته وضما متفرقه وعهدا إلى المرحوم « محمد أفندى الحسنى » رئيس مصححى المطبعة بجمعه فى ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبترجمة للشاعر بقلم المرحوم « أحمد باشا خيرى » ناظر المعارف العمومية فى ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والمواليا والأزجال وغير ذلك مما عبثت به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره فأراه شبيها به موافقا له يتجه متجهه وينزع نزعته ، وهو يميل إلى الجناس لكن فى غير استكراه ، ويطلبه لكن فى غير

تكلف شديد ، ويورى غير أنه لا يلحف فى رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة فى شعره غير مفتون بها وإن تهيأت له فبغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى ، فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له فى الجمهرة العظمى من شعره ، فمن تجنيسه قوله :

فى الحان قد جس معسول اللمى وترا
فانهض لتسمع ألحـــان الصبا وترى

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر و (ألحان) الصبا جمع لحن ، كما أوقعه بين الوتر الذى هو شرعة القوس ومعلقها الواقع مفعولا والفعل المضارع و (ترى) مقرونا بوار العطف ، ويبدو لك تكلفه الجناسين إلا أنهما أقرب إلى القبول ، ومن تجنيسه أيضا قوله :-

أبدا تقلب فكرتى أيدى الأسى
طوعا لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الأسى بمعنى الحزن والفعل المـاضى (أساء) محذوف الهمزة ليتم الجناس بحذفها ، والجناس هنا مقصود للشاعر إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه ، ومن تجنيسه أيضا قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظات وفى
ظنى وجـــود سميع بالعهود وفى

فالجناس بين حرف الجر (فى) مقرونا بالواو ولفظ (وفى) الصفة المحذوف إحدى يائيه وهو أقل ثقلا من صاحبه المـاضى . ومن جناسـه المقبول قوله :

رياض المجد أهدت نفح طيب فقلت مهنئا يا نفس طيبى

ويغرب أن يلتزم الجناس فى مطالع قصائده وهو فى هذا الموضع أكثر طلبا له واستشرافا إليه .

ومن التورية التى يستعملها فى شعره .

على مضض صبرت وكم أدارى بتاريخ الغرام وأنت دارى
يجاذبنى الهوى فأذوب وجدا ويسلبنى النوى ثوب اصطبارى
وهذا لى دروا مابى فلاموا كأن هوى الأحبة باختيارى
وإن سألوا عن اللاحى ودمعى اقبول كلاهما لا شك جارى

فقد ورى بقوله (جارى) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال ، والاسم الذى هو بمعنى مجاور مضافا لياء المتكلم .

ويقول فى رجل يدعى العلم يسمى (النخلى) :

بروض الفضل أغصان خلت عن حلية الفضل
سألناهـــا أجابتنا دهتنا غلطة التخلى

فيحتمل أن يراد « الشجر » أو اسم الرجل ، ومما يودّى به قوله :

حروف ودى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمعه الشبيهة بالحروف وسائل تترضى الحبيب ، فقد جانس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (سائل) الثانية التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخى قوله :

يا من بطالعه الأسعى حوى شرفا
يزين بدر علاه قبـــة الفلك
أنت الذى بحلى الأخلاق زدت علاً
لا زلت ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إذ لاحت بشائره
أرخت أوليت بكباشى وأنت زكى
٣٧ ٤٥٧ ٣٣٥ ٤٤٧
سنة ١٢٧٦ هـ

ولا شك أن هذا التاريخ أضعف هذا الشعر وحال دون روعته وجماله ولكنها سنة العصر الذى أغرق فته وغالى وله فى تاريخ لحية .

لما ازدهى روض المحاسن والبها وبدا به الريحان وهو شريف
خط العذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجمال نظيف
١٤١ ١٠٥ ١٠٤٠
سنة ١٢٨٦ هـ

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، ومما لا أسيغه وصف الريحان بالشرف ولست أدرى متى يكون الريحان شريفا أو غير شريف فلعل علم ذلك عند الشاعر وقد يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعمائم الخضر التى هى سمة الأشراف .

وقد يولع بالتاريخ فيجعل فى كل شطر تاريخا كما قال :

بشير الهنا لاحب بيمن قدومه بدور بها نور البشائر قد صفا
٥١٢ ٨٧ ٤٣٩ ١٠٢ ١٥٥ ٢١٢ ٨ ٢٥٦ ٥٤٤ ١٠٤ ١٧١
سنة ١٢٩٥ هـ

وشعره إذ ذاك لا روعة فيه ، ولا تتنسم منه روح الشعر بحال ، غير أنه يتناول كثيرا من الأغراض فى شعره ويتسع أفقه لألوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهنىء ويرثى ويعتب ويشكو ويشكر ويتغزل ويصف وينصح ، وتجد فى شعره الحكم والمدائح النبوية ، والقصائد الوطنية والخمريات بغير إغراق كما تجد فيه الوداع والحماسة ويتناول الألغاز يكثر منها فيجىء شعره بها معمى مستغلقا ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى لتبلغ مائة بيت إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره وسط بين الإجادة والغثاثة والضعف والقوة .

فما قاله متغزلا

إلى الأوطان يجذبنى الهيام ولى قلب يقلبه الغرام
وفى دمعى غرقت ونار وجدى بتذكار الديار لها ضرام
ولى فى كل منتزه حديث إذا كررته ناح الحمام

وما عندى من الأشواق خاف ولو أبديته لبكى الغمام
ويوم وداعهم كانت حياتى مكابرة وللدمع انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبى وفى نومى وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهـواه باك عليك ولو أضر بك الهيام ؟
فقلت لها فديتك ان نومى على لبعدهم أبدا حـرام
وهل يجدى أخا الوجد المعنى إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعينى فالنصيحة لو أفادت لضاع الحب وانقطع الملام
كلفت بحبهم فألفت سهدى ولم يخطر على جفنى المنام
أهيم بهم ولى فيهم شجون إذا ظعنوا بقلبى أو أقاموا
أخلائى احفظوا عنى حديثا يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحييـه التدانى وينعشـه التواصل لا المدام
فان مر النسيم بكم سلوه فأخبار الهوى منـه ترام
وساعات الوصال كلمح طرف لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات ساقها الشاعر متغزلا فجاءت من أجود ما قال رقة وخفة روح ووضوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو محسن من المحسنات البديعية ولم يمس طرفا من ذلك الا الجناس الذى شكه شكا وتناوله برق فى عجز البيت الأول بين (قلب) (ويقلبه) .

ومما قاله فى شكوى الزمان

بشكوى الليالى كيف لا أتعلل وديمة دمعى دائما تتهلـل
رمانى زمانى فى مكايد مكره وفى وهمه أنى له أتذلل
أكابد مالا يستطاع من الأسى وأحمل منه فوق ما يتحمل
وجربت أبناء الزمان بأسرهم فلم أر منهم من عليـه يعول

وسالمت إخوانا بدا لى أنهم ... على نقض بنيان الصداقة عولوا
فيا دهر ماذا تبتغى من مجرب ... وقد شاع فى الآفاق أنك تجهل
تقدم من لا يستحق وتزدرى ... بمن هو أولى بالجميل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى ... وهم دولة الإسعاد إن كنت تعقل
وقربت أرباب الجهالة للعلا ... كأنك لاستظهارهم تتجمل

فهذه الأبيات من أجود ما قيل فى شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة عبث الزمان به وتجهمه له وما يكابده من أساه الذى لا يستطاع ، وما يحمله مما يشق حمله وما لقيه من إخوان جربهم فلم يرفيهم من عليه المعول ومن سالمهم لما بدا له من تعويلهم على نقض الصـــداقة ونكث العهد ، وكان جميلا من الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزراية بمن هو أولى بالجميل وبراءة الزمان من اهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان يعقل ذلك ، وتقريب أرباب الجهالة وايثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ، فهى أبيات صادقة فى شكوى الليالى وصدق التجربة ، وغدر الإخوان وعبث الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ورصف رصين لم يتهالك على محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبي صلى الله عليهم وسلم .

إذا هتفت بمدحتك الموالى ... وأنشد شعره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثا ... وصاغ من الثنا ما يستطيع
فما بلغو اليسير ولو أطالوا ... وكيف وأنت فى الأخرى شفيع؟
إليك شكايتى من كل ذنب ... وحصن حماك فى حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالأمانى ... ومن قصد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا ... وجاهك سيدى جاه رفيع
فمن للمذنبين سواك يرجى ... إذا ما استعظم الهول الفظيع؟

وهو شعر سهل رصين تتمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذى يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرزا منيعا وشفيعا يغفر به كل ذنب وان كان فى نفسى شىء من اللفظ الأخير (الفظيع) .

وقال يعاتب بعض اصحابه .

لعمرك ما البواتر كالعِصىّ ... ولا الطرف المذلل كالعَصىّ[1]

ولا فلق الصباح إذا تبدى ... لذى بصر يقابل بالعشى

أراك رفعت أدنى الناس قدرا ... وآثرت الدنى على علىّ

شققت عصا الوفاق وبعت غبنا ... صواب الرأى بالخطأ الجلى

وبدلت الأعزة من قريش ... وأبناء الأماجد بالبذىّ[2]

ستعرف ما جهلت إذا التقينا ... وبان لك الجبان من الكمى[3]

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه وأحفلها بالتشبيهات المحكمة وفيها جناس مقبول بين حرف الجر (على) و (على) وتورية لطيفة فى لفظ (على) الذى يحتمل أن يكون وصفا مقابلا (للدنى) وأن يكون مشيرا إلى إسم الشاعر « السيد على » ومن رثائه قوله .

أمطرى أعينى الدوامى دواما ... إن غيث الكرام يأتى ركاما[4]

واستمدى من حبة القلب دمعا ... فلعل الدموع تروى أواما[5]

---

(١) البواتر السيوف القاطعة — الطرف الكريم من الخيل — المذلل السهل المنقاد

(٢) البذى — كرضى الرجل الفاحش

(٣) الكمى — كغنى الشجاع أو لابس السلاح

(٤) الركام — السحاب المتراكم

(٥) الأوام كغراب العطش أو حره وأن يضج العطشان

ومن المهد للجفون اكتحالا ودعى عنك فى الدياجى المناما
واستكبى الدمع خفية وجهارا واستحلى من البكاء الحراما
واقرئى فى صحيفة الدهر سطرا نمقته يد القضا فاستقاما
واكتبى ما جنته أيدى المنايا حيث لم تبق للأنام إماما

فهذه من أصدق المرثيات وأرقها وأخصبها معنى وأحلفها تصويرا للجزع والأسى ولم يكن الشاعر منصرفا فيها إلى الطلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده. فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ولكنه لم يستنفد جمال الأبيات ولم يذهب بروعتها

* * *

الشيخ على الليثى

المتوفى سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م

نشأته وحياته :

هو الشيخ «على» بن «حسن» بن «على» ولد فى بولاق مصر سنة ١٢٣٦ هـ وتوفى والده وهو حدث يافع فانتقلت به أمه إلى جهة الإمام « الليث » فكان يطلب العلم بالأزهر ثم يعود إليها للمبيت بها ، وظل على ذلك بضع سنين ، ثم قدم إلى مصر الشيخ « السنوسى الكبير » قاصداً الحج فاتصل به وحج معه ، ولما رجع « السنوسى » إلى مصر لم يدعه بل استصحبه إلى « جغبوب » ولبث بها مدة يطلب العلم ويفيد حتى فارق « السنوسى » وعاد إلى مصر فاتصل بوالدة « عباس باشا » الوالى فألحقته بوظيفة متواضعة فى القصر وازدلف إلى الأمير « أحمد باشا رفعت » بن « إبراهيم باشا الكبير » فأدناه منه ومكنه من تقليب النظر فى خزانة كتبه فأفاد منها سعة أفق وخصب مادة .

ومن الطريف أن سفره إلى المغرب كان سببا فى اتهامه بمعرفة الكهانة والعرافة حتى إذا ولى « سعيد باشا » على مصر أمر بنفى هؤلاء الذين يحتالون على الناس إلى السودان فكان المترجم من بينهم ، وقد ظل بالسودان حتى عفا الخديو عنه فعاد إلى مصر .

وقد طارت شهرة «الليثى» وذاع صيته وعرف بحضور البديهة وحسن المنادمة فلما ولى « اسماعيل باشا » على مصر قربه إليه واتخذ منه ومن الشيخ « على أبى النصر المنفلوطى » نديمين يستمتع بشعرهما ويستطيب حديثهما .

فلما عزل « اسماعيل » وخلفه « توفيق » درج على ما كان عليه سلفه من إيثار « الليثى » وإجلاله واصطفائه حتى إذا شبت الثورة العرابية كان « الليثى » بين من خاضوا غمارها ، وأججوا جمراتها ، ولكن « توفيقا » شمله بعفوه وصفح عن زلته ، وهش له إذا تبرأ بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول

بل إنه بعد أن تبرأ من الفتنة العرابية وأبان عذره فى مسايرة العرابيين زاد قربا من نفس «توفيق» وأحله مكانة ترمقها الأبصار وترنو إليها العيون فقد شيد لنفسه قصراً «بحلوان» وكان يتردد عليه مرتين فى كل شهر فيركب من حلوان سفينة بخارية تقله إلى ضيعة «الليثى» «شرق اطفيح» فيؤاكله ويقيم عنده ومن ثَمّ عنى «الليثى» بهذه الضيعة فغرس بها أطيب الكروم والأشجار وأقام بها قصراً أنيقا يكون للأمير وأتباعه نزلا .

وقد كانت هذه الضيعة مقصد الأدباء وكعبة للشعراء والعلماء يجدون فيها غذاء للروح والجسد من ثمار وفاكهة وطيب مفاكهة ، وقد كان مسرفا فى كرمه حتى أن ضيفانه ليقيمون عنده أياماً وأشهراً .

ولما نزل بمصر (السلطان برغش) ملك «زنجبار» انتـــدبه الخديو «اسماعيل» لمرافقته ومجالسته ، فارتاح السلطان لخلقه وخفة روحه وعذوبة حديثه ، حتى انه لما عاد إلى بلاده كان يمنحه الهدايا الفاخرة كل عام مما تمتاز به هذه البلاد من عنبره وغيره ، فيكون لأصدقاء «الليثى» وخلطائه من هدايا السلطان نصيب .

وإذ قضى «اسماعيل» تقلص العطف الكريم الذى كان «الليثى» فى ظلاله وانقبض «عباس» عنه ولم يكن «لليثى» من خصب جنابه بعض ما كان له من «اسماعيل» فعكف على ضيعته يستغل زرعها ويدمن الاطلاع فى مكتبته الضخمة التى ما زال يضم إليها من الأسفار النادرة وأمهات الكتب الأدبية ما طُبع منها وما نسخ حتى كانت من أوفى الخزانات وأحفلها علما وأدبا ، ولم يزل كذلك إلى أن تآمرت عليه العلل فناء بها أشهرا حتى قضى فى العاشر من شعبان سنة ١٣١٢ هـ فانطوت به صفحة من الأنس والصفاء وطول المتاع .

منـــادمته :

كان «الليثى» خفيف الروح ، عذب الحديث ، حسن المحاضرة ، سريع

البديهة ، مواتى الجواب ، معروفا بطيب السمر ورقة المنادمة حتى أطلق عليه « سيد الندماء » .

والمنادمة فن دقيق يعتمد على مواهب وفطر خاصة ، ويحتاج فى تناوله إلى لباقة وكياسة وتفطن إلى مواطن النكتة وموقعها من النفوس ، وتفرس فيما يطيب من القول ، ويلذ لسامعه ، هذا إلى سرعة البديهة ، والحذق فى معرفة الطبائع والبصر بختلف الأخلاق ، وتمييز كل موقف من صاحبه ، والتملؤ من أدب المفاكهة والإلمام بما يهش له السامع فى شتى أحواله ، وما يرفه به عن نفسه إذا غشيها الملال .

على أن النديم قد تحاك حوله الدسائس لتصرف عن جمال نكتته وتصد عن التبسم والبشاشة له ، وقد يرتصد له بعض الخبثاء فيفسد عليه غرضه بالتصريح أو بالإيماء ، فإذا لم يكن حاضر البديهة ، ومواتى الجواب لبقا فى الأخذ بالشيء والإنصراف عنه ، قادراً على أن ينتقل من حديث إلى حديث ومن مقام إلى مقام فشل فى جر السرور والمفاكهة الذى يهيئه ويشرق الأنس منه .

وقد كان كل ذلك من مواهب « الليثى » فى منادمته ، فإنه ليجمع إلى طلاقة لسانه وفيض خاطره وحلاوة حديثه وحسن بصره بمواطن الحديث وتهديه إلى ما يحسن أن يأخذ به من القول وما يدع روائع من الأدب وأطايب من البيان يصرفها فى كل مجلس ، ويديرها فى كل مناسبة ، ويعرضها إذا استشرقت لها الاسماع واهتزت لها العواطف والوجدانات فيملأ النفوس أنسا وراحة والقلوب — بهجة ولذة .

ولا نحسب أن من شعراء الجيل الحاضر شاعرا يمثل مدرسة الندماء كما كان يمثلها الشيخ « على الليثى » الذى ارتقى فى هذه الصناعة حتى نادم « اسماعيل » « وتوفيقا » ، وبقى من نوادره ودعاباته ما يذكره المتادبون والمعنيون بأخبار القصور حتى فى أقصى الصعيد[١] .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد ص ١٠٣

وقد بلغ من شغف « اسماعيل » به أن أعد له ولصاحبه الشيخ « على أبو النصر المنفلوطى » قاعة خاصة بديوانه يجلس بها كأنه أحد رجال القصر الذين توكل إليهم أعمال كما قلنا من قبل أن « توفيقا » كان ينزل بضيعته حبا لمنادمته وإيثارا لمفاكهته .

ولم يؤثر فيما نقل إلينا عن نوادر « الليثى » ونكاته أنه فرط فى كرامته أو أغضى على هيبته على ماتتحيف به هذه الصناعات من أقدار ، فقد ظل « عالما » من علماء الأزهر لم تجرح هذه الصناعة كبرياءه ولم تتدل به إلى ما يتدلى إليه المضحكون والمماثلون .

وقد خلف « الليثى » من نوادره وأدبه الضاحك الباسم ما فيه أبلغ المتع واللذاذات ، وماهو فى هذا الأدب الرقيق غرة وجمال ، ولكن ذهب أشتاتا لم يعن بجمعه ، أو يخلد بإيثاره ، وكان فى مثله لوحواه كتاب ما تستروح به نفوس وتبتهج به صدور ، وتتبدد كآبة ويذهب ملال .

طرف من نوادره :

كان أحد الكبراء يفرغ بالمدية تفاحة ليشرب فيها فانقصفت المدية خلال ذلك فرنا إلى « الليثى » كأنما يطلب القول منه فإذا به يرتجل البيتين .

عزت على الندماء حتى أنهم تخذوا لها كاسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية لان الحديد كرامة للراح

وهما آية على صفاء ذهنه وحضور بديهته واستجابة الشعر له .

ودخل يوما معه الشيخ « على أبو النصر المنفلوطى » على الخديو « اسماعيل » وهو منقبض ، وكان الرجلان طويلى القامة دميمى الخلقة فاحمى السواد ، فلما أبصرهما « اسماعيل » أخذ يقلب فيهما الطرف وينظر إلى طولهما وعرضهما فما أن رآه « الليثى » كذلك حتى شرع يقلب كفاً على كف ، فقال له « اسماعيل » مابالك تفعل هذا ؟ قال « أفكر فى أمر أقوله إذا صفح عنه مولاى مقدما » قال « قد صفحت فقل » قال « أرانى أستغرب ما الذى أعجب به مولاى فى

مدخنتين مثلى وزميلى هذا ، فضحك الخديو وسرى عنه .

ولما أمر « إسماعيل » أن يكتب على حجرات القصر لا فتات تشير إلى وظيفة من فيها أشار « المهردار » أحد كبار رجال القصر بأن يكتب على حجرة الشعراء التى كان « الليثى بها » انما نطعمكم لوجه الله ، واذ سأل الليثى عمن أشار بذلك قيل له أنه « المهردار » فأراد أن ينتقم لنفسه فانتهز فرصة جلوسه مع الخديو وحضور المهردار وقال للخديو إن حادثة وقعت لى اليوم فقال ماهى فقال صغتها زجلا ، قال ، ما هو ؟ ، قال .

لى طاحونه فى البلد غابت منها وعقلى دار
علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهردار

ومر به كبير من رجال القصر لحياة تحية الغربيين بخفض رأسه فلم يرقه ذلك فهز رأسه كمن يقول لا فشكا الأول للخديو زراية « الليثى » به ، فلما سأله الخديو عما صنع معه ، قال يهز رأسه كأنه يقول تناطحنى فقلت له لا

شعـــره:

خلف « الليثى » ديوان شعر ضخم لدى صهره الأستاذ « محمد سعودى » الخبـــير ولـكنه أبى أن يطبعه لعلم أهله وخاصته بأن الشاعر لعن من يقوم على طبعه ، ولعل « الليثى » فعل ذلك تحرجا من نشر ماعسى أن يكون قد تورط فيه كشأن أكثر الشعراء من دعابة أو غلو فى مديح أو ذم أو نحو ذلك ، فلقدكان فى الرجل تقية وورع ، فهو يخشى حسابه على ما نظم ، ولو كانت هذه الثروة الشعرية لشاعر غيره ممن يغريهم المظهر والشهرة لجاز أن يحرص على طبع شعره وتدوينه والمفاخرة به .

ولو تهيأ لنا الاطلاع على هذا الديوان والتفرس فيما حواه من شعر ، وفيما بين دفتيه من قصائد نظمها فى أغراض مختلفة وألوان متنوعة لاستطعنا أن ندرس شعره دراسة بحث وتقص ولـكن احتجاب ديوانه ألقى على شعره ستارا كثيفا من الغموض والإبهام ، وجعل الحكم عليه مقرونا بالعناء والجهد

وذلك مما دفعنا دفعاً إلى مراجعة الصحف القديمة والمجلات المعاصرة له ، وتتبع الكتب الأدبية المختلفة بما عساه أن يضم طرفا من شعره وجانبا من خبره ، ونستطيع بعد أن تعبت أناملنا من التصفح والتقليب وبعد العثور على جمهرة من قصائده المتنوعة أن نحكم على شعره جملة بأنه فى المنزلة الوسطى من منازل الشعر[١] .

وكان القدر الأعظم من شعره فى المدائح فلقد اصطفاه «اسماعيل» وخلع عليه لقب «شاعر الخديو» ولازمه ونادمه ، كما أدناه «توفيق» وأحله مكانة من نفسه ، وقد دعاه ذلك إلى أن ينظم فيهما مدائحه ملتمساً لها شتى المناسبات آية على ولائه ودليلا على وفائه ، كما مدح المصطفين لهذين الأميرين من ذى جاه أو شفاعة أو حظوة لديهما ، وكان «الليثى» حريصاً فى هذه المدائح وخاصة ما لاسماعيل وتوفيق على أن يجودها ويكسوها حلة من الروعة وجمال الشعر ، ولكنه على كل حال يدور فيها جميعا مع تباين أسبابها على معان متقاربة وطريقة متشابهة ، فهو يبدأ بالغزل متأنقاً فى صوغه لينتقل منه إلى مدح الأمير حاشداً من معانيه وألوانه ما شاء له الأسلوب وما واتته القريحة واستتبع مدحه الأميرين الذى هو ثمرة لصلته بهما وحدبهما عليه أن يقول مهنئاً أو مواسياً أو معزياً ، فإن وفاءه الباعث على الإطراء والمديح هو نفسه الدافع على قرض الشعر فى كل ما جل أو هان من مختلف المناسبات .

ولقد جهدت فيما تتبعته من الشعر كى أعثر على المنادمة فى شعره وأتبين أثر هذا الفن لأرى ما أبدع منه فى نظمه فلم يواتنى منه شىء فلعلها كانت منادمة مجلس وسمر يصورها حديثاً يرويه وقصة يسوقها ونكتة يرسلها ونادرة يفاكه بها وبديهة مواتية لا تستلزم الشعر أسلوباً ولا أداة .

* * *

---

(١) المفصل ج ٢ ص ٣٣٩

نمـاذج من شعره

مما قاله فى عيد جلوس الخديو « عباس الثانى » :

خل الملام فقلبي ليس بالسالى　　يا عاذلا لج فى لومى لتضلالى
دعنى ووجدى وما ألقاه من وصب　　أبيت أرعى الدياجى بائس الحال
ظننت لومك يثنى قلب ذى شجن　　هيهات لومك لم يخطر على بالى
أنا الوفى وقلبى ليس يشغله　　عما عليه انطوى تنميق عذال
أرح فؤادك واحذر ما أكابده　　أما نظرت إلى سقمى وإعلالى
دمع يسيل وقلب ذاب من كمد　　وفكرة شتتها لوعة البال
عدتك حالى لا ذقت الهوى أبدا　　ولا رمتك اللواحى فيه بالقال

إلى أن قال : ـ

قد قال لى القلب كم حملتنى نصبا　　من الغرام وقد ضاعفت أثقالى
هلا التفت وألزمت اليراع بما　　يخف عنى به وجدى وبلبالى
فقلت يا قلب صادفت المراد فذا　　عيد جلوس الخديو المفرد العالى
عباس مصر الذى ضاءت بغرته　　أرجاؤها وغدت روضا لحلال
صفو النفوس بتشريف النفوس بدا　　كالبدر يعطى ائتناسا عند اهلال
فادخل بها فى تهانيه بموسمه　　وان تعاظم فاسلك نهج اجمال

ثم قال : ـ

هذا الأبى الذى أمضت عزائمه　　ما أوهن اللب من قول وأفعال
زند الشبيبة يورى رأى مكتهل　　منه ويهدى لرشد عند تسآل
فيـــه لرائيه إيناس ومرحمة　　وكم لراجيه منـه نور آمال

فهذه أبيات تبتدىء بالغزل على عادة الشعراء ثم تنتقل إلى ذكر الممدوح

بمـا شاع المدح به وما ألف نظم الإطراء فيه ، وهى وإن كانت أقرب إلى التجويد فى نظمها وصوغها لاتحمل من روعة الشعر والطابع الشخصى مايسمو بصاحبها إلى مصاف المجيدين .

ومما قاله فى ليلة عرس :ـ

لله ليلات أنس عن سنا سفرت ... وبالمراد إلى أسمى حمى وصلت
كأنها ليلة القدر التى نزلت ... فيها الملائك والدنيا بها ابتهجت
سرت بحسن صفاها مصر وازدهرت ... ياطيب عين بمرآها قد اكتحلت
فما رأى مثلها الرائى فقد شرفت ... فى خير دار بها الأفراح قد رسمت
دار بســـدتها الأمجاد واردة ... مثل الظماء فكم علت وكم نهلت
إن شئت قل جنة أو جنة وجنى ... فيها الغياث وفيها الغيث مذ نبتت
نعم سويداك أو سود العيون بما ... يروح الفكر فاللذات قد حضرت
وارع المثانى وراع العنب ليب بها ... فيوسف الحسن أعطاها الذى طلبت

إلى أن يقول :ـ

ولا أصرح بالداعى ولى أمل ... يشيده من حلى أوصافه كملت
فاهنأ فهذا القران السعد أرخه ... شمس البهاء بمحمود الصفا اقترنت

٤٠٠ ٣٩ ١٠٠ ٢٠٢ ١١٥١

سنة ١٨٩٢ م

فهذه مظاهر للحسن والسرور والأنس والبهجة حشدها الشاعر حشدا ونظمها بصورة تقليدية لا أرى فيها روحا للشعر العذب الرائع على أنه عنى فيها بالزخرف والطلاء فأشار إلى الاقتباس فى « ليلة القدر » التى نزلت فيها الملائك ، وجنس بين « جنة » و « جنى » و « الغياث » و « الغيث » و « سويداك » و « سواد العيون » و « ارع » و « راع » وبذل لذلك شيئاً من جهده وطلبه ، ثم ختم أبياته بالتاريخ الذى فتن به معاصروه والسابقون عليهم ، وحرص

عليه هو أيضا ، ومن ولوعه بالمحسنات البديعية وتكلفها وسعيه لها ما قاله للشيخ « الإنبابى » ينفى ما وشى به إليه .

نبئت أنى قد ذكرت بحضرة ... تسمو بكوكب عصره « الانبابى »
وعذلت أن لم أهد ساحة مجده ... غرر التهانى عذل من أنبابى
ولقد نبا بى عن سمو مقامه ... عز المهابة وازدحام الباب
فغدوت أدعو الله أن يرقى إلى ... أسمى المعالى فى أعز جناب
كيما يعز الدين منه بناصر ... وتقر عين الشافعى بمهاب
فبمثله الإسلام يظهر نوره ... وتقوم حجته على المرتاب
لا زال شيخ المسلمين محجبا ... بمهابة الإعزاز والإرهاب
حتى يقول العلم سدت مؤرخا ... بولى الأزهر شيخه الانبابى

٤٨ ٢٤٤ ٩١٥ ٩٧

سنة ١٣٠٤

فقد كلف بالتجنيس فى قوله « الأنبابى » فأدارها غير مرة بما « دنبا » بهـا ووضعها موضع القلق ، كما شد الجناس فى قوله « بمهابة » والأرهاب وختمه بالتاريخ كدأبه .

ومن أبياته الرقيقة ما قاله حين زارته سائحة أمريكية وهو فى ضيعته بالصف

وزائرة زارت على غير موعد ... غريبة دار تنتحى كل مورد
تبدى لنا وقت الظهيرة نورها ... ونحن على روض زها بالتورد
من اللاء لم يدخلن مصر لحاجة ... سوى رؤية الآثار فى كل مشهد
لها فى أميريكا انتساب ودارها ... ببستن إذ تعزى لمسقط مولد
تحيت وقالت والمترجم بيننا ... لنا فاذنوا نحظى بروضكم الندى
فقلنا ونور البشر أزهر بيننا ... على الرحب والإقبال مشكورة اليد

ودارت أحاديث التساؤل بيننا ... فجاءت بدر من حديث منضد

إلى أن قال :

عن البحر حدث إذ وردنا وقدغدا ... بصفو يصافينا فياطيب مورد

سفينتنا تعلو على فلك السما ... بما حل فيها من شموس وفرقد[١]

هناك مراد العين والسمع والهوى ... مع العفة العلياء فى كل مقصد

فقمنا وودعنا القلوب فهل درت ... بما نابنا عند الوداع الممهد[٢]

* * *

---

(١) الفرقد — نجم قريب من القطب الشمالى

(٢) الممهد — المهيأ

الشيخ عبد الرحمن قراعة

المتوفى سنة (١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م)

نشأته وحياته

ولد بأسيوط قرابة سنة ١٨٢٥ م من أسرة عريقة فى العلم والدين لحفظ القرآن فى صباه وكان والده أحد علماء الأزهر يحب الأدب ويقرض الشعر وقد نظم فى النحو خمسمائة ألف بيت تدارك فيها ما فات ابن مالك فى ألفيته مما نبه إليه الشراح من قيود وشروط وغيرها ، فتأثر «عبد الرحمن» بأبيه واتجه متجهه ، وتلقى العلم عنه فى صغره ، ولقى من رعايته وتوجيهه ما غذى قريحته بالأدب ، وطبع ملكته على حبه .

ولما أصاب حظا من الثقافة الناشئة ألحقه والده بالأزهر فانتظم فى عقده وتلقى فنونه على أساتذته من أمثال الشيخ «حسن الطويل» والشيخ «محمد الإنبابى» والشيخ «الأشمونى» وأضرابهم ، وقد قضى فترة فى الطلب ناهزت عشر سنين ، وكانت شهرته بالأدب قد ملأت الأذهان وطوف صيته فى ربوع الأزهر وخارجه ، ووسم بالشعر الرصين والنثر المحكم ، حتى كان علما بين شعراء الأزهر وأدبائه فى ذلك الحين ، وكان قد تقدم لامتحان العالمية فحدثت فى الأزهر فتنة كان من أثرها أن عين المرحوم الشيخ «محمد الانبابى» شيخا للأزهر بعد سابقه المرحوم الشيخ «محمد المهدى العباسى» ويقول بعض الرواة إن «الانبابى» غضب على قراعة ونفاه من القاهرة إلى أسيوط لأنه أنشأ قصيدة هجاه بها قال فى مطلعها .

خذوا حذركم فالأمر قد جاء بالضد
لقد ظهر الدجال واختبأ المهدى

ومما قاله الرواة — ان قراعة كان صديقا للمهدى ، وكان المهدى يؤثره ويوليه حبه ، فنظم قراعة هذا الشعر ولاء للمهدى وزراية بالإنبابى فأجرى

معه تحقيق كانت نتيجته النفى إلى أسيوط التى ظل بها قرابة أربعة عشر عاما كان يرسل فيها قصائد الاعتذار والتنصل للإنبابى حتى عين الشيخ «حسونه النواوى وكيلا للازهر فاستوفده إلى القاهرة .

وقد رجعت فى تحقيق ذلك إلى أسرته والأدنين منـه ومن خالطوه ، لأجلو الأمر واستوضح غامضه فقيل إن قراعة لم ينظم هـذه القصيدة بل نحلها له خصوم الانبابى اعتمادا على شهرة قراعة بالشعر وطلبا لذيوعها له ، أما هو فبرىء منها لم يخط فيها حرفا ، كيف وهو تلميذه المنتفع بعلمه المغتذى بثقافته ؟ على أن فيما وجهه قراعة إلى الإنبابى من شعر ونثر ما يدل على نقاء صفحته وبراءته من هذا الشعر ، هذا ولم يكن ارتحال قراعة إلى بلده جزاء وعقوبة وإنما كان انصرافا منـه لـكدر الجو من الدس والسعاية ، ومهما يكن من شىء فإن القصيدة سواء نظمها أو نسبت إليه سارت على الألسن وطوفت فى الآفاق وعلقت بالأذهان .

وإذ إرتحل «قراعة» إلى أسيوط هذه الفترة الطويلة أكب على دراسة الأدب ونظم الشعر وتوفر على التفسير والحديث فتمـكن من دراستهما واجتمع بجمهرة من علماء الأزهر الذين رحلوا إلى أسيوط وطنهم فاتصل بهم وكان بيت أبيه شبيها بندوة أدبية ودرس علمى يجمعهم ، فعلا فى هـذا الندى صوته وتألق بين رواده نبوغه ، فكان فيمن يفدون إلى هذا المجلس المرحوم «محمد بك أبو شادى» الذى أنشأ جريدة الظاهر فيما بعـــد وكان من أبرع المحامين بأسيوط ، كما كان منهم المرحوم «عبد الله هاشم» الأديب المطلع الذى وصفه «قراعة» فقال «أخذ هاشم نهايتنا لجعلها بداية له» والمرحوم «حسين بك فهمى» الأديب أحد كبار محامى أسيوط «وامام بك فهمى» أحد أعلامهم أيضا ، وما زالت شهرة «قراعة» تنمو وتتطاير حتى كثر عشاقه وأقبل عليه أنصار الأدب من كل حدب ، فإذا بيته مقصد كل عظيم وأديب من رجال القضاء والادارة والتعليم ، ومما قرأه على عشاقه فى هـذه الفترة

كتاب «الكشاف» للزمخشرى «والنسائى» فى الحديث ، كما قرأ عليهم كتاب «الأغانى» على طوله واتساع جنباته .

بقى «قراعة» فى أسيوط حتى استدعاه الشيخ «حسونه النواوى» وكيل الأزهر إلى القاهرة فتقدم للامتحان ونال شهادة العالمية ثم اشتغل بتدريس الفقه والنحو فى الأزهر حتى إذا وجهت العناية الخاصة إلى تدريس الأدب فى الأزهر تولى تدريس مقامات الحريرى فجمع فى شرحها بين اللغـــة والأدب بأسلوبه العذب وبيانه الرائع ، وكان «السيد مصطفى المنفلوطى» أحد من غشى درسه الأدبى .

ولم تطل هـذه الفترة حتى عين مفتيا شرعيا بمدينة سوهاج فمكث بها عدة سنين عقـــد فى أثنائها بأحد مساجدها درس التفسير الذى كان يلقيه بطريقة جذابة مشوقة ، وأمه كثير من رجال العلم والأدب واتخذ من بيته منتدًى أدبيا يضم كثيراً من الأدباء مثل المرحوم «الشيخ محمد عبدالمطلب» الشاعر الذى لازمه وانتفع به وبتوجيهه الأدبى ، ولقى منه تشجيعا ورعاية ، وكان أكثر عشاقه ملازمة له وترددا عليـــه ، كما كان من عشاقه أيضا والمصاحبين له المرحوم «محمد أبو النعمان بك» والمرحوم «يحى أبو بكر باشا» وكانا أديبين من أعلام القضاء الأهلى امتـازا بمراعاتهما فى تطبيق أحكام القانون موافقته أو قربه لأحكام الشريعة الإسلامية ، كما كان منهم المرحوم «أحمد افندى عبد البارى طاهر» الأديب الذى كان مدرسا بمدرسة سوهاج مع زميله الشيخ «محمد عبد المطلب»

ومما اقترحه الادباء أن يشرح قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى مطلعها : —

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

وقد أفاض «قراعة» فى شرحها ونقدها والتعليق عليهـا فقام هؤلاء بطبعها والاحتفاظ بها .

ثم نقل إلى وظيفة قاض بمديرية أسوان فى فبراير سنة ١٩٠٥ م وظل بها إلى سنة ١٩٠٦ م حيث نقل قاضيا بمديرية المنصورة فرئيسا لمحكمة بنى سويف

الكلية الشرعية ، ثم عين عضوا بمحكمة مصر العليا فديرا للازهر والمعاهد الدينية وقد بذل جهده فى الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا .

وكان أول ما عمله منذ شغل هذا المنصب أن سعى لمنح الشيخ « سيد بن على المرصفى » عضوية جماعة كبار العلماء ، فكان ذلك إنهاضا للأدب ويدا تشجع على المضى فيه « ولا يؤخذ الشىء إلا من مصادره »

ثم أصبح مفتيا للديار المصرية ، وذلك هو آخر ماتولاه من أعمال ، وما أسند إليه من مناصب ، حتى لستأثر الله به سنة ١٣٤٩ ه الموافقة ١٣٩١ م

شـــعره :

الشيخ « عبد الرحمن قراعة » شاعر مطبوع مشرق الديباجة متلاحم النسج متين السبك رائع التشبيه جزل العبارة رقيق المعنى واضح الغرض ، يتدفق فيضه ويجرى بيانه فى رقة وسلاسة ووضوح ، فلا تعقيد فى لفظه ولا التواء فى غرضه ولا إغراب فى معناه .

وكان الشعر قد طوع له وأرخى له عنانه وأسلس قياده فهو يوافيه على غير تكره وينقاد له وكلما ، خطرت له خاطرة ، أو بدت له بادرة ، أودع ذلك شعره الرصين الفخم ، وكم كان للعربية من هذه الثروة الضخمة من نفع وجدوى ولقراء الأدب وعشاقه من لذة ومتاع ، لو مكنت لهم رواية شعره جملة والوقوف على ما خلفه جميعا ، ولكن شعره تفرق بددا ، وذهب شتيتا ، فلم يجمعه أو يطلبه من الصحف والمجلات وصدور الناس حريص عليه ، وكل ما رأيته فى ذلك كتيب صغير جمع طرفا من نثره وشعره بعنوان « عبد الرحمن قراعه كأديب » .

وأيا ما كان فإنا لم نحكم هذا الحكم على شعره إلا بدراستنا ما عثرنا عليه وبتقليب النظر فى كل ما تيسر لنا من مصادر مختلفة نثق بها .

فما قاله يبرىء نفسه مما رمى به لدى أستاذه الشيخ « محمد الأنبابى » :

أما آن أن تنسى الرباب وزينبا ... وتقلع عما كان فى زمن الصبا

ألم تعتبر إذ كنت أجرد أمردا ... ودهم الليالى قد تركنت أشيبا
ضلال وغى أن يلج بك الهوى ... فتقتعد الأخطار للهو مركبا
إذا لم يكن شيب الفتى رادعا له ... فإن عناء أن تلوم وتعتبا
وإن أحق الناس باللوم من دعا ... سواه إلى طرق الرشاد ونكبا
تركت التصابى ضنة بمناقبى ... وصونا لعرض أن يشان ويثلبا
وما أنا من طعن الحسود بآمن ... على أنه ما قال إلا ليكذبا
أبت همتى أنى أقارف سبة ... على مثلها لم آلف عما ولا أبا
جزى الله بالحسنى عداتى فإنهم ... إذا حاولوا نقصى أزيد تأدبا
ورب صديق قد تجنبت سخطه ... وآثرت ما يهوى خبيثا وطيبا
تحرش بالعدوان فى وقت حاجتى ... إليه وطبع المرء قد كان أغلبا
وألب أعدائى بما وصلت له ... يداه ومنهم صار أنكى وأحربا
ومن ضرسته الحادثات بنابها ... رأى أهون الأشياء صديقا تألبا
ومن خبر الأيام لم ير باقيا ... تمر به الأيام إلا تقلبا
سأضرب صفحا عن مساويه أننى ... مقبل لعثرات الصديق إذا كبا
وأدرك بالصبر الجميـــل مآربى ... فان فات منها مأرب نلت مأربا
وأركب متن الرح فى طلب العلا ... إذا لم أجد الا الأسنة مركبا
وأطرح كل الناس ان علقت يدى ... بحبل أمام الدين شرقا ومغربا
ملاذى وأستاذى وكهفى ومعقلى ... ووالد روحى البر ان شاء أو أبى
«محمد الانبابى» اندى الورى يدا ... وأقومهم فى نصرة الحق مذهبا
وأوضحهم عند الدراية حجة ... وأعذبهم عنـــد الرواية مشربا

إلى أن يقول . —

خدمتك بالمدح الذى أنت فوقه ... وما أبتغى الا رضاك مطلبا
لعلك بالعفو الذى أنت أهـــله ... تمن على من لم يكن لك مذنبا
وهب أننى قارفت ما زعم العـدا ... فاعراضك الماضى كفانى مؤنبا
حنانيك إن الدهر صوب سهمه ... إلى فاصمانى بما كان صوبا

وخلفنى عن ساقة القوم بعد ما سبقتهمو نفسا وأصلا ومنصبا
وصيرنى ما بين أهلى ومعشرى غريبا لفقدى ما آلفت معذبا
فخذ بيدى تحمد صنيعك إننى رأيتك للمعروف أدنى وأقربا
وكف يد الأيام عنى فإنها لعمرك أبقت فى نابا ومخلبا
بمن أحتمى منها إذا أنت لم تجب ندائى وبعد الغيث لم ألف معتبا
فكن يارعاك الله بالموضع الذى عهدناك فيه أن تجيب وتطلبا
ودم سالما للدين تحمى ذماره وللمجد تورى زنده بعد ما خبا

فهذه الأبيات من خير ما قيل فى براءة النفس والتنصل من الذنب ، وطلب الرضا والتماس العفو ، وهى تجلو عليك صورا كريمة من خلق الشاعر وغر سجاياه ، فقد أبت همته أن يقارف سبة لم يقترف مثلها عمه أو أبوه وهو يدعو بمجازاة الحسنى أعداءه ، ويزيد معهم تأدبا كلما حاولوا إنتقاصه وما أروع تأثر النفس بما قصه من صديق تجنب سخطه وآثر هواه إن خبيثا أو طيبا جازاه فى وقت حاجته فأذاه بالتحرش بالعدوان وألق فى نفوس أعدائه وصار أشد منهم حربا وأنكى إيلاما ، ويعرج بعد ذلك بنفس مكلومة وقلب جريح إلى أبلغ العظات وأروع الحكم محدثا عن الصديق والزمان متذرعا بالصبر يدرك به مآربه التى لابد هو موف على طرف منها ، ساعيا إلى العلا ولو كان مركبها الأسنة .

ثم يتجه إلى أستاذه فيخاطبه بكل ما يلين عطفه ويلفت إليه قلبه ملتمسا منه صفحا لم يكن عن ذنب وإذ يفترض نفسه مذنباً فإنما يستعطفه بأبلغ الأساليب تأثيراً فى النفس فقد يكفيه مؤدباً إعراض أستاذه الماضى عنه ثم يعرض عليه ما قد أصابه من فعل الوشاة وما تخلف به عن ساقة القوم وقد سبقهم بنفسه وأصله ومنصبه ، وما زال يكرر له هول ما أصابه وشدة إعراضه عنه . وتنكره له حتى أوفى على الغاية التى لا يصلها إلا الشعراء الفحول فى قوة أسلوب ، وبلاغة تصوير وإشراق ديباجة وحسن عبارة .

وإنك لتقرأ شعره فتحس بروح الشاعر تطل عليك من خلال قصيدة ، وتصافحك عاطفته الرقيقة ويتمثل لك صدق إحساسه ، حتى لتنطبع على شعوره وتشاركه فيما ذهب إليه : ــ

واستمع إليه إذ يرثى صديقه « محمد سلطان باشا » فيقول :

كفى بى حزناً أننى صرت ناعيا ... لنفسى نفسا فى فناها فنائيا
فيا دمع أنجدنى فما لى منجد ... سواك فأنى قد فقدت اصطباريا
ويا حزن لا ترحل فما لك موطن ... تقيم به إلا صميم فؤاديا
ويا حسرتى فى كل يوم تجددى ... ويا لوعتى لازدت إلا تماديا
ويا كبدى حزنا وبؤسا تقطعى ... ويا جلدى إن كنت لازلت واهيا
ويا صرف هذا الدهر جهدك إننى ... أمنت الذى قد كنت من قبل حاشيا

فانظر كيف بلغ به الأسى مداه ، وصور لك فجيعته بموت صديقه الذى نعاه لنفسه التى فناؤها فى فنائه ، وكيف استنجد بالدمع بعد أن فقد اصطباره واستبقى الحزن ليقيم بفؤاده وأوصى الحسرة أن تتجدد ، واللوعة أن تزيد تماديا ، والكبد أن تتقطع حزنا وبؤسا ، والجلد أن كان لا يزال واهيا ، وصرف الدهر أن يجهد ما شاء فقد أمن ما كان يخشاه « إن الذى تحذرين قد وقعا » ثم انظر إلى هذه المعانى الرقاق التى يصور بها غفرانه زلات الدهر مادام لم يكف عن صاحبه ، وإغضاءه جفنه على القذى مادام (أبو سلطان) باقيا

غفرت لك الزلات قبل لأننى ... بكفك عن شخص العلا كنت راضيا
وأغضيت عما فات جفنى على القذى ... لأن (أبا سلطان) قد كان باقيا

ثم يمضى الشاعر فيصور عظم الخطب فيه ، وبلاغة الخسران بفقده فيقول :

لك الويل كل الويل يا دهر إنما ... تعطلت مما منه قد كنت حاليا
عدوت على روض العلا فتركته ... هشيما ومن بعد النضارة ذاويا
وأقفرت ربعا كان بالفضل آهلا ... فأصبح — لا كفران لله — خاليا

إلى أن يقول :ـ

فقدنا الندى لما فقدناه والحجا وفصل القضايا والتقى والمعاليا
وكنت أرى نفسى وفياً فمذ قضى ولم أقض قد أيقنت أن لا وفا ليا

وهذا المعنى الأخير من أبلغ المعانى الشعرية وأروعها وأصدقها دلالة على الوفاء .

ومما قاله يهنىء به الشيخ « محمد عبده » إذ عين فى الإفتاء .

بهديك للفتيـــا إلى الحق تهتـــدى ومن فيض هذا الفضل نجدى ونجتدى
نمت بك للعلياء نفس أبية وعزمة ماض كالحسام المجرد
ورأى رشيد فى الخطوب وحنكة وتجربة فى مشهد بعد مشهد
وعلم كنور الشمس لم يك خافيا على أحد إلا على عين أرمد
فضائل شتى فى الأفاضل فرقت ولـكنها حلت بساحة مفرد

إلى أن يقول :

أمولاى يامولاى دعوة مخلص تقول فيصغى أو تـؤم فيقتـدى
لكل زمان من بنيه مجدد لما أبلت الأهواء من دين أحمد
وقد علم الأقوام أن محمـــدا مجدد هذا الدين فى اليوم والغد

فهذا شعر رائق عذب سائغ مقبول ، لا نبو فيه ولا قلق ولا غموض ولا التواء وكان صديقه الشيخ « محمد عبد المطلب » قد أرسل إليه إذ نقل إلى أسوان شطر البيتين المشهورين :

أمر على الديار ديار سلمى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولـكن حب من سكن الديارا

فكتب إليه « قراءة » هذا التشطير الرائع الرقيق فقال :ـ

أقضى الوقت أجمعه ادكارا لمن عنهم ترحلت اضطرارا

وأطفىء بالمدامع نار قلبي ... فتذكي أدمعي في القلب نارا
وأطلب الاصطبار وأين مني ... منال الاصطبار ولا اصطبارا
وألتمس الديار على التنائي ... كما قد كنت ألتمس الديارا
ديار سكينة وأبي سكين ... ألا يانعم ذاك الجار جارا(١)
رعى الله الوفاء ومن رعاه ... دنا أو شط راعيه مزارا
ولا قرت عيون فتى يوالي ... جهارا ثم لا يوفي سرارا
ليهنك أن عهدك عهد صدق ... وانك خير من حفظ الذمارا(٢)
وانك ان تمر بدار ليلى ... أحاد فقد مررط بها مرارا
أمر بخاطري ومناي أني ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... فأمسح بالدموع لها ثرارا
وما همي الركون إلى الأماني ... ولكن حب من سكن الديارا

وأرسل إلى صديق له يمدحه ويشكره اذ بعث إليه خطابا رقيقا حين كان عليلا .

شقيق الروح أهداني (سلامه) ... فألبسني به حلل السلامة
فلم أر قبله أبدا سلاما ... اذا وافى العليل شفى سقامه
سكرت بطيب رياه فلولا ... تقاه لقلت أهداني المدامة
فيا لك ناظما عقدا ثمينا ... يد الأفكار قد نسقت نظامه
لقد أحرزت غاية كل سبق ... فما (عبد الحميد) وما (قدامه)
إذا همت دعاة المجد يوما ... بمكرمة تكون لك الزعامة
ومن يحكي (سليمان) اذا ما ... دجى ليل الخطوب جلا ظلامه

---

(١) سكينه — كريمة الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر
(٢) الذمار — ما يلزم حفظه

عزائمه تفل يد الليالى اذا امتدت لبغى أو ظلامة
يسدد سهمه نحو المعالى فيدركها فما أمضى سهامه

الى أن يقول . —

كتابك للعليل وفى فوانى على قلبى المنا وروى أوامه
به عبرت عن حالى فشوقى على أشواقكم أبدا علامه
به ابتدأ الشفا مما أقاسى وأرجو الله مولانا تمامه

فهذه القطعة من أطايب الشعر ورقراقه وأكثره ماء وأعذبه مذاقا ، وقد استهل الأبيات بالتورية فى لفظ (سلامه) هن معنيها سلام الصديق مضافا إلى الضمير وسلامة التى هى بمعنى العافية — وختم الأبيات ببراعة المقطع فى قوله (تمامه) .

ومن توريته اللطيفة ما كتبه على مسجد اليوسفى الذى أنشأه بأسيوط صديقه «أحمد شكرى باشا» اذ قال

مسجد اليوسفى تم بناه وفق أمر الخديو توفيق مصر
فأقيموا الصلاة لله فيه واشكروا من بناه «أحمد شكر»

فقد روى بأحمد شكر عن معنييه اسم صديقه وأبلغ الشكر

وقد يستعمل التاريخ فى شعره لكن بقلة كما فى قوله يهنىء «محمود بك رياض» مدير أسيوط إذا ذاك .

رياض المجد محمود رضاها ومن يحمى العدالة لا يهاض

إلى أن يقول : —

تلقينا البشائر أرختنا يديم العدل محمود رياض .
٦٤ ١٣٥ ٩٨ ١٠١١
سنة ١٣٠٨

ولعلك تلاحظ أن حرصه على التاريخ أضعف الشعر الذى حواه ، وذهب بالجمال الذى ألف فى شعره .

وأرسل إليه أيضا مهنئا بعيد الفطر فكان مما قاله : —

مولاى عيد الفطر أورق روضه
وجرت مياه سروره بحياضه

وسعى ليخدم منك أكرم ماجد ... وليستميح الجود من فياضه
فاهنأ به فى ظل والدك الذى ... بالعدل داوى القطر من أمراضه
فبشيره بك قد أتى تاريخه ... العيد محمود بعز رياضه
١١٥ ٩٨ ٧٩ ١٠١٦
سنة ١٣٠٨

وهى أبيات ضعيفة واهية وعسى أن يكون « التاريخ » هو المسؤول عن تهافتها وربما أودع شعره مسائل من العلم وجوابا عنها وهى إذ ذاك نظم ليس فيه روح الشعر ولا روعته ، ولكنك تجده مقبولا سائغا كما فى سؤال وجهه المرحوم الشيخ « محمد الأمير » وأجاب عليه فنسج « قراءة » برد السؤال والجواب فقال فى السؤال : —

على قبر نعمان همت ديمة الرضا ... وعمت أهاليه وجملة حزبه
فهم حرموا عرسا إذا مس أمها ... بغير جماع بل بشهوة قلبه
فلما حمى حر الوطيس بقلبه ... وفار وفاض الماء من عين سكبه
نفوا عنه تحريما فما السر أرشدوا ... فتى فى فتاويكم شفاء للبه

وقال فى الجواب . —

ألا أيها المولى الذى بحر فضله ... تزاحمت الألباب فى ورد عذبه
سألت عن المعنى الدقيق وطالما
كشفت الغطا عن مشكل الأمر صعبه

نخذ مدرك النعمان عنى وان أكون
اذا ذكر الأتباع أضعف حزبه

همو أثبتوا تحريم عرس بمسه ... لإبنتها عند اشتهاها بقلبه
لأن مساس البنت داع لوطئها ... وبالوطء داعى الجزء قام نخذبه
ولم يثبتوا التحريم ان كان مسه ... لها باشتهاء مع افاضة عزبه
لتحقيقنا أن المراد بمسه ... إذن شهوة تقضى تدور بصلبه
وهذا الذى أدركته من كلامهم ... وأبصرتهم قد قرروه بكتبه

وقد يطول نفسه فى الشعر ويتدفق معينه كما فى قصيدة الحج التى يقول فى مطلعها :ـ

علىّ حقوق للمطىّ الرواسم ... تطالبنيها كل حين عزائمى

فقد بلغت ستة وسبعين بيتا

نثره

ولقراءة النثر الرائع الرصين الذى يضارع أرقى الأساليب فى فصاحة تعبيره وروعة معناه وحسن رصفه ، وصفاء مائه ، وبعده من التكلف ونقائه من الطلاء والزخرف .

ومن ذلك ما كتبه الى أستاذه الشيخ « الإنبابى» ينفى عن نفسه ما رمى به من عقوق ، وما اتهم به من طعن .

كتابى الى المولى أطال الله بقاءه ، وأنا أحد من جثا على ركبتيه وانتفع بعلمك ، وأخذ عن تلامذتك ، وعرف لك جزيل حقك ، حين تفاقم الخطب واشتد الكرب ، وشمخ بأنفه الحاسد ، وصغر خده الشامت ، وسيدي وقاه الله ما يكره — يعلم أن الأعراض هى الزجاج لا يجبر كسرها ، ولا يرأب صدعها والدنس ان لحقها لا يغسل بالأشنان ، ولا يزول بتقادم الزمان ، ومولاى أعزه الله هو الوالد المبرور والناقم المشكور والعاتب الذى نتوخى

رضاه والغاضب الذى نخشى أن يجر غضبه علينا غضب الله ، وهو القدوة الذى يتبع فى فعله ، ويتيمن برأيه ، ويرجع الى قوله ، فلا أظن أن يرضى بأن يمزق فى مجلسه أديمى ، ويستباح ما حرم الله من عرضى ، وأقذف بما أوجب الله فيه الحد وينتهك من حرمتى ما الله يعلم أننى منه براء ، ولو شاء لعاملنى بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ — الآية — » فوضح له الحق الذى لا يجهله والرشد الذى لا ينكره ، وعلم أن من وسموا أنفسهم بتتبع العثرات وكشف العورات انما صنعوا هذا الصنيع حين علموا أن النقلة أمثالهم ، والسفلة أشباههم أشاعوا عنى لهـذه الحضرة سابقا انى أسأت الأدب بشعر صنعته وهجو قلته فانتهزوا هذه الفرصة الآن وذهبوا مذهبا آخر يغبرون فى وجه الحق ، ويدفعون فى صدور اليقين والله من ورائهم محيط . . . الخ

وانه وان كان السجع يتمثل فى مثل هذه الكلمة تجد أنه سجع مطبوع لا يتسم بسمة التكلف والقصد ، ولا يطلبه الكاتب على تكره واستعصاء ، وقد يبذل جهدا فى طلب السجع ، ويحرص عليه لكن ذلك غير ملتزم فى الموضوع كله ، ولا ينفر الذوق منه ، أو تنبو الأسماع عنه ، كما قال فى رسالة أرسلها لبعض أصدقائه الشيوخ يستعطفه ويطلب مساعدة محتاج فى طلبته .

أخى — أبى الله إلا أن أكاتبك إذا عرضت مهمة ، وعنت حاجة ، كلمة بالغة ، وقدر لا مفر منه ومحنة منيت بها وسمتنى بميسم الجفاء ، الذى طالما كنت أنبو عنه ، ولعل اعترافى بجنايتى يوصلنى للإغضاء عنها وهنا أعجل بعرض حاجتى .

رافع هذا (فلان) كاده الشيطان من (فلان) بالخبل الخابل والبلاء النازل العاجل ، والداهية التى تصفرّ منها الأنامل ، فلم يستجب لراق ولم ينفع فى سمه درياق ، فسدت فى وجهه السبل وأعيته الحيل ، الا ما كان من الأمل فى الأستاذ الأعظم شيخ الجامع الأزهر فرغب الى فى مخاطبتكم فأجبته مستمنحا شافعا لجوابكم السابق وواجب مساعدته بما فى الوسع ، وقد نبهتك ورقدت ودعوتك للخير وما دعوناك له الا أجبت والسلام .

الأزهريون أساتذة شعراء العصر

كان جل شعراء العصر الحاملون لواء الشعر المعبرون به عن معانى الحياة حسبما تواتى لهم من القرائح وتهيأ لهم من الأسباب من الأزهر ، رضعوا أفاويقه واغتذوا بثقافته العربية ، ومن الطبعى أن يكونوا وهم بهذه المثابة قدوة الناشئين وإمام المبتدئين يهتدون بتراثهم وينشأون على غرارهم وينزعون فى قوسهم ولو جهدوا فى المخالفة وجدوا فى المجافاة ، وليس ينكر أثر المتابعة والاقتداء فى الأفكار والأساليب ، وشعراء الأزهر إذ ذاك زعماء يوجهون وقادة يتبعون ، فليس بدعا أن يسايرهم غيرهم وأن يدرجوا على أساليبهم ويمضوا فى طريقهم صعدا وإذا ساغ لفريق من الشعراء المعاصرين أن يتخطوا الأجيال والعصور إلى شعراء الجاهلية فيقلدوهم فى طريقتهم وينزعوا إلى محاكاتهم ، ويديروا شعرهم على أسلوب العرب الضاربين فى الفلا والبيد ، فيتغنوا بالعيس ويخاطبوا النوى ويسائلوا الدمن والأطلال ويتشمموا الشيح والعرار على طول الزمن وترامى الأمد إذا ساغت المتابعة على انقطاع ما بين التليد والطارف ، والماضى والحاضر فأولى بها أن تكون بين معاصر ومعاصر وأولى بالتأثر أن يكون بالشاعر الذى يرى ويشاهد ويقول ويسمع ويغشى ناديه ويتلق أدبه بالمشافهة والاستماع .

وإن الأبصار لتقلب فى دواوين القدامى وتغوص فى آثار الراحلين على انقطاع الصلة طلبا للاقتداء والتماساً للمحاذاة ، وأقل من ذلك عناء للشاعر أن يلبى داعى المسايرة لشعر يطرق سمعه بالرواية المعاصرة ويصافح إذنه من ألسنة قائليه ويتهادى إليه فى الصحف كلما سنحت فرصة ، أو واتت مناسبة .

هذا وقد كان فريق من فحول اللغة والأدب فى الأزهر أساتذة الرعيل الأول من نابهى الشعراء فى هذا العصر الرافعين علمه المقيضين له أسمى وأرفع المنازل ، أخذ هؤلاء الشعراء الذين تفاخر بهم العربية وتباهى بهم

مصر حواضر الأدب فى أزهى عصورها عن أساتذة من الأزهر فانتفعوا بعلمهم واسترشدوا بنقدهم وتملأوا من روايتهم ، ونزعوا منزعهم ، وجروا مجراهم فى تفهم الشعر واكتناه اللغة والتفطن لمواطن البلاغة وتيسر لهم بهؤلاء الأساتذة ضروب من التوجيه وألوان من التشجيع ، بل وجدوا منهم ماخلق من ملكاتهم الخصبة أسباب الخلود مما لولاه لظلوا مغمورين ، وعاشوا غير مجلين .

وسنبين فى هذا البحث كيف استمد هؤلاء من أساتذتهم الأزهريين حياتهم وكيف نهلوا من فضلهم وعلّوا .



المرصفى والبارودى

كان الشيخ « حسين المرصفى » ذا شهرة بالعلم وصيت بالأدب وكانت الزعامة قد انعقدت له فى التوجيه والنقد وغزارة العلم والبيان يؤمه كتاب وشعراء ويقصده علماء وأدباء ، ويعرض أدبهم عليه فحول الأدب البيان .

« والبارودى » ممتلىء منذ نعومة أظفاره حباً للأدب وإيثاراً للشعر وهوى للبيان ، وما من شك فى أن هواه هو الذى احتثه على « المرصفى » احتثاثا واجتذبه اجتذابا يجد فى درسه وتوجيهه ونقده ما ينقع غلته ويروى صداه .

ولقد جهدت فى تحديد الصلة التى كانت بين « المرصفى » و « البارودى » وعنيت بها كيف نشأت وعلى أى وجه كانت وأين كان الرجلان يلتقيان ؟ ولكن جوابا عن شىء من ذلك لم يتيسر لى فيما قرأت واستقرأت ، فقد يعرف كثير من الأدباء أن « للبارودى » صلة « بالمرصفى » وأن للأول بالثانى انتفاعا ، فقد استفاض الحديث عن ذلك حتى تحدث الشاعر نفسه به ولكن تحديد هذه الصلة وبدءها وكنهها غامض ، فلعل « البارودى » ليساره ونعمته كان قد سعى لاستقدام الشيخ فى منزله والانفراد به فى كل مكان هادىء يمكن للتلميذ من الانتفاع بأستاذه ، ويهىء له أسباب النفع والتوجيه ، ويجد من أستاذه كلما وفد إليه معلماً يعلمه ، وهادياً يهديه ، ومهذباً يصقل أدبه ويجلو بيانه .

ويتحدث الأستاذ « الرافعى » عن صلة « البارودى » « بالمرصفى » فيقول ومن عجيب أمره (البارودى) ما تراه فيما يكتبه عنه الشيخ « حسين المرصفى » منذ ثلاثين سنة وهو أستاذه[1] » .

---

(١) المقتطف الصادر فى ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٢٢ الموافق ١ فبراير سنة ١٩٠٥ م .

ويقول الأستاذ «عباس العقاد» أن «المرصفى» أستاذ البارودى وحافظ وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام[١] .

ويقول المفصل «وأخذ عن (المرصفى) كبار المتأدبين فى عصره من البارودى، فصاحبوه ولازموه وعرضوا عليه بيانهم فهذى ونقح وهذب».

«والمرصفى» حين يتحدث عن «البارودى» يدل على أن «البارودى» «تلقى عنه وتعلم منه»، فإنه يقول «إن «البارودى» لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة قصيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن» ولم نعرف أن «البارودى» اتصل بغير «المرصفى» ممن له دراية أو قرأ بحضرته دواوين الشعر .

ويقول : وسمعته مرة يسكن ياء المنقوض والفعل المعتل بها المنصوبين فقلت له فى ذلك فقال : هو كذا فى قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب، فقلت تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطأها ، مدركا ما ينبغى وفق الكلام وما ينبغى[١] .

«فالمرصفى» يتحدث عنه حديث خبير به ويدل على أن «البارودى» كانت له معه دراسة وانتفاع وأن «المرصفى» كان يراجعه ويوجهه وينقده وما أظن إلا أن «البارودى» قرأ هذه الدواوين الضخمة عليه ، وسمعه ينقدها ويعلق عليها ويبدى رأيه فيها - «والبارودى» يقدر صلته بأستاذه ويفى حق الوفاء له ، يقول «المرصفى» وكان حرسه الله كتب لأبناء وده كتبا وهو فى

(١) الوسيلة الأدبية الجزء الثانى ص ٤٧٤

بحرب الروس ولم تصل إليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالإجابة ، وقد وصل إلى أحد كتابين كتبهما لى يوم قدومه إلى مصر بعد مدة من كتابته(١) ومطلع هذه الأبيات .

يا ناعس الطرف إلى كم تنام ... أسهرتنى فيك ونام الأنام

ويقول فيها :

طال النوى من بعدكم وانقضت ... بشاشة العيش وساء المقام

مولاى قد طال مرير النوى ... فكل يوم مر بى ألف عام

إلى أن يقولى فى ختامها :

فتلك حالى لا رمتك النوى ... فكيف أنتم بعدنا ياهمام ؟

ويقول « المرصفى » وقد شرفت عناية وده أسمى بهذه القصيدة التى يقوول فيهما :

بلوت ضروب الناس طرا فلم يكن ... سوى «المرصفى» الحبر فى الناس كامل

همام أرانى الدهر فى طى برده ... وفقهنى حتى اقتنى الأماثل

أخ حين لا يبقى أخ ومجامل ... إذا قل عند النائبات المجامل

بعيد مجال الفكر لوخال خيلة ... أراك بظهر الغيب ما الدهر فاعل

طرحت بنى الأيام لمـــا عرفته ... وما الناس عند البحث إلا مخايل

فلو سامنى ما يورد النفس حتفها ... لأوردتها والحب للنفس قاتل

فلا برحت منى إليه تحية ... يناقلها عنى الضحى والأصائل

ولا زال غض العمر ممتع الذرا ... مريع الفنا يطوى إليه المراحل

يقول « المرصفى » وعلى أن ليس من طبعى أن أقول الشعر إما لفوت أوان تحصيل وسائله ولم تكن إذ ذاك دواع ترشد إليه ، وإما لأن الاستعداد

---

(١) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ — وأرسل البارودى إلى المرصفى قصيدة أخرى يقول فى مطلعها :

هو البين حتى لا سلام ولا رد ... ولا نظرة يقضى بها حقه الوجد

الذى لا بد منه لم يكن فى خليقتى أنطقنى حبه بأبيات أجملت فيها صفته وهى :

زكا أميرى طبعا واعتلى شرفا ... فدار حيث تدور الشمس والقمر
ونال ما نال عن كد الرجال فلا ... من عليه لشخص حين يفتخر
بفضله كل أهل الأرض معترف ... كما تصادق فيه الخبر والخبر
لا يجهل الرتبة العلياء يعمرها ... ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
صحبته وهو سر فى مخايله ... حتى تخير من أعلائه الكبر
فما أخذت عليه شبه بادرة ... ولا تخيلت أمرا منه يعتذر
أدامه الله نقى من فضائله ... ومن فواضله ما أنبت الشجر

* * *

الشيخ البسيونى وشوقى

قبل أن نتكلم عن إنتفاع أمير الشعراء المرحوم « أحمد شوقى بك » بثقافة الأزهر والأخذ من بعض من أساتذته نقدم بكلمة عن الشيخ « محمد البسيونى » أستاذه فإن الحديث يدور عليه .

من هو « البسيونى » ؟

الشيخ « محمد البسيونى البيبانى » ينسب إلى « بيبان » قرية من قرى « البحيرة » ولد بها فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى تقريبا ، وبعد أن حفظ القرآن أشخص إلى القاهرة لطلب العلم فى الأزهر ، وما أن استقر به المقام بين جدرانه حتى طفق يدرس على أساتذته مختلف العلوم العقلية والنقلية ولازم شيوخه بالأزهر سنين يقرأ عليهم أمهات الكتب فى الفنون التى كانت تدرس إذ ذاك حتى حذقها ، ولما نضجت كفايته ، واكتملت مقدرته تصدر للتدريس فكان معدودا من جلة الأساتذة ، وامتاز الشيخ بنوع خاص فى دراسة العلوم العربية ، فكانت له طريقة فى التدريس لم تكن

معهودة فى ذلك العصر إذ يعمد إلى جوهر الموضوع فيبرزه فى أبهى حلة ويجليه الطلاب غاية التجلية باحثا فى سره دون التعرض للضجة اللفظية ولغط الكاتبين ، وقد ظهر أثر هذه الطريقة فى كتابه « حسن الصنيع » الذى ألفه فى المعانى والبيان والبديع ، وكتبه بأسلوب أدبى رقيق .

وجاوزت شهرته العلمية والأدبية المحيط الأزهرى إلى أفق غير الأزهر فأسندت إليه نظارة المعارف تدريس علوم اللغة العربية بالمدرسة التجهيزية (الخديوية) .

واختاره الجالس على العرش الخديو « توفيق » إماما لحضرته ومدرسا لأنجاله ، فقام بما عهد إليه خير قيام .

ثم أسند إليه مع عمله هذا تدريس اللغة العربية بمدرسة الإدارة التى سميت فيما بعد (مدرسة الحقوق) وكان من بين تلامذته النابهين فى هذه المدرسة المرحوم « أحمد زكى » والمرحوم « أحمد شوقى بك » وكان يدرس علوم البلاغة فى مصنفه المسمى « حسن الصنيع » .

ثم عين الشيخ « البسيونى » مفتيا للمعية السنية وظل فى وظيفته هذه إلى أن جاور ربه فى ليلة الخميس ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٣١٠ ه الموافقة ٣ من نوفمبر سنة ١٨١٢ م فى عهد الخديو « عباس الثانى » رحمه الله تعالى .

شعره والعوامل المحيطة به :

فى أثناء هذه الحقبة التى قضاها « البسيونى » فى خدمة بيت الملك كان يقرض الشعر فى مدح الخديو كلما حل موسم أو أهل عيد ، أو بدت فرصة وقلما نظم الشعر فى غير هذه الأغراض .

ولم يكن من الميسور له وهو من رجال الملك وخلصائه أن يتعرض فى شعره إلى السياسة إلا بقدر يسير جدا ، كما لم يكن من المستطاع وهو من رجال الدين أن يتحدث إلا قليلا عن اللهو والخمر والنساء وما لا يتفق مع جلال الدين ووقار العلم ، لذلك جاء شعره فى دائرة ضيقة ،فلم نعثر له على

شعر إلا فى المدائح والتهانى وغيرها مما تنشره له الوقائع المصرية مما كان يزجيه لصاحب العرش .

وفيما وقفنا عليه يهنىء بها الخديو « توفيق » بعودته من الإسكندرية إلى العاصمة بعد اخفاق الثورة العرابية ووقوع الثوار فى قبضته .

وفى هذة القصيدة يؤرخ العودة بسنة ١٢٩٩ هجرية ، ويضفى على وليه حللا من الثناء ، ثم يعرض إلى الثوار فينال منهم ويسفه أحلامهم ، وإلى الثورة فيصف مآسيها وشرها ، وأخيرا يكل أمر هؤلاء الخارجين على طاعة ولى الأمر فى أسلوب جيد بالنسبة لعصره ويقول فى مطلعها :

رجوعك يا توفيق مصر هناؤها ... وشمس بهاها دائما وضياؤها

١٢٩٩ هـ

فأنت خديويها وأنت مليكها ... وأنت لها من كل سقم شفاؤها

وأنت لها حصن على رغم حسد ... وأنت لها بدر وأنت سماؤها

وما هى إلا روضة وفكاهة ... وما أنت إلا حسنها وازدهاؤها

وأنت لها إنسان عين حياتها ... ولولا تلاقيها لخيف عناؤها

وما هى إلا جثة أنت روحها ... وما أنت إلا مجدها وملاؤها

وما مثلها إلا لمثلك ينتمى ... فيسمو بها بين الأنام انتماؤها

لبعدك كم قاست لعمرى شدائدا ... فاضت إلى أن تستباح دماؤها

ولولا تلافيها لأصبح تالفا ... بقية أهليها وعز نماؤها

وأضحت لأرواح الرياح ملاعبا ... وما طاب فيها للمقيم هواؤها

ومنهـــا :

على عصبة البهتان لا تأس إذهوى ... بها فى مهاوى الموبقات افتراؤها

فقد خلعت ثوب النجاة مذ اكتست

ثياب الردى جهلا وبئس اكتساؤها

وحيث أبت إلا هواها سفاهة ... وساق لها الأخذ الوبيل شقاؤها

رأيت لها رأى الملوك فأصبحت ... وقد ساءها إصباحها ومساؤها

فإن شئت فاصفح أو إذا شئت فانتقم ... فمنك بقاها لو تشا وفناؤها

شوقى ثمرة البسيونى

حين تولى الشيخ « البسيونى » تدريس اللغة العربيـــة بمدرسة الادارة (الحقوق) ، كان بين تلامذتها « أحمد شوقى (بك) » ، « وأحمد زكى (باشا) » كما قلنا فانتفعا بعلمه وغنيا بثقافته وتفطن الأستاذ إلى الموهبة الشابة فى نفس شوقى ، فأقبل عليها بالتوجيه ، ويحدثنا « أحمد زكى باشا » فى حفل تأبين شوقى الذى أقامته وزارة المعـارف فى ديسمبر سنة ١٩٣٢م بأن الشيخ البسيونى أستاذهما فى فنون البلاغة كان لا تخطئه النكتة البارعة اللاذعة أو الساحرة الساخرة ، ومالبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية فأنشأ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلهـا إلى المعية السنية وإلى جريدة الوقائع المصرية وغيرها من الصحف العربية وكان شوقى ببساطة التلميذ الناشىء يشير بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر والأستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

ويقول « أحمد زكى باشا » وأحسن ما أذكر لأستاذى البسيونى رحمه الله أنه كان يتحدث بذلك الينا والى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة « عثمان باشا مرتضى ، وأبو بكر يحى باشا ، وعلى ثاقب باشا ، وشاكر بك أحمد) دون أن تأخـذه العزة بالإثم وأن يغريه الكبرياء اللازم للمدرس بانكار الفضل الذى منحه الله للدارس ، فهذه أول سعادة أحرزها (شوقى)

أجل هذه أول سعادة أحرزها ، فما من شك فى أن إقبال الشيخ البسيونى على شوقى وتنزله معه إلى هذا الحد قد ملأ نفسه ثقة بشاعريته وإيمانا بموهبته وكان أول ما أخذ بيده الى النهوض وشجعه على المضى فى سبيل مجده صعدا فما شىء يدنى الأمل من نفس التلميذ ويوطىء له أسباب المجد والسعادة مثلما

ثفغله رعاية أستاذه البار الكريم الطيب النفس النزيه المسلك ، الخبير بأسلوب التربية وطرق التشجيع .

على أن الأستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش وأفهمه أن بين أثواب هذا الفتى الناشىء براعة نادرة وذكاء فذاً وأنه خليق بالرعاية العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الأرض ومغاربها وكانت هذه الشهادة من أكبر الأسباب التى حفزت الخديو « توفيق » فى سنة ١٨٨٧ إلى إيفاد شوقى إلى باريس ليتم دراسته على نفقته الخاصة ولتغذية مواهبه بروائع الغرب وبدائعه ، وقد تحققت به وفيه الآمال ، فكانت هذه ثانية السعادات .

ومن هنا نرى أن الأزهر ممثلا فى شخص الأستاذ « البسيونى » هو الذى كشف عن هذه القوة الكامنة فى نفس شوقى ، وهو الذى تهدى بشاعرية أشد أبنائه وفراسته إلى عبقريته أكبر الشعراء فوجهها التوجيه الصالح وتعهدها حتى نمت وأزهرت وأنبتت نباتا حسنا ، وأثمرت ثمراً لا يفنى ولا يبيد .

وجميل حقاً أن يتفطن شيخ أزهرى لم ير مفاتن الغرب ، ولم يكتحل بمشاهده ومجاليه ، إلى ما يجب لشوقى أن يطلع عليه من روائع باريس وحضارتها ومباهجها ومفاتنها فيشير على ولى الأمر بإرساله إليها ليتسع أفقه ويخصب خياله ويمتلىء خاطره بأسباب القول ودواعى الشعر .

فلا عجب إذن أن يكون شوقى أمير الشعراء من أفق الأزهر ، وثمرة من ثماره أو فكرة من أفكاره .

* * *

اعتراف شوقى :

ولشوقى حديث آخر بصدد الأزهر يشهد بحسن تقديره لهذا المعهد العظيم وإجلاله لمهبط أساتذته ، فقد أقيم حفل لتأبين المرحوم « عاطف

بركات باشا ، بمدرسة المعلمين العليا فى الخميس الثالث عشر من صفر سنة ١٣٤٣هـ الموافق الحادى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ وأرسل أمير الشعراء قصيدته لتلقى فى الحفل وكان مما قاله فيها :

وحارب دونها صرعى قديم كأن بهم على الزمن انقطاعا
إذ ألمح الجديد لهم تولوا كذى رمد على الضوء امتناعا

وكان فى الحفل صفوة من رجال مصر وجمهرة من شيوخ الأزهر منهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وفضيلة مفتى الديار المصرية إذ ذاك فعدوا ذلك جرحا لكرامتهم وطعنة فى صدورهم ، وكتب أحد علماء الأزهر إذ ذاك مقالا بعنوان « أمير الشعراء ، ورجال الأزهر — للحقيقة والتاريخ . » نشرته جريدة الأخبار بتاريخ ١٧ من صفر سنة ١٣٤٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وقد كانت براعته رحا رد بينيا شك أمير الشعراء الذى نفى عنه الكاتب أن يكون كنادبة المسجى التى تجامل الحاضرين بذكر شىء من محاسن موتاهم وقد ظهرت جريدة الأخبار بعد هذا المقال بيوم واحد وفى صدرها حديث لأمير الشعراء ينفى ما فهمه صاحب المقال من تنكر شوقى للأزهر ورجاله فكان مما قاله « وما أنا من ينسى أن معظم أساتذة مدرسة القضاء نفسها فى العلوم الشرعية بوجه خاص كانوا من شيوخ الأزهر ورجاله وليس من المعقول أن يكون هؤلاء الأفاضل حربا عليها وهم فى النهوض بها شركاء .

إن للأزهر عندى حرمة لا أحب أن يتشكك فيها الأستاذ وأعتقد أن الأزهر قد سد فراغا كبيرا كان التعليم فى مصر والبلاد الشرقية جميعا لا يرجو له بدون الأزهر من سداد .

وسأظل فخوراً دائماً بأن من أساتذتى شيوخاً من صميم الأزهر الشريف وكبار علمائه .

ذلك هو ما قاله شوقى تلافيا لما عساه أن يكون قد فهم من قصيدة التأبين

وإفصاحا عن تقديره الأزهر الذى يفخر أمير الشعراء بأن فيه أساتذة من شيوخه .

على أن أمير الشعراء أراد أن يزيد فى تأكيده تقدير الأزهر وينفى عنه مظنة النيل من أبنائه فالتمس إصلاح الأزهر فى أقرب فرصة ونظم آيته الكبرى التى قالها فى نفس العام الذى أدلى فيه بحديثه عن الأزهر ويقول فيها :ـ

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته ... فى مدحه خرز السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظما ... لمساجد الله الثلاثة مكبرا[1]
واخشع مليا واقضى حق أئمة ... طلعوا به زهرا وما جوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرا[2]
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

ثم يقول :ـ

يا معهدا أغنى القرون جدارة ... وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره ... وأضاء أبيض لجها والأحمرا

إلى أن يقول :ـ

عين من الفرقان فاض نميرها ... وحيا من الفصحى جرى وتحدرا
ماضرنى أن ليس أفقك مطلعى ... وعلى كواكبه تعلمت السرى

وهو يشير فى هذا البيت إلى أنه وإن لم يكن طلع فى أفقه ودرج فى رحابه فقد اهتدى بأساتذته وتعلم السرى على كواكبه ثم يقول :ـ

لا والذى وكل البيان إليك لم ... أك دون غايات البيان مقصرا

---

(١) المسجد الحرام والمسجد الأقصى .
(٢) الذرا الملجأ .

شوقى وكتاب الوسيلة الأدبية :

.. وما دمنا بصدد انتفاع أعلام الشعر بأساتذة الأزهر وجهودهم الأدبية فى هذا العصر فقد يطيب الحديث عن هذا الكتاب الذى نهل منه « شوقى » و « حافظ » ، وكان الكتاب الأول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية كما كانت منه بصيرة « حافظ » .

وليس سر هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فقد كان ذلك فى مصر قديماً ولم يخرج لها شاعر مثل شوقى ، ولكن السر فى هذا الكتاب من شعر « البارودى » لأنه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة، وقد تقضت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبى وغيره ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ولا يخلد الجيل منهم إلا لما رأى فى عصره ولا يستفتح غير الباب الذى فتح له إلى أن كان البارودى فجاء بذلك الشعر الجزل الذى نقله «المرصفى» بإلهام من الله تعالى ليخرج للعربية « شوقى وحافظ » وغيرهما ، فكل ما فى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشىء فتبعثه هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما فى نفسه ما فيه ذكاء وطبع ، وبهذا ابتدأ « شوقى وحافظ » من موضع واحد وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر[١] .

* * *

(١) من مقال للمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى المقتطف الصادر فى ٢ من رجب سنة ١٣٥١ (أول نوفمبر سنة ١٩٣٢ م)

الشيخ محمد عبده وحافظ

« حافظ » رحمه الله أحد الشعراء الذين تفخر بهم العربية فى هذا العصر ولواء من ألوية الشعر الخفاقة فى هذا الجيل ، وقد كان هبة الإمام « محمد عبده » إلى الحياة ، وغرسه الذى نما فى رعايته .

فحين عاد « حافظ » من السودان إلى مصر واستقال من الجيش ، اتصل بالشيخ « محمد عبـــده » وفرغ للأدب ، فبدأ من ثم تكوينه الأدبى المندمج المحكم ، وكان شعره من قبل ظاهر المتكلف واهن النسج مضطرب الفكرة لم تنضج موهبته ولم تشرق عبقريته .

درس فى مدرسة الشيخ « محمد عبده » من سنة ١٨٩٩ م الى سنة ١٩٠٥ م وهذا الإمام رحمه الله كان من كل نواحيه رجلا فذا [١] وكأنه نبى متأخر عن زمنه فأعطى الشريعة ولكن فى عزيمته ، ووهب له الوحى ولكن فى عقله ، واتصل بالسر القدسى ولكن من قلبه ؛ ولولا هو ولولا أنه بهذه الخصائص لكان « حافظ » شاعراً من الطبقة الثانية ، فانه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التى جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه ، وكان له من أثرها الشعر المتين فى وصف العظماء والعظائم .

إلا أن حافظا وجد فى الإمام ما هو أسمى من ذلك فى النفس والجاذبية وبهره منه ما هو عليه من ذوق الأدب والبلاغة ، وحضر دروس الإمام فى المنطق وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز فنضج منها أسلوبه المتمكن وذوقه الدقيق ولازمه وحضر مجالسه فكانت مادة موضوعاته الاجتماعية وأغراضه الوثابة ، وكشف له من الشيخ عن آراء فى الفكر والسياسة والمسائل التى تشغل مصر والشرق فطبع عليه متأثرا بها ، وحضر نظرات عينية وخرج

---

(١) نقلنا ذلك عن بحث للمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى المقتطف (٢٠ من ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ — أول يونية سنة ١٩٢٦ م)

منها بروحانية قوية هى التى تتضرم فى شعره الى الأبد ، لحافظ إحدى حسنات الشيخ على العالم العربى . وهو خطة من خططه فى عمله للإصلاح الشرقى الإسلامى والنهضة المصرية الوطنية ، وإحياء العربية وآدابها ، وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عدت للتأريخ وجب أن يقال أصلح وفعل وفسر القرآن وأنشأ حافظ ابراهيم .

على أن أذن الإمام هى التى أتمت ملكة الشعر فى « حافظ » ، فقد ألف أن يسمعه شعره ، واعتاد أن يعرض على ذوقه الأدبى المصقول كل مايقرضه وصار ذلك طبعا فى « حافظ » حتى أنه ليستحسن مواطن الأدباء والشعراء فى المجالس والأندية كى يسمعهم نظمه .

وكان المرحوم « مصطفى صادق الرافعى » قد نظم أول عهده بالشعر قصيدة فى مدح الإمام وأنفذها إليه ثم لقى « حافظا » فقال « حافظ » أنه تلاها على الإمام وانه استحسنها ، فقال له الرافعى فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال أنه قال لا بأس بها فاضطرب شيطان الرافعى من الغضب وقال إن الشيخ ليس بشاعر فليس لرأيه فى الشعر كبير معنى ، فقال له « حافظ » ويحك أن هذا مبلغ الاستحسان عنده ، قال الرافعى — قلت « لحافظ » وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال أعلى من ذلك قليلا ، فأرضانى والله أن يكون بينى وبين « حافظ » (قليل) وطمعت من يومئذ ، وأنا أرى أن « حافظ ابراهيم » إن هو إلا ديوان الشيخ محمد عبده لولا أن هذا لما كان ذلك[١]

* * *

(١) الرسالة المجلد الثانى ص ١٨٨٢

قراءة وعبد المطلب

فضل الأزهر على المرحوم «محمد عبد المطلب» الشاعر معروف لا يجحد فقد اغتذى بثقافته فى الصبا سبع سنين قضاها بين طلابه وهى فترة ليست قصيرة فى حساب ذوى الملكات والموهوبين، ثم التحق بمدرسة دار العلوم فدرس كتب الأزهر فيها، وتلقى العلم على أساتذة الأزهر بها كالشيخ «حسن الطويل» والشيخ «حسونه النواوى» والشيخ «سليمان العبد» وغيرهم من العلماء والأدباء الذين أمدوا هذه المدرسة بالحياة، ولولا أننا قصرنا حديث دراستنا على الأزهريين بدءا ونهاية لكان «عبد المطلب» أحد الذين نتناول حياتهم بالإسهاب وشعرهم بالدراسة والتحليل، ولكننا نلمح إلى اغتـــذائه بثقافة الأزهر وانتفاعه بعد مرحلة الطلب به بعلم من شعرائه الأفذاذ وهو المرحوم الشيخ «عبد الرحمن قراعة»

حين تخرج «محمد عبد المطلب» من مدرسة دار العلوم أصبح مدرسا بمدرسة سوهاج الابتدائية حيث قضى بها بضع سنين، ذاع صيته فيها بين كبار الحكام والأعيان وتعطرت مجالسهم بخطبه وقصائده واختصه منهم بصداقته علامتنا الفاضل الشيخ «عبد الرحمن قراعة» فاقتبس كثيرا من علمه وأدبه وطيب أخلاقه وسجاياه [1]

انعقدت الصداقة بين الرجلين، والمرحوم الشيخ «قراعة» أديب كبير وعالم فذ وشاعر ضخم فكان ذلك قادحا فكر عبد المطلب، باعثا على نمو قريحته وبسط أفقه وتنشيط موهبته، ولا شك أن «قراعة» كان أسبق منه قرضا للشعر وأكثر منه دراية بالعلم والأدب وفنونه، وهو بهذه المثابة أولى بتوجيه (عبد المطلب) وتهذيب فكره وتقويم شعره، ولعلنا لا ننسى أثر المرحوم اسماعيل صبرى باشا فى ترويج الشعر وتهذيبه وصقله فقد كانت

---

(١) من كلمة الأستاذ السكندرى فى تأبين عبد المطلب وهى فى مقدمة ديوانه

منتدى للشعراء يقرضون شعرهم على أذنه الموسيقية التى يؤذيها نبو الوتر ، وكذلك كان (قراعة) اتخذ من بيته كلما حل ناديا للأدباء والشعراء وكان (عبد المطلب) ألصق الناس به وأكثرهم ملازمة له ، وهو يحدث بذلك فى ديوانه إذ يقول (وكانت بينى وبين الأستاذ الكبير الشيخ «عبدالرحمن قراعة» صداقة انعقدت بيننا منذ سنة ١٨٩٧ م وكنت من الذين يعرفون فضله فى العلم والأدب فلا غرو أن ترى لى فيه قصائد عدة)

أهديت إليه خلعة تشريف العلماء فقلت أهنئه :

أجد عهدك بالتشبيب بالغيد   وجد يجد بتحنان الأغاريد

ويقول فى هذه القصيدة مادحا (قراعة)

وللفصاحة من ألفاظه درر   تعلو فرائدها من غير تنضيد[1]

تجلو المعانى للاسماع صافية   تروى النفوس بمحلول ومعقود[2]

وللبلاغة فى أسلوبه نغم   يغنى الأديب بها عن نغمنا لعود

بكل معنى جرى حسن البيان به   مع البلاغة جرى الماء فى العود

ويقول — وكان صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ (عبد الرحمن قراعة) جارا لى بسوهاج فلما نقل الى أسوان ونازعنى الشوق الى رؤيته كتبت إليه مشطر البيتين أمر على الديار ديار سلمى . . . الخ . وقد رد عليه (قراعة) بشعر رقيق لطيف ، وفى ديوان (عبد المطلب) كثير من شعره الذى قاله فى صديقه (قراعة)

ومن الطريف أن أول قصيدة فى ديوان (عبد المطلب) فى حرف الألف وجهها الى (قراعة) ردا على كتاب ورد منه ، وأن الديوان يكاد يختم

---

(١) الفرائد — الجواهر النفيسة واحدها فريدة وتنضيدها ضم بعضها إلى بعض فى اتساق .

(٢) المحلول من الشراب الرقيق والمعقود الغليظ الثخين .

بقصيدة قالها (عبد المطلب) فى توديع الشيخ (قراعة*) يوم نقل من سوهاج إلى أسوان فى فبراير سنة ١٩٠٥ م — ومما جاء فيها :—

فيا قاضيا بالدين تجرى فعاله ... ويرضاه فى أحكامه العمران

ويا نائبا فى دينـــه عن نبيه ... نيابة فضل لا تشان لشانى

ويأيها البحران كيف افترقتما ... وقد مرج البحرين يلتقيان

تقاسمتما منا قلوبا قد اغتذت ... بسوهاج من آدابكم ببيان

وغير هؤلاء كثير من ألوية الشعر فى هذا العصر راض شعراء الأزهر وأدباؤه بيانهم وصقلوا شعرهم، وهذبوا فكرهم، ووجهوهم الى الأدب الناصح والبيان الكريم، من أمثال : (محمود صفوت الساعاتى) و (حفنى بك ناصف) وغيرهما . فقد وجدوا من فحول البيان فى الأزهر معينا لا ينضب وهدى لا يضل .

خاتمــــة

أما بعد

فهذا بيان لأثر الأزهر فى النهضة الأدبية الحديثة ، وعلى رغم الجهد الموفور الذى بذلته والبحث المضنى الذى اضطلعت به أعد عملى هذا الذى أرضيت به ضميرى وأبنت به عن وفائى لمعهدى محاولة ان لم تبلغ الكمال فقد قاربته وان لم توف على التمام فقد شارفته ، وحسب هذه البراعة أنها خطت فى هذا البحث أول مكتوب ونقشت فى صفحته أول بيان .

ولعل من اليمن أن يكون فراغى من الحديث عن فضل الأزهر فى مثل اليوم الذى تم فيـــه انشاء الأزهر فى التاسع من شهر رمضان المبارك ، فعسى أن يكون ذلك بشير خير ويمن وفأل بركة واسعاد .

وأسأل الله أن يجعل فضل الأزهر على العلم والأدب موصولا وأن يظل أبناؤه للدين والأدب العربى أعضادا وحماة يفيئون إلى رعاية الله .

فهرست الجزء الأول

صفحة　　الموضوع

صفحة	الموضوع

فهرست الجزء الثانى

صفحة　　الموضوع

فهرست الجزء الثالث

صفحة	الموضوع

أهم مراجع البحث

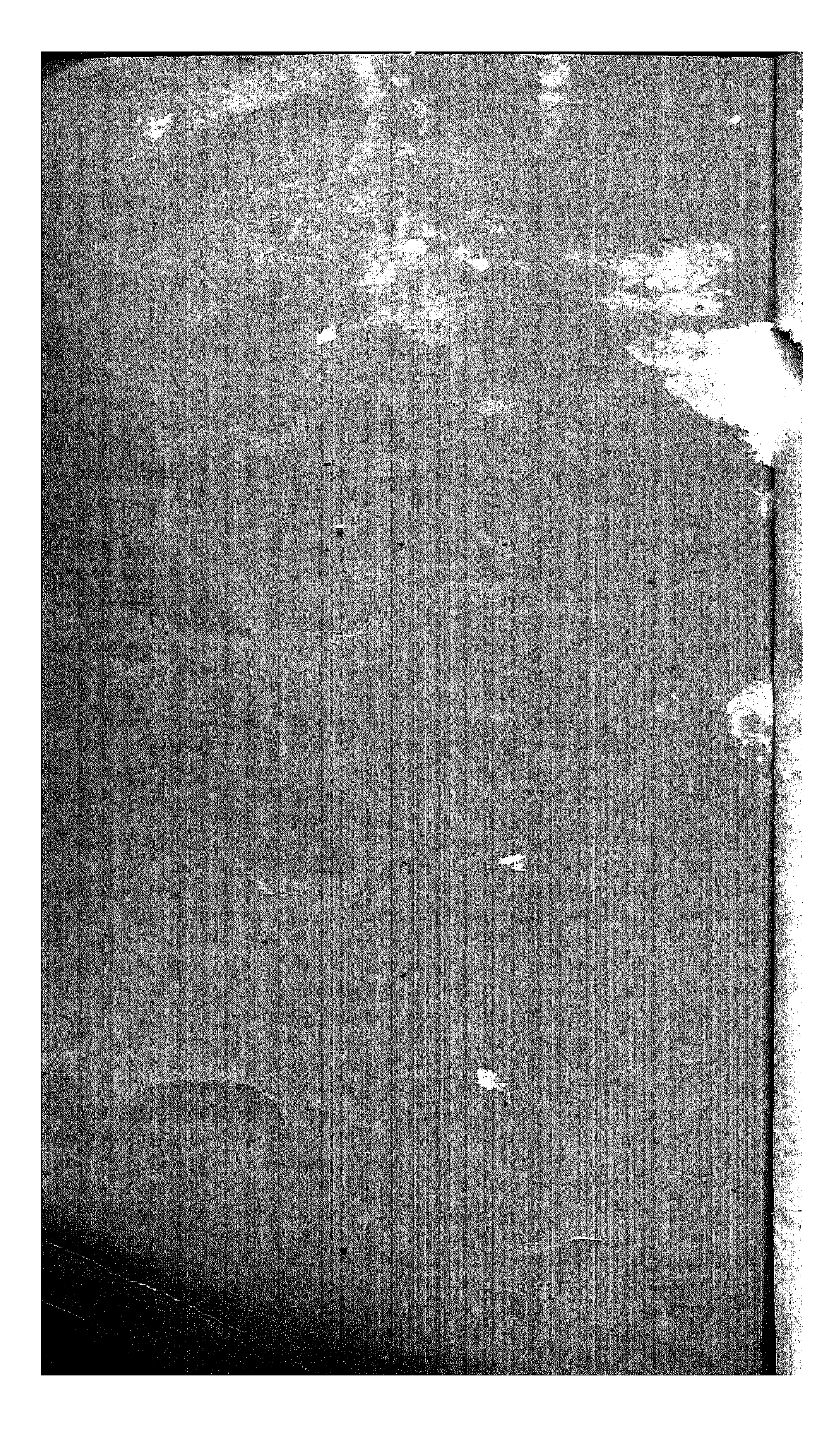
١ ـ خطط المقريزى
٢ ـ الخطط التوفيقية لعلى (باشا) مبارك
٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان
٤ ـ صبح الأعشى للقلقشندى
٥ ـ السلوك فى دول الملوك للمقريزى
٦ ـ عجائب الاثار فى تراجم الرجال والأخبار للجبرتى
٧ ـ تاريخ الأزهر لمصطفى بيرم
٨ ـ كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر للشيخ سليمان رصد
٩ ـ تقويم النيل لأمين (باشا) سامى
١٠ ـ دائرة المعارف للبستانى
١١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (بك)
١٢ ـ تراجم مشاهير أدباء الشرق لجورجى زيدان (بك)
١٣ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى
١٤ ـ الوسيط فى الأدب العربى
١٥ ـ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للويس شيخو
١٦ ـ أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور (باشا)
١٧ ـ تاريخ التعليم فى عهد محمد على لأحمد عزت عبد الكريم
١٨ ـ المختار لعبد العزيز البشرى
١٩ ـ المرآة لعبد العزيز البشرى
٢٠ ـ الوسيلة الأدبية للعلوم العربية للشيخ حسين المرصفى

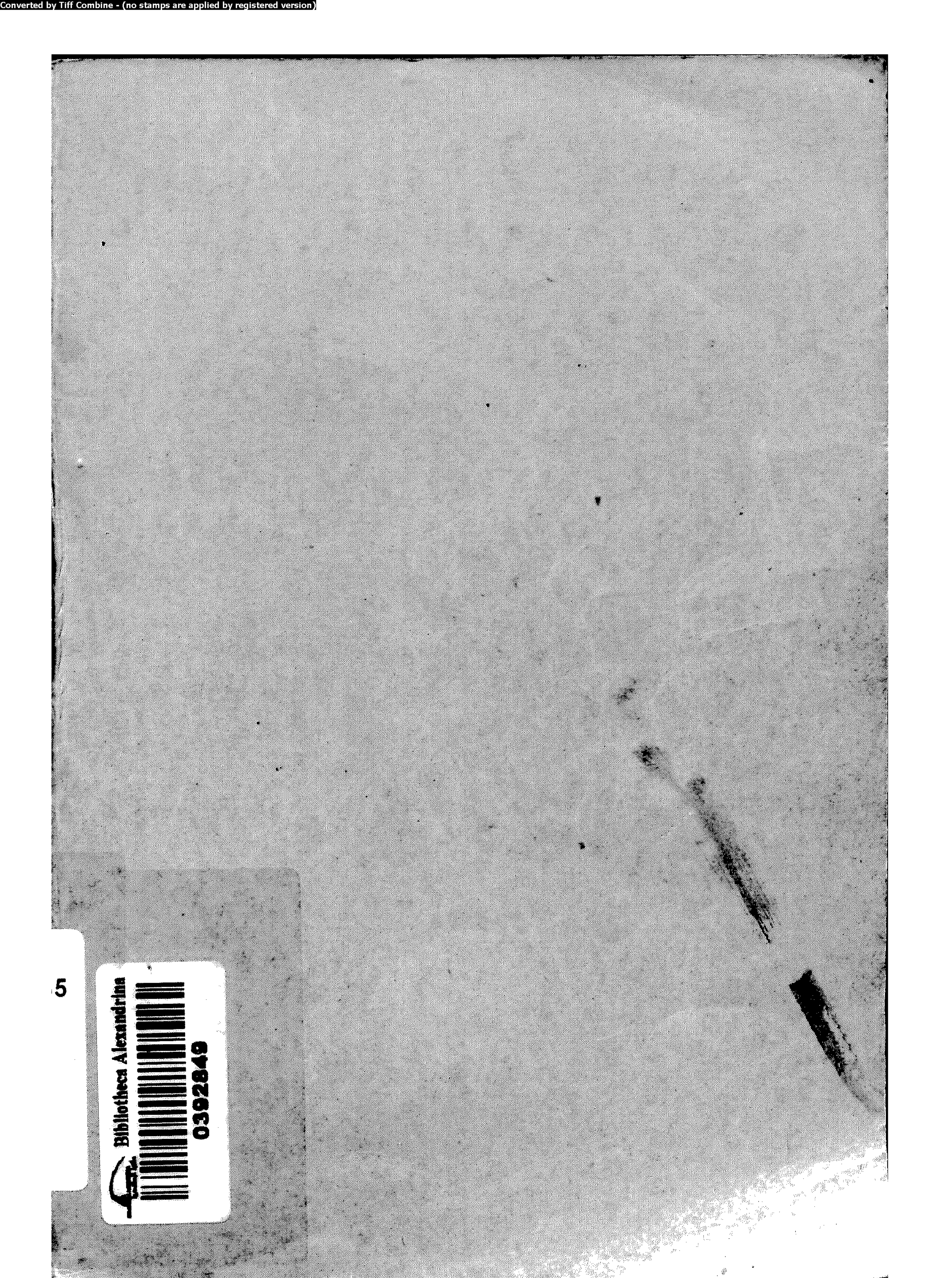
٢١ — أعيان البيان لحسن السندوبى
٢٢ — أشهر مشاهير أدباء الشرق لحسن السندوبى .
٢٣ — مرآة العصر لإلياس زخوره
٢٤ — الإسلام والتجديد لتشار لزاد مس
٢٥ — تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى
٢٦ — الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى
٢٧ — تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا
٢٨ — البعثات العلمية للأمير عمر طوسون
٢٩ — تطور الصحافة المصرية لابراهيم عبده
٣٠ — تاريخ الوقائع المصرية لابراهيم عبده
٣١ — تاريخ الصحافة العربية للكونت دى طرازى
٣٢ — مصر للمصريين لسليم خليل النقاش
٣٣ — تجديد ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين
٣٤ — حديث الأربعاء للدكتور طه حسين
٣٥ — شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد
٣٦ — مراجعات فى الآداب والفنون للعقاد
٣٧ — تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات
٣٨ — مذكرات الأدب العربى للاستاذ محمود مصطفى
٣٩ — رغبة الأمل من كتاب الكامل للسيد المرصفى
٤٠ — مقدمة ابن خلدون
٤١ — الأزهر لمحب الدين الخطيب
٤٢ — تاريخ الأزهر للدكتور عبد الواحد وافى

هذا عدا كتب أخرى تتصل بالبحث من بعيد أو قريب وعدا جميع الصحف والمجلات التى هى سجل لآثار النهضة من مستهل نشأتها وعدا الوثائق والمحفوظات والمخطوطات المودعة فى خزائن الكتب المختلفة والدواوين الرسمية التى أودع فيها رسائل ومكاتبات مما هو مرآة للحياة الثقافية فى مظاهرها ومراحلها المختلفة يضاف إليها دواوين الشعر وآثار الأدباء والشعراء الذين تدور عليهم الرسالة ما طبع من هذه الآثار وتلك المؤلفات وما لم يطبع .








Bibliotheca Alexandrina
0392849